ضد مجهول

رواية

ضد مجهول

رواية

أحمد ربيع

تصميم الغلاف: محمد محسن

الطبعة الأولى: 2017

الطبعة الثالثة: 2019

الطبعة السابعة: 2021

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **2019/2198**

الترقيم الدولي: 978-977-6534-65-0

مدير النشر: هند عبد الله

إشراف عام: رباب الشهاوي

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما. أمام جنينة مول. مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing

ضد مجهول

رواية

أحمد ربيع

الفؤاد للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى كل من عرف الحرية وعشقها . .

أحمد ربيع

أحداث هذه الرواية من نسج خيال المؤلف،

الأسماءِ مختلقة، والأماكن مفتعلة،

وأى تشابه بينها وبين الواقع

هو من قبيل المصادفة

غير المقصودة.

المتهمون

وحيد حسين

عناية السيد / رئيس قطاع البحث الجنائي:

إلحاقًا بكتابنا المرسل إليكم بتاريخ 2015/4/6، والتي انتقلنا فيها بعد بلاغ من أحد الأهالي بعثوره على جثة مجهولة الهوية بدائرة القسم، واتصال سيادتك الكريم بنا واهتمامكم بالأمر واستعجالكم له.

نفيدكم بأن التحليلات الواردة إلينا اليوم من معمل الأمن الجنائي، "مرفق صورة"، تثبت صحة استنتاجنا وما ذهبنا إليه، من كون الجثة مقطوعة الرأس، والتي عثر عليها بلا متعلقات، عائدة إلى المدعو / محمد عبد الرحمن محمد الغرباوي، 28 سنة، محاسب، والمقيم في مساكن رامو، مكرم عبيد، مدينة نصر، والمتهم في القضية رقم 2013/143، جنايات القاهرة، بتكوين تشكيل عصابي وتزعمه، والقيام مع آخرين بأعمال السطو المسلح، والسرقة بالإكراه، والاستيلاء على ممتلكات الغير بالقوة، وبغير وجه حق، والتي اتهمه فيها كلاً من التالية أسماؤهم:

1 - "أحمد محمد رفعت"

2 - "سهام إبراهيم كامل"

3 - "داليا عاطف الوكيل"

4 - "محمد شعبان مشتوهري"

5 - "منى فتحي إسماعيل"

بالتهمة السابقة.

وقد توصلت تحرياتنا لصحة الواقعة، وتم إحالتها إلى النيابة، والتي بدورها أحالتها إلى المحاكمة الجنائية، وحددت لها جلسة بتاريخ لاحق.

ونعتقد أن للخمسة الذين اتهموه سابقاً، أو بعضهم، يد فيما آلت إليه

الأمور من قتله، وفصل جثته عن رأسه، وذلك لسابق الخصومة، ووجود الدافع، والرغبة الدفينة في الثأر.

هذا وقد أرسلنا في استدعاء المشتبه فيه الأول، صاحب السيارة المسروقة، وزوج المشتبه فيها الخامسة، كما تم تشكيل دائرة بحث في أرجاء حدود منطقة القسم وما يجاورها، للبحث عن الرأس المقطوعة، ربما تدلنا على معلومات حول الكيفية التي ارتكبت بها الجريمة، وأين، خاصة أنه لم تبد على الجسد أي دلائل مقاومة، وأثبت المعمل الجنائي من طريقة الذبح أنها تمت فجأة، وعلى يد محترفين، وبمباغتة من أشخاص، كان هذا الأخير يجلس وسطهم متوتراً، وبآلة حادة مسنونة الحواف، بما يؤكد وجود القصد الجنائي، وسابق التخطيط له، ويعتقد أن أحدهم أمسك به من رأسه، فيما أجهز الآخر عليه بضربة واحدة، ومباشرة.

ونحيط علم سيادتكم بأننا لن ندخر وسعاً في كشف الغموض الذي يحيط بهذه القضية، واكتشاف الفاعل أو الفاعلين، أياً كانوا وأياً كانت مواقعهم، آملين تقدير النقص في القوات، لظروف القسم التي لا تخفى عليكم.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام...

معاون المباحث

القائم بأعمال رئيس المباحث

وحيد حسين إبراهيم

وقّع على التقرير، وأمر مساعده بتصويره، وإرساله مع مخصوص، كما أمر بإرسال طلب استدعاء للمشتبه فيه الأول، سبّه وهو يلعن تهوره وغباءه، ثم تساءل عما كان سيفعله لو كان مكانه، كل الأحداث كانت

تمضي تقريباً إلى هذه النهاية، فتح ملف القضية للمرة المائة، تساءل إن كان هذا المجنون قد فعلها حقاً رغم سابق تحذيره له، لا يقوده التفكير لشيء فيتوقف عقله، أين حار الرجال، بصدره تعاطُّف مع متهم صار مع الوقت صديقه، في مخالفة صارخة لأبسط أعراف عمله، كما أنه لا يشك لحظة في ذكاءه، ويكاد يكون متيقناً من ارتكابه للجريمة، لو كان مكانه لفعلها، بل ودوره الآن أن يدينه، وقد أرسل في طلبه ليفعل، سيكون اللقاء بينهما عاصفاً، إن تجرأ وحضر.

هز رأسه بأسى وهو ينفث دخان سيجارته، ويتطلع عبر النافذة لمدخل القسم، الذي تحول لقلعة، وانتشرت على الباب وخلف السور العالي، المُنشأ حديثاً والمدهون على عجل، أكياس الرمل، والحرس المدججين بالأسلحة، والمرتدين الأقنعة، والجالسين في أوضاع تأهب، والملقين الرعب في قلوب من ينظر إليهم، والقلق لمن يحرسونهم.

أمامه شارع على أمين، العريض والرئيسي، به طريق واسع للسيارات في الاتجاهين، ويتوسطه حديقة، يليه منطقة الملاعب التابعة لجامعة الأزهر، والتي تمتد على مرمى البصر، حتى نادي العاملين بنفس الجامعة، بتشكيله الهرمي المهيب، عن يمينه المدينة الجامعية للبنين، المُغلقة بأمر من الرئاسة، عن يساره مبنى أمن الدولة الضخم، الذي صار اسمه الآن مبنى الأمن الوطني، بأسواره العالية، وحواجزه الحجرية، التي تلتهم نصف الشارع، خلفه المعسكر الأشهر للأمن المركزي، المكتب الذي يمارس منه عمله ليس مكتبه، والثكنة التي صار إليها القسم لا تخضع له، والقضية كلها تشعره بضيق، الحق فيها ضائع، والمنطق مفقود، والضغط عليه ثقيل، والتوصيات غير طبيعية، ويكفي أن هذا ثالث طلب من قياداته المختلفة بالوزارة.

مع آخر أنفاس السيجارة التي امتصها، فتح النافذة وألقى بالعقب على غير عادته، دار في الغرفة قليلاً عاقداً كفيه خلف ظهره، تأمل شاشة التلفاز العريضة التي تحتل الحائط المواجه، وتذيع صوراً ملونة ومتتابعة، لا يفقه منها شيئاً، حوَّل بصره لأكوام القضايا المتراصة، غمغم بكآبة:

- ما الحصار، إذا لم يك ما أعانيه ؟

❖❖❖❖

منى إسماعيل

المسافة من مطعم السمك الذي كنا فيه، بأول الطريق السياحي، حتى الممشى على البحيرة، كافية للتلمظ، والإحساس بالطعم الرائع، الذي لما يفارقني بعد، الفتى المكافح الذي يعرفنا جيداً، والمرتسمة أمارات الشقاء على ملامحه، والمختفية وسط بسمته المشرقة، وسمرته القوية، الواقف على نصبة المشروبات بالكورنيش، يسارع بإعداد كوبيّ الشاي بالنعناع المتعارف عليهما، قبل حتى أن نطلب، وكأنه يؤكد معرفته بنا، كوننا زبائنه الدائمين، حتى لو كنا قادمين من القاهرة، في هذا الوقت المتأخر من الليل.

أمنحه ابتسامة حلوة من بين شفتين مكتنزتين، كاشفة عن أسنان لؤلؤية متناسقة، أرشف رشفة، وأدع التأثير السحري للمشروب الساخن يتغلغل في أعماقي، وينفذ إلى حواسي، أتنشق النسيم الرائع الذي يوشوش صفحة البحيرة وأتركه يلامس وجهي، أبدو متجاوبة مع هذه البقعة التي أعشقها، وفى حالة من السلام الداخلي، لعلي أنسى ما نحن خارجين منه، أو أحاول إقناع نفسي بهذا، يفاجئني زوجي الذى لم يقف ليتسامر مع بائع الشاي كالعادة، ولا ألقى عليه التحية. بحث عن أقرب كرسي ورمى جسده عليه، جلس ساهماً واضعاً ساقاً على ساق بجوار السور الصخري، مسنداً جانب ذقنه لراحته، رد باقتضاب غريب على الفتى الذي لم يعتد منه ذلك، اختفت الحميمية التي كانت تميزه، طوال الطريق وهو يقود صامتاً تماماً، لم يسمع أغانيه المعتادة، ولا حتى أدار المؤشر على إذاعة القرآن الكريم. أتأمله بطرف عيني، لأجد في وجهه جموداً، لم يك له أبداً فيما مضى، ابتسامته باردة ومصطنعة ومبتسرة، كما أنه لم يستجب لرغبات

طفليه في اللعب .

يلتفت إليّ بعد فترة، اقرأ في عينيه أنه يدرك أني كنت أراقبه، يهرب مني مطرقاً ويغمغم بما لا أسمعه فأستعيده، يسألني بصوت أوضح إن كنت أريد قضاء الليلة هنا، الفجر على الأبواب، وتباشير الصباح قد بدأت تقترب، هل يذهب ليحجز غرفة في الموتيل الصغير والقريب، والذي اعتدنا النزول فيه، رنة صوته أقل رومانسية مما اعتدت في مواقف مماثلة، وأكثر حزناً واغتراباً، لا أدري من أين أتى بها، أود، أكتفي بهز رأسي نفياً في بطء وهدوء، وأنا أراهن أنه لن يسألني عن السبب، من تلك المجنونة التي ستضيع على نفسها فرصة الاستيقاظ على منظر كهذا، وأنفاس نقية كتلك، وصباح يخالف كل الصباحات العادية.

يربح شيطاني الرهان ولا يسأل، في أوقات أخرى كان لا يمكن ألا يفعل، وبمنتهى الرقة والعذوبة، أكاد لا أصدق، ما كل هذا الغم، فيم يفكر، السؤال على طرف لساني، ولا أجرؤ على طرحه، الحيرة في نظراته، هل سيريحه لو سألت، أمأن للتجاهل حسناته، خاصة وأنا الحصيفة العاقلة، والتي اختارها زوجها دون كل نساء العالم، لهدوئها واتزانها وصمتها ؟

هذا كائن دون خبث، أعرفه منذ سنوات، وما أراه الآن ليس ما اعتدته، يشوه الاستياء ملامحه، وفقدت عيناه بريقها المعتاد، الهواء يعبق برائحة بدأت أخافها، والصدور معبأة بما تخشى البوح به، النظرات زائغة ومرتبكة، والإشارات وجلة وتائهة، الظلال تحت أقدامنا غيمة سوداء، ما حدث يبدو أنه لن يفارقنا ما بقى لنا من عمر، رأسي بها ألف مطرقة، أود لو أهزها بعنف، ليست المأساة في الجريمة، ولا السؤال إن كان قد قام بما هو منسوب إليه، وهل تحول فعلاً إلى هذا الشخص، ولا حتى هل يمكن أن يكون زوجي قاتلاً، السؤال هو، كيف وصلنا إلى هذه اللحظة؟

فوجئت حين خروجي صباحاً بِسُلَّم البيت وقد وقع منه ما بين الدورين الأول والثاني، بحيث صرت أرى بسطة شقة أخي الذي في الثالث مباشرة، ناديتهم فوجدتهم جميعاً يعرفون وربما لا يبالون، ليس في الأمر أي مفاجأة، تقادم السنين ورخص المواد المستعملة وكثرة عدد مستخدميه، جعله يتهالك ويتداعى أمامنا يومياً، حتى هوى.

البيت مكون من أربع طوابق بخلاف الأرضي، ككل البيوت العشوائية التي بُنيت بدون ترخيص، وفي غفلة من الحكومات المتعاقبة، وبلا مرافق، بدأ الأمر بدورين، دور لإخواني من أبي، ودور لأمي لما أعرس بها هذا الأخير، كان في الثامنة والأربعين من عمره، وكانت في السادسة عشرة، أنجبتني وشقيقتي فبنى أبي دورين إضافيين لأشقائي الثلاث منه، ورمى أساسات دور إضافي لي، كعادة معظم الفلاحين الذين نزحوا إلى القاهرة بلا عمل ثابت، ولا صنعة يجيدها، ولا مورد رزق، عمل بالبناء زمناً، ثم تطور به الأمر حتى صار مقاول أنفار صغير، جاور المقابر وكان الأمان بالنسبة له هو السكن، ولتغلق البيوت على من فيها بأي فرش وطعام، وإن لم يوجد فلا بأس، بابك يمنع عنك عيون المتلصصين، ريثما يتجمع ما يكفي للتكملة فيما بعد.

لم يمهله القدر ولا الأمراض، الماء الذي نشربه ملوث، والتهوية سيئة، والصرف الصحي منعدم، لم يتحمل صدره المتهالك أصلاً من السجائر، بعد عامين من الدوران في المستشفيات أسلم روحه إلى بارئها، وابتسامة هادئة على شفتيه، رحل تاركًا أمي أرملة شابة وجميلة وريانة، تشع حلاوة ويتهافت على بابها طلاب الود والإحسان، أعلن أشقائي من أبي أنهم لن

يساعدوننا وليس بمقدورهم، طلبوا منها صراحة أن تتزوج، لازلنا صغاراً والمسافة تبدو بعيدة، لكنها رغم ذلك اكتفت بي وبشقيقتي، وأقفلت بابها عليها، وحمدت ربها أن أظلها سقف مع رجل مثل أبي، ولو لسنوات معدودة، كنت في السابعة من عمري حينما خرجت لبيع الجبنة القريش والعسل الأبيض والفطير الفلاحي، رافقتها في الأسواق وهي تحمل الطشت الحديدي الواسع بمحتوياته فوق رأسها جيئة وذهاباً، وترفض مطلقًا أن أحمل شيئاً حتى لا تتأثر صورتي أمام الزبائن والتجار كما تقول، كانت تمسك بيدي بشدة توجعني أحياناً، ونحن مقبلين على سوق من الأسواق المتعددة، التي تقام كل أسبوع في مكان مختلف، وتقول بصرامة آمرة أني رجلها بعد أبي، أمام هذا العالم الغريب القاسي والمتوحش، تنبهني أنه ليس مسموحاً لي باللعب، ولا بالتأخر في الدراسة، وتحذرني من النساء، عشق أبي الأكبر، وسبب ضياعه قبل أن يعرفها، لم أكن أفهم، لكني كنت أهز رأسي مؤمّناً على كلامها، شاهدت التجار، وباعة الخضار، والدواجن، والأسماك، وهم يعاونوها طلباً لرضا الله، أو خطباً للود، أو لمشاركة الهم، كما شاهدت الرتب الكبيرة وهم يركلونها بأحذيتهم، وموظفي البلدية وهم يصادرون الطشت بمحتوياته، وينقلونه إلى العربة الكبيرة ذات الشاسيه الطويل، وصيحات الأمناء، وأوامر الضباط الزاعقة، وجلبابها المتسخ من أثر الجلوس على الأرض، وهي تجري وراء العربة وسط الزحام، والصرخات، والهدير المتصل لمحرك السيارة.

كبرت قليلاً فقُدت أول سيارة ميكروباص صادفتني، لم يكن التوك توك قد انتشر بهذا الشكل، عرفتني كل خطوط مسطرد، الخصوص، أحمد حلمي، شبرا، رمسيس، الحدائق، باب الشعرية، غمرة، وحفظني أسفلت الطريق، أعمل بجانب الدراسة، وأحتاج كل قرش يمكن الحصول عليه،

لكن مشاكل القيادة كانت كثيرة وشرسة، والمشاجرات فيها يومية، وحادث واحد يذهب بأرباح شهر من العمل، إضافة إلى أن معاش الضمان الاجتماعي الذى نحصل عليه من الدولة، لا يكفي للعيش الحاف.

هكذا سافرت شرم الشيخ للعمل بأحد الفنادق، بناءاً على نصيحة سائق أكبر سناً وخبرة، بدأت العمل بالمطعم ثم تعرفت على مُطلقة من أمريكا اللاتينية، خلاسية، هجين بين البيض والسمر، في أوائل الثلاثينات، وأبوها صاحب مصنع للتبغ، غجرية داعية ومتمردة، مثيرة بشكل فج، بقدها الممشوق وتكوراتها البارزة وجسدها الملتهب، اعتماداً على الأسبانية التي أجيدها، والتاريخ الذي أدرسه، قررت أن تمضي معي إجازتها، وأن تنفق هي علينا خلال هذه الفترة، بل وبعد عودتها، عرضت عليّ مرافقتها، على أن أتولى لها الترجمة، رويداً رويداً طلبتني في فراشها فلم أملك الرفض، ولا رغبت فيه، ربحت من وراءها كثيراً واستمرت العلاقة لستة أشهر لم أحس بهم من عمري، علاقة لاهية عابثة مترعة بالمتعة، إنفاق للنقود بلا حساب، عمل بالنهار وسهر معها ليلاً، إيروتيكية المسيسبي وجنون أمريكا اللاتينية اللذان أسمع عنهما، أذاقتني من فنون الجنس ما لم أتخيله، وعرفت معها معنى الشراهة الحارة الملتهبة والمتطلبة، وبربرية نساء الغابات الخاضعات، ذقت الإنهاك وأذقتها إياه، حتى أنها قالت يوماً وهى تلهث، في جلسة استراحة، إن أياً من عشاقها السابقين لم يجرؤ أن يصل إلى نصف ما وصلت إليه، كونها سمراء وتميل إلى النحاسية، أجبتها ضاحكاً إن نساؤنا يمتلكون نفس اللون وربما أدكن، وأن أكثر ما يطمئنني، أنها إذا قررت يوما إن تهجرني، توافر السمراوات لدينا، تتأملني بشغف، تتحسسني بوله، تشدني إليها بعنف، قبل أن يضمنا الفراش ثانية.

لكنها أيضاً كانت فترة منزوعة البركة دوماً، النقود لا تبقى في يدي ولا تكفي

أسرتي، ويبرز لها مئة باب فرعي تُنفق خلاله، تبكي أمي وهى المشهورة بالتقتير، وتقسم أن طلبات عريس أختي المتزايدة، وارتفاع أسعار الأجهزة، إضافة إلى الأمراض التي بدأت تلم بها مبكراً، رغم عدم تقدمها في العمر، تلتهم معظم ما أرسله لها، وأن المستوى الذي يعيشون فيه أسوأ من ذي قبل، رغم كثرة المال في يدها، فلا أملك إلا أن أبذل مجهوداً أكبر مع رفيقتي، التي بدأت تعتاد الأمر، وإن لم يصدر منها ما يجرح كرامتي، أعتقد أنها تصدقني، وهي راقية بما يكفي لكي تتجاهل، ألمح أحياناً ظلال من أسى تمر بجبهتها، قبل أن أحني رأسي أمامها ذليلاً، طالباً ما تجيبه هي بابتسامتها الحانية، وكأنها كانت تتوقع، تُعقّبُ مازحة أن الرجال فى بلادها هم من يدفعون، تعطيني فوق ما أبتغي وتدس في جيبي ما تقول أنه مصروفي الشخصي، تقبلني في وجنتي وتسألني ألا أغضب، تربت على رأسي وتكرر أنها تتمنى لو أتيحت لها الفرصة لإكمال عمرها هنا ومعرفة مصر الحقيقية التي أحدثها عنها، ولكن، لا أتركها للإكمال، ولا الاستطراد، أعتبر كلماتها محاولة مهذبة منها لكي لا أخجل، رغم أني كذلك حتى الثمالة،أحتويها بين ذراعي، وأسكتها باعتصار شفتيها المكتنزتين.

يكتمل الأمر برحيلها المباغت، تعللت في رسالة بعثتها بعد سفرها، باستدعاء مفاجئ من أبيها لكي تساعده في أعماله، كونها ابنته الوحيدة، تطلب أن نظل أصدقاء رغم البعد، أوفياء للفترة التي عشناها سوياً، تتعهد بالعودة، وألا تقطع عني مصروفي الشهري، وبالرغم من توقعي لما حدث، وانتظاري له، ومحاولتي التكيف عليه، فقد فاجأني وصدمني، وداهمني شعور بالاشمئزاز من نفسي حد الغثيان، وبالعار، والخذلان، وإحساس قوي وجارف أني لست بهذه الخسة، ولا بتلك الوضاعة.

استجمعت نفسي، واستدعيت شجاعتي، وهربت بكل ما استطعت ادخاره، تاركاً هذه المدينة الملعونة وراء ظهري، معانياً من آثار كل ما حدث، فاقداً الثقة، متوهماً المرض، خائفاً من الإيدز، أو السيلان، أو فتور الهمة، أو ما لا أدريه من الأدران، المصائب لا تأتي فرادى، والآهات تستقطب الآهات، أكمل عليَّ سوء الحظ، وقلة التوفيق، وصادقني فشل مقيم، لم ينته بتآكل ما كنت أبنيه في الدور الخاص بي من الرطوبة، وبتعرض أمي لأزمة صدرية مماثلة لتلك التي ذهبت بأبي، وبخوفي ورعبي أن تذهب وتتركنا، قد تتزوج أختي، لكني لا أدري ما سيكون مصيري إن تجرأت هذه العجوز، وفعلتها!

هكذا انتقلت للعمل مع مقاول كهرباء بلدياتنا، كنت أخرج معه فيما سبق بصورة متقطعة فصرت ربيبه الدائم، ككل صاحب عمل، صغر سني ومهارتي بديا له ملائمين مقابل الفتات التي يلقيها لي، الفتات أكثر من كاف بالنسبة لهذه المرحلة، والرجل علاقاته طيبة بمكاتب هندسية كبيرة تطلبه مباشرة لتنفيذ أعمالها، والتي لنوعية زبائنها تتطلب الهدوء والسرية والسرعة، وقد كان "رفعت" أبرزهم، كان ذلك الأخير مهندساً حسن السمعة، حلو المعشر، يتمتع بطيبة باطنة، ولم تكن ملامحه وقتها بهذه الصرامة، كلماته بها تواضع لافت، رغم أن ملابسه وإشاراته وعطره ومخارج الحروف لديه كلها تشي بغرور الفنانين الذي لا حد له، يبدو راقياً ومهاباً حد الخوف، بصوته العالي الجهير، وجسده الضخم، وعينه اللامعة، ونبرته الآمرة، كنت أسمع عنه وأشاهده من بعيد، لكنني لم أكن قد وصلت فى محيطه الى أن أعرف طريقي إليه .

❖❖❖❖❖

داليا الوكيل

جلجلت صرختي في وسط الشارع الخلفي لعمارات المول التجاري الذي تقع فيه الشركة، علا صوتي الحاد والرفيع بصيحات غير مفهومة بعد أن ألقى البواب المجاور لنا بعرضه القذر. كان رب عملي يتحاور مع مأمور اتحاد الملاك، وأنا أبحث عن أحد الأمتعة وسط حقيبة السيارة، التي جعلها مخزناً متحركاً، تأهباً لمشوار مفاجئ، أو عميل أرادنا أن نقابله فوراً. عمارات المول هي خمسة أبراج سكنية تقع خلفه وتعلوه، ومكتبنا هو دور كامل في أحد هذه الأبراج.

أنا سكرتيرته التنفيذية، وابنته، وصديقته، تربيت على يديه، وأعمل معه منذ نعومة أظافري، فتاة تحبو بخطوات رقيقة في مجال قاسٍ كالبناء والتسويق العقاري، عرفت قدماي طريقي لمكتبه القديم بـ"روكسي" وأنا في أولى سنواتي بالكلية، إعلان صغير بالجرائد كان هو المدخل الناعم لسحب أقدامنا، ذهبت أنا وصديقتي ولديّ يقين أنهم لن يقبلوني، الفتاة أبرزت أنوثتها بكل السُبُل لدرجة أني بدوت بجوارها مجرد سنيدة ذاهبة لتأكيد جمالها، بكل أدوات القصف التي تملكها، متمثلة في المنحنيات والهضاب والشعر البارز من مقدمة الرأس، والمكياج والملابس الضيقة والعدسات اللاصقة، والرموش الزائفة والصدر الناهد والكعب العالي، أمي كانت لاتسمح لي بأحمر الشفاه، تقول أننا متدينون وأخلاقنا لا تسمح، وهذه أشياء مكانها مع زوجي المستقبلي، تربية كهذه جعلتني الإنسانة الحادة التي أنا عليها، والمضادة تماماً لاسمها الرقيق، بمشية العسكري القصيرة والسريعة، وكأني أسير على عجل، وملابسي الفضفاضة ونظارة العلماء التي تعلو أنفي، ومثاليات الكتب التي لا يملك أبناء الموظفين غيرها، عادية

أو أقل، وإن كنت أملك قواماً رائعاً، وجسداً ممشوقاً، وصرامة في الحق لا تقبل بأي هفوة، فوجئت بأنهم قبلوني وصديقتي تحت التدريب رغم التنافر الرهيب في الشخصيتين، ورغم أني لا أرى في نفسي أي مؤهلات للقبول، علمت فيما بعد أن الإعلان والتدريب مجرد واجهة، وأنه يحتاج لسكرتيرة خاصة وتنفيذية، يشترط صرامتها وعدم جمالها، حتى يكون كل تركيزها في العمل، وتجبر من يتعاملون مع المكتب ويترددون عليه بصفة يومية، على الشيء نفسه.

ما إن انتهى التدريب حتى جلست معه لخمس دقائق، كان المفروض أن تمتد الجلسة لنصف ساعة، لكنى علمت أنه تابعني الأسبوع الماضي كله وقت أن كان مستر "هشام" يدربنا على المبيعات، وأنه كان يفاضل بيني وبين فتاة أخرى أكثر جاذبية، وإن كانت قريبة من طبعي بدرجة أقل، سمراء متوهجة ضئيلة وابنة البيروقراطية نفسها من جهة الأب، وان كان اختياره وقع عليَّ، مسألة ارتياح أكثر كما قال، كنت سعيدة جداً وحائرة، الفتاة تبدو مريحة وأكثر مرونة فكيف اختارني أنا، فهمت عبارته المقتضبة أني خُلقت لهذا العمل حينما وجدت نفسي اتأقلم سريعاً معه ومع المكتب ومع الدفتر، "دولاب العمل كما نسميه"، والذي نحتفظ فيه بأسماء وعناوين وهواتف كل من يعملون معنا، وآخر بأصحاب الأعمال والشقق والعمارات، سواء كانت قيد إنشاء أو تحت التشطيب، النصف ساعة التي كانت مخصصة لشرح ذلك كله، استعاض عنها بالترحيب بي، والقول بأني سأفهم طبيعة العمل مع الوقت، انفصلت صديقتي عنى لما ذهبت مع مدير المبيعات لدنيا أخرى تناسبها وتناسب ما تفعله بنفسها، مَكَثت قليلاً معه، ومع سيارته الفارهة، ونزهاته المتعددة، وأنديته الخاصة التي لا تسمح بدخول المحجبات، ولا تقبل بأقل من البكيني للنزول

لحمامات السباحة، الدافئة في عز الشتاء، بكبائنها الملحقة بها، وطعامها الجاهز في أي وقت، ومشروباتها الاستوائية التي لم يسمع أمثالي عنها قبلاً، ثم ملّها كما هو متوقع، وألقى بها على طول ذراعه، بمنتهى الشياكة.

ما حدث معها أعاد لي ثقتي في نفسي، خاصة حينما ظلت تزورني بعد أن تركت العمل، لا أدري أكانت تتودد إليّ، أم تجعل منى جسراً تعبر منه إليه، تنتظر حضوره، وتفتعل من الأسباب التافهة ما يكفى لبدء محادثة، يجابهها هو دائماً بعبارات مختصرة، ثم ينهيها على نحو مفاجئ، ولما يتجاوز الأمر دقائق، تتعمد خلع الجاكت الذي لا تملك غيره، لإظهار البدي الضيق، والبنطلون المتناغم مع جسدها الرائع، والقوام المستدير، وخصلات الشعر الذهبية المصبوغة، والتي لا تتناسب مع لونها الخمري، من الواضح أن مستر "هشام" قد علمها الكلام بطريقة أنعم فوق نعومتها الأصلية، وأكثر إيروتيكية ودلالاً، وكأنها كان ينقصها من فنون الأنوثة ما لا يصرخ به مظهرها المستفز. طلب مني رب عملي صراحة، بعد ثالث أو رابع مرة، أن أقابلها خارجاً، وألا أجعل قدميها تعتاد الطريق إلينا. كان قد مضى على عملي لديه قرابة العام، وكنت ككل البنات أحسدها على طريقة كلامها المنطلقة، وضحكتها اللافتة، وحيوية إشارات أصابعها، وتقسيمة جسدها، ومكياجها الصارخ، وملابسها المثيرة، وأراهن أنها لو كانت مكاني لما تجرأ على تجاهلها، واعتبار وجودها كعدمه، أو اعتبارها رجلاً آخر ممن يتعاملون معه، مثلما يفعل معي، حتى فاجأني بطلبه الهادئ والمهذب، أذهلني وهو يتحاشى النظر إلى وجهي، أجاب حيائي بحياء مماثل وأخفت إطراقتي ابتسامتي، أعاد لي من حيث لا يدري ثقتي بنفسي، واستقامتي، وصواب طريقي، ورسم لي درباً سأسير عليه باطمئنان للسنوات القادمة في هذا المكتب، الذي دخلته وأنا طالبة بالسنة الثانية بكلية الآداب، ولم

يتجاوز عمري التاسعة عشرة، لذا، كان طبيعياً بعد كل هذا العمر، وهذا النمط من الحياة، هذه الطريقة، وتلك الأخلاق، أن تجلجل صرختي في وجه بواب البرج الملاصق لنا، بسبب عرضه الوقح من أحد الجيران، الذي يستأجر شقة مفروشة، من إحدى تلك الشقق التي تزخر بها الأبراج، وتوقف على العرب وأبناء الخليج، وتؤجر لهم بالأيام، كنت قد طبعت ورقة واضحة، جميلة وملونة لأحدث مشاريعنا، واتفقت مع بائع الجرائد على وضع نسخ منها لديه، أخذت الباقي ووزعته بنفسي على مداخل العمارات المجاورة، لمحنى الجار أثناء ذهابه للصلاة، وأعجبته همتي ونشاطي، أو قوامي الممشوق، فوسَّط الحارس لطلب يدي، عرض هذا بدوره مهراً كيلو ذهب قابلاً للتفاوض، وسألني عن عنوان أبي، لم يبق إلا عدم نسيان حلاوته أو "عمولته"، ربما لم يقل الكلمة الأخيرة لكني سمعتها تدوي في أذني، لم أتمالك أعصابي وانفجرت فيه محتمية بوجود صاحب العمل ومأمور اتحاد الملاك، رفضت كل محاولاتهما لتهدئتي رغم أننا في وسط الطريق، وأمام الجيران، وفي نفس العقار الذي تقع به شركتنا، أيقظ العرض "الصفقة" مرارات كثيرة فعلتها شقيقتي بنفسها وبنا، قد نكون فقراء لكن، من أخبره أني للبيع، هل يعلم هذا المجنون، أني تربية "أحمد رفعت"؟

❖❖❖❖❖

أحمد رفعت

منذ عشرون عاماً تقريباً، ذهبت إلى أقوى معماري مصري فى مكتبه، فجأة، وبلا موعد سابق، وبعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية، كل ما كان معي هو كاميرا وبعض الصور التي تم تحميضها، وعقل مثقف، ورأس مليئة بالأسئلة، وابتسامة ماكرة تراودني وتلوح على جانب فمي، كان اجتماعي بالأستاذ الجامعي، المدرج في جدول البحث، والذي يسبق هذا اللقاء، قد فشل فشلاً ذريعاً، اكتفى ذلك الأخير بالنظر إليَّ مستغرباً قدومي وحدي، واعتبرها إهانة لمقامه العلمي الرفيع، فقررت استثمار الوقت، وعدم العودة خاوي اليدين، وذهبت لـ"جمال سليم" بكل جبروته، معتمداً فقط على ثقافتي وتمردي، سمح لي الرجل بنصف ساعة لمَّا أعجبه عقلي، فاستمرت المقابلة ثلاث ساعات ونصف، تهت خلالهم وسط بحار علمه العريضة، وفنه الذي لا ينتظر تعقيباً، وثقافته التي لا أول لها ولا آخر.

جال بي الرجل في كل أنواع الفنون، وهو يرى الكون وكل ما يحيط به مسرحاً لهندسة دقيقة، صنعها المعماري الأعظم، الذي لا يؤمن هو به، ويتباهى بإلحاده، يصنع تشكيلات رائعة، لا يصنعها غيره في العالم بأسره، ويدمج فيها الوظيفة دمجاً، ويدعها تخلق واجهتها الملهمة، والمعبرة، حتى لا تكاد تحس بيده، ويخيل لك أن هذا المبنى موجود منذ ما قبل الأزل، وأنه خُلِقَ ليؤدي نفس الغرض الذي يستخدمه الناس فيه، صنع الرجل مبانٍ مكاتب، متاحف، سفارات، عمارات، على طرز عربية وإسلامية وفرعونية، بكل تفاصيلها ودقائقها ومفرداتها، ودخل إحدى المسابقات بمبنى استمد شكله من النار المجوسية، ونال جائزة خاصة عنه، رغم أنه لم يُنفذ

لصعوبته وتعقيده وارتفاع تكاليفه، لا كرامة لنبي فى وطنه، والعباقرة لدينا لا يحصلون على ما يستحقونه إلا بعد وفاتهم، إن حصلوا أصلاً، يتبادل زملائي النظرات ويقلبون الأكف ويمطون الشفاه، خاصة وهم يخافونني في هذه النقطة تحديداً، أي أستاذ ذلك الذي سيقبل أن يُقدم إليه نصائح أو آراء معماري ناجح ورائع ويفوق أقرانه، وليس أكاديمياً ولا مدرساً بأي جامعة، وبخاصة لو كان "جمال سليم"، ومن ذا يشارك طالباً مشاغباً رافضاً متسائلاً دوماً، مثل العبد لله، في أبحاث ننتظر عليها درجات وأعمال سنة، ومن في بلاد العالم الثالث، الملتزمة بالمقرر، والتي ترى أن الجامعة مكاناً للتعليم وفق ما يراه الأساتذة، وما يطرحونه من وجهات نظر، وتكاد تكون مساحات الاختلاف من الكبائر، وطالما رد عليك مدرسك السؤال، احفظ إجابته ورددها حتى ميعاد الامتحان، ثم صبها صباً في الورق، أما إن تسيء الأدب، وترفض الرد، وتقر أنك غير مقتنع، وتتحدث عن العقل النقدي، وإمكانية الخطأ في القياس، وفساد الاستدلال، ومخالفة المنطق، وأنت غر في التاسعة عشر، فمن ذا يا قصير السروال علمك المشي، دون الإمساك بيدي؟

سمعتي كطالب مشاغب في كل الاتجاهات كانت قد طافت الآفاق، في العام الأول للدراسة، تم استدعائي لمباحث أمن الدولة، إثر رحلة للجامعة مع زملائي، طالبتهم فيها بعبارة صريحة أن نتحدث في السياسة، ورؤيتنا للمستقبل، وما الذي يمكن أن نضيفه للبلاد، وأن نخرج من تصنيفنا كجامعة دينية، لا نجيد العوم خارج ماء الخُطبِ والدعوة..

كنت أصدق ما تقوله الجرائد الحكومية عن أزهى عصور الحرية، وهي سبب طلبي الغريب من زملائي إبان تلك الرحلة، لكنهم لم يفعلوا، ولم يصدقني أحد منهم بعد أن استدعتني أمن الدولة، وأنا أقسم لهم أنهم

عاملوني بكل أدب واحترام، واقتصر الأمر على مناقشة فكرية طويلة، مع عقيد شديد الثقافة والأناقة، وصاحب عطر شرقي غليظ وفواح، كان يبحث عن مدى تطرف آرائي، وارتاح لمَّا لم يجدني إسلامياً، لم أنكر بالمقابل أنهم أسمعوني صرخات آدمية، فزعة ومجلجلة، تصدر من غرف مغلقة، يتبعها أنين متدرج، إثر انسحاب الكهرباء من أجساد من يعذبونهم في الأغلب، أبي الأستاذ بنفس الجامعة لكن في كلية الشريعة والقانون، والخبير بمثل هذه الشئون، والذي تعرض لها سابقاً مرتين في أعوام 68، 77، وابن الباشوات، وحفيد الطبقة الإقطاعية التي أفلست، والذي صار موظفاً، وقنع من المشاكل بالمضي قدماً في الحياة، والترقي، وانتظار زيادة المرتب، وتربية الأبناء، أبي ذاك طلب مني ألا أذكر لزملائي الجزء الأخير، حتى لا يزيد رعبهم، الذي لا محالة قد تَكوَّن من سماعهم أني تعرضت لتجربة مماثلة، لم أفهم في البداية، وعاندته، بل واتهمته بالخوف على كرسيه، ومحاولته شحن البيت ضدي، لكني التزمت الصمت، وأطبقت فمي، وعرفت الخرس، وأنا أرى كلماته تتحقق حرفياً، ظللت فترة مكتئباً ومتجهماً، وشاعراً بالخديعة، وغير مدرك لماذا تقول صحفنا كلاماً يخالف الموجود على أرض الواقع، معظم الكُتَّاب الذين كنت أراسلهم، خافوا بدورهم، وانقطعوا عن الرد عليّ، بل إن أحدهم عاملني بريبة، وظل ربع ساعة من آخر لقاء لي معه، يظن أني مخبر دَفَعته الأجهزة الأمنية للإيقاع به، خاصة وأنا أتحدث عن تجربة كهذه بوضوح، وبنبرة عالية، ووسط زملاؤه، اللذين لم يخلو مكتبه منهم يوماً، جرائدنا مخصصة لمخاطبتنا بالداخل، والغرب لا يقرأها ولا يعتمد عليها، ونحن وحدنا من نصدقها، فلماذا يخدعوننا، ثم يعتقلوننا؟

وضعت تركيزي في دراستي، وحمدت الله أن العمارة علم وفن، بما يتفق مع توجهاتي، وأن معظم زملائي في إعدادي هندسة، يتغيرون بعد توجيهنا إلى أقسام، وستضيع قصتي الصغيرة، وسط مئات القصص المشابهة، في جامعة دينية، لم تغب عين الأمن عنها يوماً، أياً كان النظام الذي يحكمنا.

❖❖❖❖

لمَّا ذهبت إلى "رفعت"، وطلبت منه، كرر كلماته القديمة، أنه لا أحد يعمل عنده، وإنما نعمل سوياً، لا حاجة لرجال أعمال، والمجتهد يربح أكثر، لكن بنسبة معقولة، مكتب التجمع هو مجرد شقة صغيرة لتخليص الأوراق والتراخيص، وقريب من مقر البنك الرئيسي الذي كان يموّل معظم المشروعات في بدايتها، ومخزناً لما قد نحتاجه من أدوات ومعدات، لكن مقابلة العملاء دوماً كانت في فرع مدينة نصر، الدور الكامل الذي تجاوز التسعمائة متراً، والذي هو من فخامته واتساعه لم يكُ يحتاج لتعليق، يكفي أن يذهب العميل وسيتولى المكان إبهاره، مع قائمة أعمالنا السابقة، لمَّا شاهد نظرتي المستنكرة والمتهيبة، وفكي المفغور، وأحداقي المتسعة، كون النوعية التي نتعامل معها مقتدرة مادياً، لقنني ألا أخاف من أحد ولا أحسب له حساباً، إننا جميعاً بشراً متساويين، وما يفعله الأثرياء، حتى لو كان هو منهم، مجرد إحساس بالنقص، يدارونه بمظهرية كاذبة، برع فيها المصريون دون كل شعوب العالم، لإيمانهم بنموذج الفرعون المطلق، والحاكم الإله، والسيد المطاع، طلب ألا أقوم له، ولا أحمل عنه حقيبة، ولا أبجله بأي مظهر، فوجدتني وزملائي تلقائياً نفعل العكس، دخل القلوب ببساطته وسلاسته وعدم حبه لأي من مظاهر الزيف ولا التكبر، ولم أجد له عيبًا إلا "سهام" التي تحيطه إحاطة السوار بالمعصم، وتتفنن في الخضوع له كامرأة، وتعتبره ملكاً لها، وتتعامل من هذا المنطلق، بمنتهى الشراسة، مع كل من يقترب منه، مما جعل الجو خانقاً في الشركة، وجعلني باستمرار أهرب إلى مكتب التجمع الخامس، الذي كان تحت إشرافه، هو أو زوجته، تلك الأخيرة كانت ترى ضيقي وسخطي، فتطالبني بأن أصبر وأتحمل،

وتقول من بين ابتسامة رائعة، أنه لا يوجد عمل بلا منغصات، ولا وفق الهوى، وأن الاحتكاك بيني وبين "سهام" سببه اختلاف الاتجاهات، وطريقة العمل، والأسلوب الشخصي لكل منا، أجيبها بأن كلماتها دبلوماسية، لكنها ليست صحيحة، هذه الأخيرة ليست الشخص المؤتمن، ولا الذي يُوثق به، ولا طيب المعاشرة، أصارحها بأني كنت أود أن يكون كل عملي معها، فتضحك، وتتعلل بأطفالها، وبضيق الوقت الذي صار ممنوحاً لها، بعد التحاق الأولى بالمدرسة، ومرض الثاني المزمن.

كنتُ إذا أراد أحد العملاء معاينة نموذج ما، لشقة أو فيلّا، طلبت من "سهام" إرساله لي في الموقع ومقابلتي، ثم أعيده إليها، دون أن أطأ الشركة حتى ينتهوا منه، أتعلل بعدم تدخلي في شئون البيع والشراء، واكتفائي بعملي في الكهرباء، طالما العميل يخصها، حتى لو أدى ذلك لضياع عمولتي عنه، لكني كنت أتميز غيظاً ومجهودي ومستحقاتي تضيع أمام عيني، "رفعت" يعلم طبعها الشرس، ونفورنا منها، وعدم مهارتها، لكنه يحتفظ بها لإخلاصها له، ونفاقها، وكونها دوماً في مرمى صوته، وطوع أمره، ومداهنتها للعملاء في التحصيل، وغدرها وسلاطة لسانها إذا ما حاول أحدهم التهرب، وبدأ في إلقاء الأخطاء علينا كالعادة، ليس نقياً كما توقعته، لكنه يظل أنظف من قابلت، في مجال قاسٍ كمجالنا.

رويداً رويداً لمَّا رأت زوجته غمي، وأنا أرفض التعاون مع "سهام" في أي مجال عمل، طلبت مني أن أستقل بجزء من المساحة الواسعة هناك، وأقتص لنا تفريعة من كابل النت الموجود بالشركة، جاءتني بلاب توب مخصوص وضعت عليه عملنا ودنيانا المستقلة، التي سوف تكون، بخلاف ما سيظل بالشركة، بدأت بجهازين أو ثلاثة بالتقسيط، وقَّعت هي أوراقهم، واستعارت من زوجها برامج الكمبيوتر الخاصة بالتشطيب، وميزانية صغيرة للإعلانات،

بعد أن استأذنته فلم يوافق في البداية، ثم رضخ لمَّا اطمأن أننا لن نتعارض مع عمل المكتب الأساسي، جعلت لي عملاً خاصاً بي، بل واقترحت عليه أن يحاسبني في كل عملية بنسبة إضافية، دون أن يمس ذلك مرتبي، الذي لا يقيم الأود، لا أنسى فضل تلك المرأة عليَّ، ولا مجهودها معي، ولا الوجه المريح الذي كانته، ولا صفاء النية والأخلاق، كانت تأتيني في الثامنة والنصف صباحاً، بعد أن تقوم بتسليم أطفالها لباص المدرسة، ثم تطلب منهم أن يعودوا بهم آخر النهار لمقر الشركة، تتركهم في الاستراحة ليناموا وتباشر معي العمل، ثم تهرول بهم إلى منزلها لتراعي طلباته، مع ذلك كنا ناجحين جداً، وأزعم أننا "طاقم الضعفاء"، كما كانت السافلة تطلق علينا، في هذه الفترة، وحتى وقعت الحادثة الملعونة، كنا أنجح من الطاقم الأساسي، ومن غريمتنا، ومن هم تحت يدها، لذا كان طبيعياً لمَّا علمت أن تلك الأخيرة هي تلميذة لـ"رفعت"، ولزوجته، ألا أتعجب، عباراتهم تقول إنها تلميذة خائبة، لكنهم يبترونها حينما ينتبهون، ولا يسترسلون، يخشون الإفصاح، ويجيدون تغيير مجرى الحوار، لو شئت لسألت "داليا"، لكنها، بحدتها، باستقامتها، بتشبهها بمديرها، وإخلاصها له، وكتمانها لكل أسراره، إضافة لعدم اعتنائها بأنوثتها، ألعن وأضل سبيلا.

اكتفيت باهتمام الزوجة بأمري، وحمدت الله عليها، كانت كنسمة باردة في جو صيفي قائظ الحرارة، غريب على الجو الخانق الذي صنعته الأخرى في الشركة، من نوع مختلف عن النساء اللائي عرفتهن، المكافحة التي مات أبوها مبكراً وكانت هي أكبر أشقائها، وعلى أبواب الجامعة، ولا يتحمل معاشهم الضئيل تأخراً في الدراسة، ولا تعطلاً، وما كانت ساعة العصاري، وسلام تلك اللحظات، التي نجلس فيها على مقعدين، نريح أقدامنا، وننتظر قدوم الليل، كي يهدئ توتر النهار، نشترك فيها أمام كوب الشاي، أو فنجان

القهوة، إلا مساحة واهنة للاستراحة من عناء العمل، واللهاث وراء العملاء، ومتابعة أحدث تطورات السوق، والإبداع في إعلانات المنافسين، وما أنجزناه، وما نتطلع إليه، وفرصة ضئيلة، نلتقطَ فيها الأنفاس، وأقص عليها همومي، وثقل ديوني، وأمي التي لا تنتهي طلباتها، وفتاتي التي أتطلع إليها، ولا سبيل للوصول، لقد اعتبرت نفسها دوماً شقيقتي الكبرى، وهي من ذهبت معي لبيت خطيبتي لمَّا لاحظت ترددي، لفقري وقلة إمكانياتي، وجمال الفتاة، وتعنت أمها، تدخلت قبل زوجها في الأمر، وأقرضتني خفية، وبهدوء، دون أن تفسح لي مجالاً للاعتراض، ولولاها ما تمت تلك الخطبة.. لقد أقسمت لها في سرى على الأمانة، وأنا على أتم استعداد أن أضحي بحياتي من أجلها، ولا أنسى فضل "رفعت" الذي لديه عرفت هدوءاً كنت أحتاجه، وصار لدي غد أتطلع إليه، وأفسح لي فراغاً كنت أتلهف لتنشق هواءه، وملئه، وإثبات الجدارة، بعد أن كادت حياتي تضيع مني، لم يك يعادل الاحترام الذي أكنه له، إلا كراهيتي لشراسة "سهام"، وحدة "داليا"، اللذان أطلقت عليهما يأجوج ومأجوج، وإن كنت أحترم تلك الأخيرة، قليلاً.

❖❖❖❖❖

سهام إبراهيم

صاحب الفيلّا التي نقوم بتشطيبها اتصل غاضباً مزمجراً، ومتوعداً، لتأخرنا في تركيب أشياء تافهة، رغم أن ميعاد التسليم لم يحن بعد، قال إننا وعدناه بالتسليم قبل الأوان، لم يك يدري أننا تقريباً انتهينا، وأننا ندقق إتقاناً، ونتخير لاسمنا الذي بُني على مدى سنوات، ما يليق به، ولا نسمح لأحد أن يخاطبنا بتلك الطريقة، حتى لو كنا على خطأ، خلافاً لأي قاعدة يقوم عليها السوق، مهما كانت التبعات.

بعد أن ناله مني ما سمحت به حالتي المزاجية بدأت أهدأ، سألت من كان متوفراً أمامي من عمال ثم عاودت الاتصال به، شرحت له خوفنا على سمعتنا وجودة عملنا الذي يصب في النهاية لصالحه، خيرته بين أن أسلمه فيلته فوراً بكل ما التزمت به معه في العقد، أو ينتظر الأجود الذي أعده به، اختار الثانية، ثم شكرني واعتذر، كنت متأكدة قبل غضبتي المفتعلة من خلال عملي هنا، وسنوات الخبرة الطويلة، والثقة المتمهلة، والتركيز الهادئ، أننا لا يمكن أن نكون مخطئين في أمر كهذا، وقد صدق حدسي كامرأة، في دنيانا لا مجال لأشياء كهذه في العمل، ولو سمع بها "أحمد" لتشاجر معي كالعادة، خاصة وهو لا يطيق من يخالف قواعده الصارمة ونظامه الحديدي، الذي أقام عليه المكتب، واشتهر به، لكني أيضاً أعلم عن يقين جودة ما نصنعه.

كنت فيما مضى أخاف غضبه الأسطوري، وصوته الجهوري، وإشارات يده التي كقصف الرعد، رائحة الذكر لامرأة مثلي من بيئة شعبية، وهيمنة السيد وهو يملي إرادته، ويقذف اندفاعاته، في نزوعه ذاك الذي لا يقهر إلى السيطرة، حتى أني كنت أفشل في اتخاذ أي خطوة دون الرجوع إليه،

يتولاني الرعب من رد فعله حينما يعلم أني تصرفت قبل مشورته، لكني مع الوقت اعتدت ثم تعلمت فواجهت، كل شخص سيد صمته، وقد صمتُّ فترة كافية لأدرك كيف يمكنني إدارة الأمور، مع إحساس بالأمان، لحضوره القوي المثقف وغير المرئي، والذي يسري في هواء المكان، أتنشق عبيره فأتضوَّع برائحة أنثى مهجورة، وأُطلق ضحكة عالية عابثة منادية، أتبختر بخطوات غجرية واثقة والهاتف بيدي، وأعد العميل خيراً بعد أن صار ملك يميني، أُنهي المكالمة معه وأنا أشعر بالرضا عن نفسي وعن وضعي وبراعتي، أتأمل الشركة حولي على اتساعها وفخامتها وفرشها المدروس، أجهزتها الحديثة واستقبالها المريح، الذي هو أول ما يصادف الداخل، بعد مكتب السكرتارية الذي يخفي خلفه الأوفيس والحمام، يليه ملحق داخلي بأنتريه ثانٍ للضيوف الأكثر أهمية، وقاعة بطاولة اجتماعات لعشرة أشخاص، تجاور الغرف الخمس التي تحتل الجانب الأيمن بأكمله، وتطل على الواجهة الخارجية، المساحة المكشوفة الكبيرة التي تنتهي بالمسجد الصغير، المصنوع من الأرابيسك، بأشكال إسلامية عتيقة، استراحة أطفاله بعد عودتهم من مدرستهم المجاورة، والتي كانوا يأكلون فيها وينامون ويؤدون فروضهم، إذا كان لديه وزوجته ما يشغلهم، والتي سمح لي أخيراً باستعمالها، وأعطاني مفتاحها، لأتمكن من الشركة بأكملها، يتملكني إحساس بالزهو والعظمة، أتذكر الأيام السوداء وأنا أحاول الوصول إليه بشتى الطرق بلا فائدة، كلماته السيئة عني فيما مضى، ونظرته السلبية لي، قبل أن أنجح في لفت انتباهه، بمجهودي وجرأتي وجسارتي، هذه أوقات قد ولت إلى غير رجعة، لا ينقصني غير أن أصل إليه، ولا أظن ذلك الآن صار بعيداً، ما كان بالإمكان أن أتكهن بما يخبئه لي القدر.

أُحب "منى" ولا أدري كيف سيكون شكل العلاقة بيننا عندما أنجح في مسعاي، تبدو مناسبة لزوجها وتشبهه، ولديها من قوة الشخصية والمهارة ما جعلها زوجته ولا أنكر، بيني وبينها عمر وذكريات، وأيام صعبة ومواقف كثيرة عشناها سوياً، وفرعين تنقَّلنا خلالهما في براءة الشباب الأولى، "داليا" لا تحبني، تغار مني وتحسدني على نعمتي، ولا تنسى لحبيبي أبداً أنه جعل هذا الفرع باسمي، وجعلني مديرته، لكنها تنسى أنها دخلت هذه الشركة بعدي بأربعة أعوام كاملة، وأن "رفعت" كان قد بدأ يمل من صناعة الناس وتدريبهم على مبادئه وطريقته، وأنها تقريباً ضمن آخر طاقم قام بتدريبه، قبل أن يترك الأمر لزوجته، ربما لذلك تلتصق به كظله، لكن لا خوف منها على الأرجح فهو يعتبرها ابنته، علاقتي "بشعبان" يشوبها نوع من التوتر لارتباطه الوثيق بزوجة "رفعت"، وكثرة تفاعله معها، واقتناعه بها، بخلافي، ربما في الأمر خوف على رزقه، رغم أن أجره لا ينقص مهما تقاضيت أنا، ربما يغيظه منافستي لهم كامرأة في عالم الرجال ذاك، ربما يخاف شراستي، "هيثم" دعا عليَّ في وجهي واحتسب ربه وكأني ظلمته، قال إني آخذة مكان رجل مثله، ثم خفَّت دعوته تلك منذ التحاق زوجته بالعمل، هذه أمور قد اعتدتها وكنت أواجهها بعصبية وصراخ فيما مضى، فعلمتني السنوات، وتراكم الخبرات، أن أمتصها، وأحتوي أصحابها.

❖❖❖❖❖

داليا الوكيل

لمَّا نقل ملكية الشركة باسم "سهام"، ولو فى الظاهر فقط، بعد تضاؤل قدرته على متابعة التسويق والمبيعات، واكتفاؤه بالالتفات الى الأعمال التصميمية والإنشائية، بدأ الصدام الحقيقي بيني وبينه، يمكن القول أنه لم يك صداماً بمعنى الكلمة، لكنها عُتبةُ الحبيب، وغضبة الإبنة، لكنى تركت العمل لديه، كان يتحدث دائماً عن جرأة تلك "الأخرى"، ودأبها، ورغبتها الحقيقية، في أن تصير مالكة لشركة، وهي وجهة نظر صائبة إذا كان يقصد حبها للمال، لأنها كانت لا تحسن التصرف بمفردها في أبسط الأمور، لكنها تجيد إسماعه الإجابات التي يرغبها، وكأنها قد قالتها للمنافسين والمتعاملين معنا، وتثبت الأيام أنها لم تفعل، وأنها كانت تنتظر رأيه، مع مهارة واضحة في إصلاح أوارها فيما بعد، تبدو الإجابات المُخدرة التي تُسمعه إياها جزء من إغراءها البشع له بالخضوع المطلق، وهي طريقة أراها منافقة، وانتهازية، واحتيالية، لكن مَن ذا الرجل الذي يمكنه مقاومة أنثى متفجرة العنفوان، تتكلم بخفر، وتصمت وقت الغضب، وتسبل عينيها الواسعتين خوفاً وحياءاً، وتبكي فتحمر وجنتيها وأرنبة أنفها، وتغمر دموعها بشرتها الحليبية، كانت دائماً في مرمى صوته، ضيقة الملابس، نابضة بالرغبة، داعية منادية، ملك يمينه على الدوام، حتى وإن لم يطلب، بدأ في التسامح مع ما ترتديه لمَّا تجاوزت الثلاثين، في مفاجأة لم أدعها تمر، فزجرني، تبدو غيرتي طبيعية بعد كل هذه السنوات معه، ولا تُجد طلباته لي شيئاً، أن أنظر للأمر بتبسط ووضوح، وأجبر نفسي على الاعتراف بجبني وقلة جرأتي، وضيق أفُق البيئة التي خرجت منها، وأطوار الملائكة التي يعشق الطيبين العيش فيها، صحيح أنها بطبعها الشعبي

الملتهب، أكثر حماساً للعمل، ودأباً عليه، وحباً له، كما أنها على استعداد أن تبيع أبيها في سوق الأحد، إن حصلت على مبلغ جيد، لكن جزء من إحجامي، وعدم رغبتي التعرض لمشاكل السوق والعملاء، هو أفكاري التقليدية، من حيث كوني امرأة ضعيفة، وعدم تخيلي أنه يُمكن أن يُسمح لي بمقارعة الرجال، ومنافحتهم، وتحديهم أحياناً، حتى لو كنت موقنة من صواب موقفي، وهو ما بنى عليه تفضيله لها عن كل من كانوا أمامه، وما تسبب له في شرخ مع أكثر من مهندس، ومدير مبيعات، خسرهم جميعاً، لأنهم كانوا يرون محدودية قدراتها، ويطمعون في مكانها، ولم يخطر ببال أحدهم، أنه سيجرؤ على خطوة بهذا القدر من الجنون، حتى أن أحدهم تشاجر معها أول ترقيتها، وضحى بوظيفته، لمَّا سبها، لا لشيء، إلا لعدم تخيله أن يكون مرؤوساً لجاهلة مثلها.

في خضم تلك الأحداث الملتهبة عرضت شقيقتي على أمي وظيفة لي، جاءتني تلك الأخيرة والبشر يقطر من وجهها، وكأنها ستزف إليَّ خبراً سعيداً، شقيق أحد معارف زوجها ، مدير لبنك متوسط الشهرة والمكانة، وعلى استعداد لتعييني فيه كمحاسبة، رغم أن طبيعة دراستي لا علاقة لها بالحسابات، سنجتاز تمثيلية صغيرة، تنتهي بجلوسي خلف أحد المكاتب، وسيتقاضى هو مبلغاً صغيراً، قيمته خمس وعشرون ألفاً من الجنيهات، ويمكن تقسيطه على مرتين أو ثلاث، متى سأكون جاهزة لخوض الاختبار؟

بعد صمت قصير، أوليتها فيه ظهري، عدت لمواجهتها متسائلة بهدوء، وأنا أبتلع لعابي، وبأكثر طريقة مهذبة استطعتها، عن حُرمة ما تطلب، لا أعلم لماذا تفاجأت، ومن أين جاءت بنفس الغل، الذي ارتسم على وجه شقيقتي، لما رأت أبي يقبلني، جاوبتني بكلمات غاضبة، عن ذلك الذي أفسد تفكيري، من كثرة معاشرتي له، لمَّا كنت في شركته، وعن حبي للفقر

مثل أبي، ولمثاليات الكتب التي لا تساوي ثمن الحبر الذي طُبعت به، ربما قفز إلى ذهني فعلاً حكايات "رفعت" عن رفضه الوظيفة الحكومية، وما قاساه مع أهله فيما مضى، وتهربه مما كانوا يأتونه به، وسخريته من ضحالة العقول، وانعدام المستقبل، لكن ما تتحدث أمي هنا عنه مختلف، ويتجاوز الخطوط الحمراء، ويقترب من الحرام، لم أدر في البداية بم أجيبها، تغلبت رغبتي في عدم التشاجر معها، وأمنيتي ألا تغضب ثانية، وعدتها بابتسامة متكلفة بدراسة الأمر، وقد وقر في ذهني، أن أسأل من باب إبراء الذمة.

تردد أبي وطلب مني أن أستفتي أحد المشايخ، استحلفني بكل ما هو غالٍ ورخيص، ألا استسهل الحرام، وأُضيّع صبره طوال السنوات الفائتة، استسلاماً لمغريات الدهر، وحلاوة الفتنة. قال إن هذه بصمات من كنت أعمل معه، وأفكاره، تجشأ وضحك شامتاً في أمي، لكنه لم يمد يده في جيبه ليساعدني، رغم أنه يعيش وحيداً، ومعاشه يفيض عن حاجته، لم يبالِ كون رجل غيره يقوم بدوره، واكتفى بالوجبات الجاهزة التي يبتاعها لي كلما قابلني، والتي كان يرسلها لي فيما سبق بالمكتب، مال الثانى للحرمة، وإن قال أن شهادته مجروحة، لقد كان هذا الرجل القوى بالنسبة لى دوماً أخاً أكبر، ودليل فكرى، ورفيق درب، أرسل بي لدار الإفتاء، التي قطعت الشك باليقين، ونهتني عن الأمر كله، وإن اختبأ قارون خلفه بكنوزه.

رفضت وأنا المفلسة، والتي تقريباً بلا عمل، رغم علمي أنه لن يطردني إذا حاولت العودة، لازلت خجلة مما فعلت، ولا أجد من القدرة ما أضع به عيني في عينيه، ناطحته فيما سبق بشراسة، ولم أحسب خلالها حساباً للحظات الهدوء، عندما تعود الأمور لسابق عهدها، وتعود المياه لتصب في نفس المجرى، رفضت وشيء ما في صدري يتهدج، وقلبي ينبض بشموخ،

وقد ارتفعت رأسي، واستطالت قامتي الرشيقة، واستعادت انتصابها، كمسلة تناطح السماء، لا أدري ماذا سأفعل مع أمي في قادم الأيام، وأتوقع أن تزيد ضغطها عليَّ بشراسة، زياراتي الحثيثة لزوجة "رفعت"، التي صارت صديقتي الوحيدة، وقلة مجهودها، الذي هبط فجأة منذ مرض ابنها، وتمترسها في المكتب، لحين عودتي لصوابي، أو البحث عن بديلة لي، خفف عني ما أعانيه، وجعل الأمور تمضي في الاتجاه الذي أردته، والذي منعني الخجل والإحساس بالذنب من البوح به، بتوالي الأيام، واستعادتي التدريجية لمكانتي لديه، وكثرة محاوراتي معه، وتغاضيه عما حدث، حتى يفسح لي مجالاً، بدأت انتبه لأهمية قلة كلامي، وكثرة عملي، في سوق لا يرحم، ويجبرك على اللهاث دوماً، ولا تجدي اعتراضاتك نفعاً، لست أقل من "سهام" قدرة ولا اجتهاداً، لكني احتاج للتخلي عن بعض حدتي وانتقادي، وجدار الأحكام الغيابية المسبق، الذي أبرع دوماً في رفعه على الناس، والذي تربيت عليه، في بيت لا يعلم من أمور المال والتجارة، ومخاطبة العملاء وتحصيل المتأخرات، شيئاً، كما إن أكثر ما يعوّل عليه رب عملي، هو نظام حديدي، وانضباط صارم، وسعي دءوب، وعمل متصل بلا كلل، وفي هذا السياق، أتفوق بمراحل على كل الموجودين، وإن كنت أحتاج للصمت كثيراً، حتى يعلن عملي عن نفسه.

بات طبيعياً والحال كذلك، أن أظهر قدراً من الصلابة، امتدحه هو في البداية، إبان مشكلة سابقة مع أحد العملاء. تسامُح مهندسي المفرط، الذي استمده من الكتب التي يقرأها، والمذاهب الغربية التي يريد تطبيقها هنا، والتي تتحدث عن العدل، والمساواة، والتكافؤ، والتي يجد لها دائماً ما يعضدها من الآيات والأحاديث، في القرآن والإنجيل، رغم أنه أحياناً يردد أفكاراً إلحادية بمنتهى السهولة، وتبدو من عذوبتها وسلاسة منطقها،

وكأنها الأساس الأخلاقي للدولة الفاضلة المزعومة، الأمل الذي يجيد ملأ صدورنا به، وبثه في أعطافنا، المستقبل الواعد مع ذلك الذي تَقبَّل أن تكون امرأة صاحبة شركة، أو مديرتها، وجعل المعيار الوحيد هو الكفاءة، أو الشجاعة لمواجهة المخاطر، أو التمرد على القوالب، التي خرجتُ لأجد المجتمع قد صبها، حياتي كلها تمرد إجباري دون أن أريد، وإصراري على الاستقامة يبدو غريباً، لأناس لا ترى لذلك مجالاً إلا في المساجد والملابس، ويستغربون حديثي عن الحرام، رغم أني أرتدي بنطلون جينز، الراهب لا تصنعه المسوح، والتقى لا تميزه العمامة، لم أسمح يوماً لنفسي أن أمتهن جسدي، ولا أن تكون ملابسي خارج المعتاد، لكني مثل كل النساء، مشروع المرأة الصغيرة، المتكون حثيثاً، والصاعد بهدوء، لكن بصلابة، ليست ملابسي ما يشكون منه، وإنما استقلاليتي، ومطالبتي بألا تتجزأ المبادئ التي يرفعون شعاراتها، صلاتهم التي لا ينسونها، والتي لم تمنعهم من سرقة شقاء أبي حينما كان في الغُربة، واستدعاء جرأة امرأته عليه، هربهم بطفلتيه وكتابة إحدى شقتيه باسم أمي، حجهم الذي لا يرى بأساً في تزويج ابنته بمن لا يكافئها علماً ولا فكراً، ودون إذن وليّها، لمجرد أن نقود العريس حاضرة، خضوعها له، وائتمارها بأوامره، قبل أن تدخل بيته، وهو ما لم تفعل أمي نصفه، مع الرجل الذي جعلنا ملوكاً إبان فترة إعارته، وكانت جريمته التي عاقبته أنا عليها، بحكم صغر سني، أنه لا يقيم حواراً معي، فغذَّت أمي مشاعر كراهيتي له، إما عمداً وإما جهلاً، لأُفاجأ حين أدخل معترك الحياة، أن آلافاً من الآباء يفعلون مثله وأكثر، دون أن يعني ذلك كراهيتهم لأبنائهم، أو استعدادهم التخلي عنهم، قد يكون أنانياً وعصبياً، عالي الصوت كثير الشتائم والمعاتبة، لكنه لا يشرب ولا يدخن، ولا يقبل بالحرام، أنه رجل متهور ضيق الأفق، كما انتبهت فيما بعد،

ينفس عن ضعفه وهزيمته في الحياة، بسبنا وامتهاننا، لكنه لم يخن أمي، ولا تزوج عليها، ولا عايرها بكوننا فتاتان، استقل بغرفة وتليفزيون، أنفق أكثر مما يجب، ولم يدخر شيئاً للزمن، رغم سنوات الغربة الإحدى عشر، لكن ظل عنوانه لدينا، وقبلته منزلنا، لا أعفيه، ولا أنسى الرعب الذي كان يسببه لنا، بصراخه الهادر وعصبيته المزلزلة، وشقيقتي تصاب بشلل نصفي أحياناً، من كثرة الخوف، لكن مصيرنا كفتيات، أما كان يستحق التروي قليلاً ؟

❖❖❖❖❖

ما كسر بيني وبين "سهام" حاجز الجليد، هو ما فعلته هي أثناء حفل خطبتي وبعدها، كنت أبحث عن مكان مناسب، عندما اقترح عليَّ "رفعت" استغلال المساحة الواسعة المفتوحة في الهواء الطلق، والتي أقامها وسط أعمدة وأقواس على الطراز العربي الإسلامي، تتوسطها نافورة من الرخام الهندي والأسباني في تناسق بديع، وتحيطها أحواض زرع من الفل والياسمين والريحان، محفور على نجيلها اسم الشركة، بإضاءة خلفية هادئة في كليهما، عاد وأضاء الجوانب بثلاث مستويات متدرجة، وجعل الغرف المطلة عليهم بأبواب من خشب الأرابيسك العربي، يقابلهم من الناحية الأخرى مطبخ مكشوف على الطراز الأمريكي، فوقه برجولا حديدية صغيرة يتدلى منها ثريات صغيرة، ويجاوره حمامان جانبيان، صيغت جدرانها المطلة على المساحة المكشوفة من الألوميتال والزجاج العاكس بالكامل.

أفضل أوقات البيع لدينا فصل الصيف، أو المفروض أنه كذلك، لذا عندما صنع من الروف القميء الذي كانه، هذا الفضاء الرحب والسمح، والذي يبعث على انشراح الصدر، كانت الفكرة الرئيسية هي مقابلة الناس فيه بعد العصر، وجعله قطعة مصغرة من الجلسة الرئيسية على حمام السباحة، في القرية التي نسوّق لها، والتي يملك بعض الشاليهات فيها، لكنه تساءل عما يمنعني من إقامة حفل خطبتي على فتاتي الجديدة، التي هي زميلتي، بمقر الشركة، توفيراً للنفقات، خاصة أن أفضل قاعة يمكن استئجارها، لن تضاهي مكاناً كهذا.

أزلنا الأنتريه الأساسي وكاونتر السكرتارية، جعلنا الدخول من الباب مباشرة إلى المساحة المكشوفة ، مروراً بالحمام والأوفيس، استخدمنا الأنتريه

الإضافي وقاعة الاجتماعات كمكان لتجهيز علب الطعام الكرتونية، خشيت وخطيبتي من النفقات، ومن الحسد، ومما سوف يحدث من تدافع، لو أقمنا بوفيًها مفتوحاً، حصرنا الأمر في قطعتي جاتوه وساليزون وساندويتش، وزجاجة مياه غازية، كانت السيارة معي وقد زينتها بالورود، فذهبت لإحضار عروسي من الكوافير، أشرفت "سهام" ومعها "داليا" على خدمة المدعوين، وطلبوا من والدتي أن تجلس وترتاح، كانوا يخافون من حماتي التي أشرفت بنفسها على المأكولات، وعددها، وتقسيمها، لكي تضمن لضيوفها أفضلهم، ويخشون أن تتصادم المرأتان، إنهم لا يعرفون أمي وطيبتها، وأذهلهم خجلها واستجابتها، لكن "منى" وعدتني ألا تدع الأمور تخرج عن السيطرة، أو يخرج أحد الضيوف بلا طعام، جحظت عيون أخوتي من فخامة المكان، وروعة التنظيم، ولعلعة الأضواء، ولم يتخيل أقربائي أني يمكن أن أقيم حفلاً كهذا، بات تقليداً أن يظل كل من دخل منبهراً لدقائق، متجمداً في مكانه، أو متحركاً في تكلف، مرتبكاً وغير مصدق، حرجه واضح على ملامحه، وتردده ظاهر في خطواته، وهم يختارون جلسة ثابتة حول النافورة، أو على الأرجوحة، أو في مواجهة الكوشة، أو أمام المطبخ الأمريكي، الذي جعلناه للشاي والقهوة، بعد أن كانوا يسخرون منا ونحن ندعوهم، ويسألوننا عن "السطح" الذي سنقيم فرحنا فيه.

احتضنني "رفعت" بعمق ومودة، لمَّا أصررت على دعوته لمشاطرتي، والموسيقى تصدح، خلعت الجاكت وفككت رباط العنق وصعدت على أطراف النافورة العريضة، تفننت في الرقص على أنغام أغنية شعبية مع أصدقائي وجيراني وأبناء منطقتي، الذين جاءوا لمؤازرتي، زملائي العاملون بالأفراح، الواقفون على الدي جي، والذين جاملوني في أسعار الكوشة والمقاعد، والزهور الصناعية، والإضاءة بالليزر، والدخان الزائف، وحرس

الشرف، تلاعبوا بالصوت والإنارة، سلطوا الكاميرات على وجهي أنا وعروسي، جعلوني أطعمها في فمها، وضعوا أبهى صورة لها بثوب الزفاف على أحد الجدران كخلفية، أطلقنا الألعاب النارية، وقدمنا الطعام والمشروبات، ووقفت أنا وفتاتي، وسط الحضور بمفردنا، نرقص على أنغام رومانسية، والقمر يظللنا، وسط سماء رائقة، وأضواء خافتة، ورياح تعاطفت معنا، فصارت نسيماً، وحبيبتي بين يدي، والله والناس شهود، تلقينا دعواتهم، وحسدهم، وأمانيهم الطيبة، كانت فعلاً ليلة العمر، حتى أني تمنيت، ألا تنتهي أبداً.

كنا نشعر بالحرج، وبامتنان عميق، حتى أن أمي بقيت بعد انصراف المدعوين لتجمع ما التصق بالأرض من آثار الطعام والحلوى والمياه الغازية، وألا تتركها لفتى الأوفيس، على أن أعرج عليها لأصطحبها للمنزل، بعد توصيلي لعروسي، بقيت معها "سهام" وأصرت أن تأخذ بيدها، ولم تدعها تفعل شيئًا تقريباً، ظهر معدن بنت البلد الحقيقي الذي كان يومض أحياناً في تصرفاتها، أجلستها تلك النشيطة العفية على الأرجوحة الجانبية، وشكرتها على ما فعلت، وطلبت منها أن تدعها تُكمل، انكبت على التنظيف بهمة وطيب مزاج، عانقت الفرشة والممسحة وأزالت المخلفات بسرعة وإتقان، ظنت أمي وقد أخذتها إغفاءة نوم، فانطلقت ترقص بمفردها في المساحة الواسعة على ضوء القمر، تمايلت على أنغام منبعثة من الراديو، وتنقلت بخفة وهدوء، لم تكُ تلمس الأرض تقريباً رغم بدانتها النسبية، فتنت المساحة الواسعة برشاقة حالمة وهيام عاشقة، وكأنها كانت ليلتها هي، تاهت عن العالم من حولها وظلت تدور في فلكها الخاص حتى نال منها التعب، فجلست على طرف النافورة التي تتوسط المكان، وتركت نفسها للرذاذ، انعكست الإضاءة المنبعثة من قلب المياه على وجهها فإذا بها تبكي، ثواني

واهتز جسدها، دقائق وقد وصلت حد النهنهة، أمي الموجوع قلبها من نفقات تجهيز شقيقتي، ومشاكل خطيبها، وحنان الأمهات، لم تتحمل، فقامت إليها وأخذتها في أحضانها، دون أن تسأل عن السبب، لم تبح الأخرى وظلت تنشج بصوت عالٍ، وتخلط دموعها بكلماتها غير المفهومة، لم تميز من كل ما قالت سوى أنها تحبه، وتحلم بأن ترقص معه، أعلم أنه شخصية آسرة، والكاريزما لديه عالية، جداً، لكنها اجتازت عتبة الحب منذ زمن، تلك القوية الشرسة، المسلمة أمرها إليه، والمنقادة له، تعشقه، حتى أني أخاف ما يمكن أن تفعله بي، لو أمرها.

هدأت وارتاحت والتقطت أنفاسها، غسلت وجهها في الماء المتصاعد من أسفلها، أكملت مع أمي تنظيفاً متعجلاً يساعد الفتى القادم صباحاً، خاصة والمساحة واسعة، انتهيا قدر المستطاع، ونزلتا لاستقلال سيارة أجرة، مفسحين لِيَ الوقت مع خطيبتي، أصرت على توصيل أمي أولاً، شهامة منها، ولقرب المسافة الفاصلة بين بيتنا بالوايلي، وبيتها بالزاوية. لمَّا أبدت العجوز تخوفاً عليها لتأخر الوقت، وما يمكن أن تلاقيه من كلاب السكك، سألتها تلك ساخرة: من ذا الذي دعت عليه أمه؟

❖❖❖❖❖

أحمد رفعت

أمسك بابنى الموت، حضر وأشار اليه ومكث عند رأسه، دخل بلا استئذان مثيراً الفوضى ومبعثراً الجذع وناشراً الرعب، أثبت حضوراً وقوة واستعرض عضلاته وتحدى، ذهب طفلى ذو الأعوام الأربع للجانب الآخر بضع دقائق قبل أن يستمع ربى لتوسلاتى، كنا فى صباح دافئ ومشرق وأميل الى الحر، وكنت أراجع تصميماً هندسياً ما خاصاً بعملى حين انتبهت لصرخاته فهرعت الى سريره لأجده واقفاً متحفزاً بارداً خائفاً، شاحباً وأميل الى الزرقة، لم تكن أول مرة يحدث له فيها ذلك لكنها بداية الوعى بالنسبة لى، كنت فيما مضى، فى المرتين اللتين أصابتاه سابقاً، أظنها أحلاماً أو كوابيس يراها فى منامه فيقوم وهو يصرخ صرخات قصيرة مهتزة مليئة بالعصبية، عرق جبهته وارتعاش شفتيه يشى بما يعانيه، يتعلق بصره بكائن خرافى فى الفراغ ويشير اليه فزعاً مرعوباً ذاهلاً عما حوله، احتضنه حتى يلتصق بجلدى واقرأ له قرآناً مما أحفظه، أهدهده ولا أتركه قبل أن أحس بدفئه فى صدرى، أصارع أمامه وحشاً خيالياً لا وجود له وأضربه بقبضتى فى الهواء، أظل أطرده حتى يطمئن ويعاود النوم.

هذه المرة وتيرة الأحداث كانت أسرع فانتبهت أنه ليس حلماً ولا كابوساً ولا أرواح شيطانية الى آخر هذه الترهات، أمه أعطته جرعة الانسولين المعتادة، لشدة حرصها وخوفها الدائم من زيادة مستوى السكر فى الدم، وتنفيذها تعليمات الاطباء بحذافيرها، وزيادتها علي هذه التعليمات، قللت مما تطعمه أياه، حتى أنها لم تبالى وهو ينام بدون طعام، مما تسبب فى

انخفاض ظل يتناقص حتى أفقنا على صرخاته المتشنجة، وسط فقاعة الذعر الضبابية أسرعت تبحث عن أى شئ عالى الحلاوة لتضعه فى فمه وهى تلوم نفسها وتولول متسائلة إن كانت قد قتلت ابنها بيديها، أكدت عليها قبل نومه لمعرفتى دقتها وحبها للكمال إن كانت قد ألقمته شيئاً فهمهمت بما يفيد الايجاب ولم يكن ذلك الا كوب من اللبن، نحيت غضبى جانباً ودخلت فى سباق مرير لانقاذه، لم تنفعه قطعة الشيكولاته الأولى ولم أجد وقتاً ليمتص الثانية، تهاوى منى فنصبته واقفاً، بدأ يغيب عن الوعى فبدأت أصفعه برفق ليظل صاحياً، أغمض عينيه فصحت فيه ليفتحهما، ابقى معى، ابقى معى، لم يبالِ وأصر على الغياب، احتضنته بيدى اليسرى وحاولت وضع العصير فى فمه بيمناى بالقوة، انسكب معظمه علينا وتراخى فكه وثقل جسده فأنزلته وشاهدت روحه تولى الادبار، أحاول الاحتفاظ بصفاء عقلى واستغيث بالطبيب فلا يغيثنى رغم اجابته منذ الرنة الأولى، يطلب منى ما فعلته قبلاً من حلويات وعصير، تسبقنى الأحداث كعادتها ويخرج من فم طفلى زبد أبيض متصل فى حلقات فيأمرنى محدثى أن أهرع به الى أقرب مستشفى ولا أنتظر، يشدد فأفهم من لهجته ما بين السطور، يحلق طائر الموت الأسود الكئيب فى فضاء الغرفة وجسده كلما أقمته يتهاوى بين ذراعىَّ ثلجياً خامداً بارداً، عيناه يختفى سوادهما فلا أرى الا بياضاً خلال جفون نصف مغمضة، تتقطع أنفاسه وتسكن جوارحه، أرقده على ظهره وأخاطبه بهدوء لا ادرى من أين جئت به وسط كل هذه اللوعة: "لسه بدرى يابيدو، لسه بدرى يا ابنى"، اتأمل ذلك المسجى أمامى عاجزاً من خيبة، صامتاً من يأس، وادرك بوجوم

أنه يذهب، عقلى الذى يتحاكون بذكائه وسرعة بديهته لا يجد مخرجاً، قلبى الذى كنت أظنه قاسياً يحاول التهيؤ لما هو قادم، يتحد اليأس والعجز وقلة الحيلة ويبدو أنه لا مهرب، يحاصرنى العدم وأتخذ طريقى لأول هزيمة مطلقة تمر بى، هل آن أوان البكاء؟

يشير لىَ ربى ويمن علىَّ فأنتفض وأتضرع وأقرر الاستمرار فى المعركة، اسأل مولاى أن يتركه لى أو أن يأخذنى مكانه، اطلب منه بأسمه الأعظم الذى اذا دعي به أجاب واذا سُئِلَ أعطى واذا نودى رد، أن يأمر قلبه بمواصلة الخفقان وروحه بألا تغادر مكانها وجسده الاحتمال، اتوسل بكل ما أعرف ولا أعرف وأعلم أنه لا قديسين لدينا، لكنى أطلب اكراماً لى، أو لأمه، أو لكل السنوات الرائعة التى لم يعشها بعد، أقبل بأى ثمن، وأعترف بعجزى وضعفى وعدم قدرتى، بل وأتعهد بعدم السخط إن لم تستجب دعواتى، لكنى أرجوك ياسيدى أن تتركه لى، أنه ليس أجمل الاطفال ولا أحلاهم ولا أكثرهم وسامة، لكنه طفلى وابنى وحبيبى، أريد ان اراه يكبر ويتعلم ويتخرج ويتزوج، أريده ان يكافح ويصارع وينتصب ويسقط، أريده ان يقف وينفض غباره وينتبه ثم يمضى قدماً ولا يبالى، أريده أن يعيش وليس طبيعياً أن يدفن الآباء ابنائهم، لا ملجأ لى سواك، ولا أعرف أحداً غيرك أدعوه، واغترارى بقوتى ورجالى، وزهوى بسلطانى وشركاتى، لا قيمة له الآن، والله ما عصيتك حين عصيتك جرأة منى عليك، ولا استهانه بقوتك، ولا استخفافاً بقدراتك، ولكن غلبتنى نفسى والشيطان..

بحق قدرتك وعزتك..

وسعة ملكك الذى لا يحد..

النجدة..

النجدة..

يتهدج صوتى..

وينقطع نفسى..

ويتوقف لسانى..

قلبى سينفجر..

الأمر أمرك..

والقضاء قضاءك..

وهذا الراقد وديعتك..

ولا أملك إلا الرضا والتسليم..

تمر ثوانى أبدية يتجمد عندها الزمن، ويتوقف الهواء فى الغرفة، وتصمت الأنفاس، يهدأ الهيجان المحموم الذى كنا فيه، وينسحب الفزع، وتتلمس الطمأنينة الطريق، ينزع الموت مخالبه القبيحة ويمضى، والفتى يسعل من أعماقه، ويفتح عينيه الواسعة الجميلة، ويقوم مجيباً كل نداءاتى القادمة من أعماق الروح، يقوم رويداً رويداً، وهناً ضعيفاً، متسانداً على ذراعىَّ، متسائلاً عن أمه التى تدور فى الريسيبشن، وتبتهل كالمجنونة، تركض كمن بها مس، وتضع فى فمه مالا أدريه، وهى تطلق صرخة عصبية ظافرة، تتمتم بكلمات غير مترابطة ولا مفهومة، تحتضنه وتقبله وتضمه حتى أخشى عليه منها، فأنزعه من صدرها ببطء وتأنى، وأمسد شعره، وأمسح عرقه، تعود "داليا"، تلك التى كانت قد اختبأت من هول الموقف فى التراس، وسحبت معها شقيقته وابنه خالتها التى تقضى يومين لدينا، وأرادتهم الا

يشاهدوا، وربما أيقنت بذهاب الفتى، أيمم شطر الحمام، أخلع ملابسى بحركة واحدة وأقذف نفسى تحت الماء واجتهد ألا يخرج لى صوت حتى لايشعروا بانهيارى، أبكى بغل وعصبية وذل وفرح وهوان، واغمغم من كلمات الحمد والثناء بما لا ادريه، أبكى وأمثالى ماعرفوا البكاء الا فى مواقف تجاوز فيها الفقيد السبعين، عاش حياة مديدة وتقلب فى مواقف واضطرابات عديدة وأحلام ضائعة ومنجزة ونعمة اسمها الحياة استغلها أو أهدرها، هل صار لى نقطة ضعف أخيراً، هل وجدت علاجاً لقسوة قلب كانت التجارة والأعمال تطمح دوماً أن أعرف طريقى إليها، وكانت فطرتى تنبهنى لوجود خطأ ما؟

أبقى تحت الماء الساخن حتى اهدأ، استرد أنفاسى ويعرف الاطمئنان طريقه لقلبى، اترك الماء فوق جسدى وأود البقاء هناك للأبد لولا صوت رفيقتى تنبهنى لضرورة الذهاب بالصبى الى أقرب مستشفى، اخرج مخاطباً أختى الطبيبة والأستاذة الجامعية ورئيسة القسم بأحدى المصحات الحكومية الكبرى طالباً لقائها لمتابعة الحالة والاطمئنان والمراجعة، تجيبنى بأنها بالخارج ولن تعود اليوم ولا غداً، تتسائل عن جنونى الذى لا أريد أن أفيق منه واصرارى على معالجة طفلى بمستشفى حكومى، تنصحنى بطبيب ما وتعطينى اسمه ورقم تليفونه إن كنت أريد تغيير من معى، أغلق وأنا أتذكر حرصى ألا يشرب ابنائى سوى المياه المعدنية، وحذرى ان يصيبهم ما يصيب ابناء الفقراء، فإذا بالاقدار تلتفت اليَّ ساخرة..هازئة.. مبتسمة.. مخرجة لسانها..

أين المفر من قدر الله؟

السـرقـة

سهام إبراهيم

"محمد عبد الرحمن" هو محور الحديث وبطل الساعة بعد المشاكل العديدة التي أثارها، بعد عام ونصف من شراءه شقة لدينا، وتقسيط مقدمها، لعدم استطاعته السداد، تبدلت لثالث مرة من كانت تدعي أنها خطيبته، رفضت العروس الجديدة أن تسكن بعيداً عن منزل أمها، فطالب بفسخ العقد واسترداد ما دفع، دون الالتزام بأي شروط جزائية، اصطحب من ادعى أنه خاله، عقيد بمديرية أمن القاهرة، ولحق به من قدم نفسه على أنه زوج أخته، مستشار بمجلس الدولة، حبيبي كان لديه من الجرأة ما يكفي ليتجاهل مراكزهم، ويطلب منهم احترام العقد الذي بين أيديهم، ومراعاة أنه لم يدفع مستحقاته منذ فترة، ومع ذلك لم نطالبه بشيء، ولا لاحقناه بدعاوي قضائية، تجنب "رفعت" الشرط الجزائي، وطلب ثمن إعلان الجرائد والعمولات التي دُفِعت فعلاً، لم أك راضية لكنه حدجني بنظرة ألجمتني، سهولة التفاوض هذه تدفع الناس للطمع، لكنه لم يك يحب طريقتي، يدعوها بالطريقة السيئة، وبأسلوب التجار، وبالسوداوية.

وعدوه بالتفكير ودراسة الأمر، وذهبوا يطلبون النجدة استغلالاً لمناصبهم، حُفِظَ المحضر، فعادوا يطلبون التفاهم، واتفقوا على أقرب موعد يخلو فيه جدوله، انتظروا يوماً علموا فيه أن "أحمد" مسافر، وهاجم الفتى الشركة بأناس معه، فأغلقت "داليا" الباب في وجهه، قطع أسلاك التليفون والنت وحاول اقتحام المكان، ثم هرب لما نزل الشباب لملاقاته، أقسم من كان يتوسط له أنهم لم يكونوا على علم بما يدبره، واعتذروا بصغر سنه وطيشه، ونزقه وحماقته، كونه وحيد والدته، طلبوا لقاءاً آخر ادَّعوا فيه أنهم جاءوا للحل وأتى الفتى بمحاميه، لكنهم لم يقبلوا بالعشرين ألفاً التي

وضعتها أمامهم عربون حسن نية، حتى يأتوا بنسخة العقد الذي قال أنه نسيه، هاتف حبيبي المحامي وسأله تسليم الفتى نقوده كلها واستلام نسختنا من العقد فيما بعد فرفض، وطلب منه الثبات على موقفنا واستلام عقدنا، وحذره من مغبة مخالفة ذلك، كنت و"داليا" قد حررنا له محضر عدم تعرض، بصفتي صاحبة الشركة ومديرتها، وهي كشاهدة الواقعة السابقة وحاضرتها، جاء على الأغلب ليعرف شكلينا، لم أقابله سابقاً، ولا كان لي معه تعامل، لم يك يريد تصالحاً حقيقياً، إنه بمعارفه وأقربائه أكبر من أن يُطبق عليه شرط عقابي، حتى لو كان هو من يطلب الإلغاء، بدوري كنت أتساءل عن أبناء الأكابر الذين يشترون بالقسط، ولا يلتزمون باتفاقاتهم، ويمارسون رياضة ككمال الأجسام، ماذا تركوا للسوقة وأولاد الحواري والأزقة، وعن أي عائلة يتحدثون؟

أعرف هذه الأصناف المبطوحة جيداً، وأنا أدرى الناس بهم، اعتدت على هذه التفاهات وأكثر، الناس عندما يريدون التحلل من عقودهم لن يعدموا سبباً، وسيخترعون من مبررات التهرب ما لا حصر له، ويأتوك بمعارف من كل أرجاء الدنيا، يريدون استغلال مناصبهم في التهرب من التزاماتهم، يبدو الأمر طبيعياً بعد كل حساب، الإنسان يحب العدل مظلوماً ويكرهه ظالماً، لكن يقاس مدى تحضره باستعداده للتفاهم، وتعويض الضرر بأقل الخسائر، بدوري لا أريد المشاكل، ولا الشجار، ولا لديّ وقت له، لكنه يرفض أن يلتزم حتى بأقل القليل، يهدد بأقاربه كالعادة، ثم تمضي فصول القصة المكررة في مجراها الطبيعي، يهربون حينما يخبرهم القسم الذي نتبعه بسلامة موقفنا، وحسن سيرتنا، وأنه لا توجد علينا أية شبهة ولا مشاكل مماثلة، وتحذرهم الشرطة من ضعف موقفهم، وإمكانية عودتنا عليهم قضائياً، إن أردنا، لمَّا يأسوا من هذا الطريق، تبعني الفتى يوماً

بسيارته، هاتفني وأنا في الميكروباص، وسط الناس، ووصف لي شكل الجالس بجواري، وملابسه، وأين هبطت، وماذا أرتدي، و..................، كان لا بد لي أن أتوقف وأسبه، هل يدرك هذا المخبول معنى تهديد فتاة من "الزاوية الحمراء"، وفي منطقتها؟

بمجرد أن علا صوتي التف حولي من لا أدريهم، التقط أحدهم الهاتف وقدم نفسه على أنه قريبي وطلب منه ملاقاته، فأغلق الخط وأسرع بالهرب، سألوني عن شكله ولون سيارته، خرجوا للبحث عنه في دوائر أمام مكتبة "مبارك"، التي تم إنشاءها لدينا حديثاً، وفي شارع الشركات مما يحيط بنا، وصولاً لسوق غزة الجديد، وحول باعة الفاكهة، حتى مستشفى جراحات اليوم الواحد، ثم خرجوا إلى شارع "بورسعيد" الرئيسي، ولا أثر له، كان خطأ مني أو قلة معرفة، أن أشرك غيري في شأن يخصني، أو هي طبيعة مناطقنا، التي تهوى التجمع وتتآزر باللمة، أو هو القدر الذي جعلني كالعادة، لا أتحكم في انفعالاتي، ولا أملك من أمري إلا صوتي العالي، وألفاظي القذرة، وتهديداتي التي هي كقطع السحاب، ستثبت الأحداث فيما بعد، أنهم غثاء كغثاء السيل، وأن المعارك لا تُدار بالعدد، وأني أهديته وسطهم من خاننا، وسلمنا إليه.

كلمني "تامر" بعد يومين، صاحب متجر الموبايلات الذي هرع إليَّ، واختطف الموبايل ليرد، لمَّا رأى عصبيتي، "محمد عبد الرحمن" اتصل به، ضعيفاً مستعطفاً طالباً استمالته إلى جانبه، لم يرق له ما يفعله، ولم يخفي احتقاره له، طلب منه تصفية حساباته مع الشركة بعيداً عني، وإلا فإن عليه أن يمر فوق جثته، قبل أن يقترب من إحدى بنات الحي، لا يفعل هذا من أجلي، بل من أجله هو، ومن أجل امرأته، وأبناءه، وأمان منطقته، التي لا يملك سواها.

أتأمل جسده النحيل، وفقره البادي، وعينيه الملونتين، وهو يحكي عن عمله كمحاسب في المحافظة صباحاً، وهنا ليلاً، والزبائن تقطع حديثنا، ليبيعها كروت شحن، يكسب فيها جنيهاً أو أقل، وأتعجب من أين أتى بكل هذا اليقين والرضا، الذي يتبدى في وجهه وملامحه، وكلماته تصدر من روح هادئة ومطمئنة.

أجلس بهدوء وأقص عليه الأمر، نتصارع من أجل نقود وعقود وكبرياء زائفة، كدنا أكثر من مرة نصل لحل وسط، لكنه يعتبر أي حل سيدفع فيه عقاباً له، ومثله لا يُعاقب، بلادي كلها تردد هذه النغمة، لكن ليس من طبقة تجار كطبقته، يدركون جيدً أن المال لم يخلق ليقف عند شخص، وأن الشركات تعمل بأفراد، ولديها عائلات تريد أن تنفق عليها، لن ينتظر أحدهم عاماً ونصف بلا أجر ربما يتراجع المشتري في صفقته، لأن صديقته الجديدة ترفض السكنى بعيداً عن أمها، ما حدث هو العكس، أسرعنا في البناء، وتركيب الدرج والعدادات، ورخام المدخل والقواطيع الأسمنتية، وكل التفاصيل الصغيرة التي تستهلك وقتًا، ولا تبدي أثراً آنياً، لكنها تظهر بقوة فيما بعد..

تركنا الواجهات والبياض للنهاية، حتى لا تتأثر بالغبار وذرات التراب وبقايا البناء، اعتماداً على نماذج مماثلة، قائمة ومنتصبة، يراها الشاري قبل توقيع العقود، لم نبع يوماً قبل بناء الدور الأرضي على الأقل، تجنباً للجهالة وحرصاً على ثقة الناس، أبدى تفهماً لم أكن أنتظره، وطلب مني أن انتبه لنفسي، وفق تقييمه، خصمي أصفر وضعيف وغدار، وهؤلاء أخطر من الأقوياء الواضحين، شكرته وقمت واقفة، نبهني قبل أن أغادر، أن "شريف" ابن الحاج " عيد "، جاره في محل العصير، والذي شهد الأمر معه، لم ترضه شهامته، ولم يعجبه خروجهم من القصة، وعدم وجود دور لهم، فتشاجر

معه، وانحاز لصف العميل، خاصة وهو يرى في الأمر باباً للرزق، ووسيلة لزيادة الدخل المنعدم، أنهى حكايته خجلاً مطرقاً، ناظراً إلى أرض المحل الضيق، وبلاطه القديم، رفع عينيه ليجدني صامتة مفكرة، هززت رأسي، وطلبت منه ألا يهتم، كررت شكري، واتخذت طريقي للمكتب.

بدأت مكالمات من نوع جديد، بلغة أخرى، ومصطلحات بدت غريبة على أذن "أحمد"، فطلبت منه التنحي جانباً لمَّا سألني، كان يتحدث والضيق بادٍ بقسماته، والعصبية قد بلغت منه مبلغها، وقد تحمل محدثه لدقيقة، قبل أن يغلق الهاتف في وجهه، كان واضحاً أنهم تعمدوا محادثته هو، لأن أرقامي معهم، ولم يحاول أحدهم الاتصال بي، كما أنه غالباً لا يرد على من لا يعرف صباحاً، لانشغاله مع العمال، أو لعدم وضوح الشبكة بالصحراء حيث يعملون، أو أحياناً ما يكون غير مدرك لأبعاد المسألة، خاصة وهو يطلب من العملاء توضيح شكاواهم في نقاط مختصرة محددة، وهو ما يفاجئ من أمامه ويغضبه، وتنهال الشكاوى دائماً بعد أي مكالمة معه، من جفاف أسلوبه وقسوة طريقته.

لم يخب ظني، اتصلوا ثانية بعد دقائق، استغللت انتهاء وقت العمل، وانصراف معظم الموظفين، ووجود ركن خالٍ، وانطلقت في محدثي سباً ولوماً وتقريعاً، في كل الاتجاهات، انفتحت كمدفع رشاش متصل سريع الطلقات، أو كثور طائش في معرض خزف، كنت قد مللت كثرة المحادثات، وأفعال النساء التي يأتيها الفتى، بتحريض من أمه، والعصبية التي أصل إليها كل مرة، وحالة اللا حل التي صرنا إليها، كان صراع إرادات، واستعراض قوة، واستخدام شدة، لا مكان فيه للحق ولا للحقيقة، وظن فيه من على الطرف الآخر من الهاتف أني سأتراجع، إن أخبرني أنه بلطجي مستأجر..

بعد تجاذبات كثيرة، ومحاولات مضنية للشرح، لم يهتم بها محدثي، وصراخ وسباب، وتهديد ووعيد، ومكالمات مقطوعة، وأفكار متناثرة، واتفاقات ذاهبة آتية، وساعتين من المحادثات التليفونية، طلب مني أن أرد للفتى مبلغاً وقدره خمسة وأربعون ألفاً بدلاً من ثمانية وخمسون، هي قيمة مستحقاته بعد خصم الشرط الجزائي كله، واثنان وستون ألفاً، إن كنا لازلنا على اتفاقنا القديم ، قبل أن أبدي تعجباً اشترط حصوله على خمسة آلاف جنيه له خارج الاتفاق، طلبت موافقة صاحب الشأن كتابة لأمنح نفسي وقتاً للدراسة والتشاور، فوعدني أنهم سيجعلونه يحادثني ويفوضهم، وقد فعل، ذهبت لحبيبي وأنا لا أصدق أنهم سينفذون، كنت أحلم بما سأفاوضه عليه من النقود التي أتيته بها من الهواء، لدهشتي لم يوافق، اعتبرها نقوداً حراماً لا حق لنا فيها، لم يستمع لنداءاتي المتكررة، ولا رجاءي الحار، ولا توسلي المرير، وأنا أعيد عليه الطلب، المرة تلو المرة، حتى خشيت غضبه، أن نخرج أنفسنا من هذا المستنقع، ولا علاقة لنا بالفتى ومصيره، من يلجأ للبلطجية سيصلى دوماً نارهم، أبدى امتعاضه، وقلب شفته السفلى، وأظهر استياءه الملكي الذي اعتاده، والذي أعشقه. وددت لو انهلت على تلك الشفة تقبيلاً، وأن ألقي نفسي بين ذراعيه، وأغيب بين أحضانه طويلاً، أفقت من خيالاتي على صوته، وهو يطلب ترك الوقت للعميل، حتى يهدأ، وينتبه لعدم جدوى ما يفعل، ويتسلم شقته أو نقوده كاملة، بعد خصم الجزء الذي اتفقا عليه، وليس الشرط كله، ويتنازل عن عقده في الشهر العقاري.

بعد مهاجمة الفتى للشركة طلب "شعبان" من حبيبي أن يتنازل، ويحقق للفتى ما يريده، ولا داعي للشوشرة، حتى لو كنا على صواب، لكن ذلك المقاتل الصلب الذي كانه "رفعت"، المستقيم بالفطرة، الصريح، الذي يعمل

وفق منطق الصواب والخطأ، في سوق يحتاج للمرونة، أكثر مما يحتاج للنقاء، كان أبعد ما يكون عن هذا الشخص، في الوقت نفسه لم يرضى بعرض البلطجي، واعتبرها خيانة لمن وكله، أخلاق النبلاء هذه هي من أوردتنا المهالك، ولا أدري بعد كل هذه المدة، أكان قراره واعتصامه الأخلاقي صحيحاً أم لا، إن قلت بصحته فقد مضت الأمور في اتجاه جعلها خارج السيطرة، وصرنا إلى ما صرنا إليه، إن سلمت بخطئه، فالسند يؤخذ من أعلاه، والرجال حيث منازل الرجال، ولا ضمانات أنهم كانوا سيفعلوا نفس ما فعلوا، بعد أن يتسلموا النقود.

❖❖❖❖

منى إسماعيل

هاتفني مرتين أو ثلاثاً، كان كمن يتتبع خط سيري أو يتأكد من نزولي من الشركة، يتحجج بالطريق والزحام وصعوبة الحركة في شارع تجاري كعباس العقاد، في المرة الثالثة اتفقنا على تأجيل الموعد للغد، تنفست الصعداء وقد وجدتها فرصة للنزول مع "شعبان" لشراء مقابض الأبواب والكوالين والاتفاق على الخلاطات الإيطالية والأدشاش التي لم نجدها لدى الوكلاء اللذين يحيطون بنا، تطالبنا "داليا" كعادتها بأن نترك السيارة الكبيرة ونتحرك بالصغيرة، كانت تعلم حب "شعبان" لقيادتها وتباهيه بذلك ولا جدوى لمناقشته في ظل ترك زوجي له لشراء الخامات الناقصة، خرجنا من أول الطريق متمهلين، حتى إذا بلغنا شارع "يوسف عباس"، الهادئ وشبه المهجور، واستدرنا مع انحناءة الطريق، بجوار الثكنة العسكرية، أمام المبنى الجانبي لجامعة الأزهر بنات، قطع علينا الطريق ميكروباص أحمر قديم، هبط منه "محمد عبد الرحمن" وآخرون، جنحوا علينا حتى حاصرونا بين سيارتهم والرصيف، فاصطدمت مقدمة السيارة والاكصدام به، نزل الفتى الممتلئ بالعضلات حاملاً في يده عصا، انهال بها على الزجاج فكسره، تبعه ثلاثة كانوا بالميكروباص، فيما بقى السائق مكانه، وآخر خلفه، سحب "شعبان" عصا الأمان الحديدية التي يغلق بها السيارة خوفاً من السرقة، وضرب أحدهم في وجهه فأصابه، لكنهم تكاثروا عليه، ودار أحدهم حول السيارة لإنزالي منها، على حين فتحت "داليا" بابها وانطلقت هاربة..

ضربت أول من قابلني في وجهه فجذبني من شعري وحاول إخراجي، صرخت دون وعي صرخة أوقعت الرعب في القلوب فأسرع "شعبان" بدخول السيارة تاركاً ظهره مكشوفاً بعد أن كانوا قد خطفوا العصا منه وأصابوه في عينيه

وحاجبه، ارتمى بكل ثقله عليَّ جاعلاً كل همه ألا يقربوني حتى أنه جلس على فخذي وركبتيَّ، جرى أحدهم خلف "داليا" وأمسك بها واقتادها واضعاً سكيناً أبيض في جنبها مهدداً إياها إن نطقت..

اشتد الصراع داخل السيارة واللهاث واللكمات حتى أن الكاسيت انكسر وتاهت صرخة "محمد عبد الرحمن" في الزحام ألا يقربوني وأن هذا لم يكن الاتفاق، ما زلت أصر أنه أبله دخل أرضاً ليست أرضه واستظل بسماء لا يدرك مدى قسوة غيومها، أنزلونا بعد أن خارت قوانا وقواهم من كثرة الشد والجذب إلا أن هذا لم يمنع من أصبته في أن يضربني بالعصا الحديدية في منتصف ظهري وأن يمزق الآخر "شعبان" بالمطواه في صدره ورقبته وفخذه وقدميه، ضرباته ليست قوية إلا أنه محترف يجيد استخدام الأسلحة ويعرف كيف يصيب ولا يقتل، كنت قد أنهكت من كثرة الصراخ والنزاع والدفع والمقاومة وتكالبهم عليَّ، ومن الواضح أني قد أثرت غيظهم من شدة بأسي كامرأة دون أن أدري أن الغيظ قد بدأ منذ المكالمات التليفونية التي سبتهم فيها "سهام"وأنهم هم من كانوا يحادثونها.

اقتادونا للميكروباص فإذا بالفتاة فيه وأحدهم يصوب إليها مسدساً، يضعه على رأسها ويجول به في جسدها، ويهبط على ساقيها، يمر به صاعداً لأعلى، فوق البلوزة القطيفة، بادئاً من وسطها، حتى فتحة صدرها، فعنقها، فوجهها، يتوسل "شعبان" ألا يلمسونا، ويقدم نفسه كبديل، وهو يمسح دمه بيده، على حين يتسرب سائل دافئ كثير، كالماء، بين ساقي وفي بنطالي، ولا أحاول الاستطلاع، حتى لا ألفت الانتباه لخوفي.

كدت أعرض نفسي عليهم، شريطة أن يبتعدوا عن الفتاة، لمَّا نهره قائدهم، الذي سمعتهم يدعونه "أحمد أبو النصر"، والذي يجلس في أول صف بجوار السائق، يطلب منه أن يكف عن العبث، فقد وصلت الرسالة،

يلتفت بابتسامة مقيتة، وهو يلقي إلينا بدفاتر إيصالات أمانة، ويطلب منا التوقيع عليها، وضعوا كل منا في صف، بجوار واحد منهم، وبقى قائدهم يراقب، من غبائه، قدم إلينا قلماً أحمر، لا قيمة للتوقيع به أمام القضاء، ينتبه وهو يخلع مني ذهبي وخواتمي، يسبني وهو يأخذ الهواتف المحمولة، ومرتبات الموظفين التي تجاوزت الآلاف العشرة، والأسلحة في خاصرتنا، أتذكر بحسرة، أن زوجي قد رجاني، أكثر من مرة، ألا أخرج بنقود كثيرة معي، "داليا" أكثرنا تماسكاً، وقد أعلنت استسلامها من أول لحظة، ووقعت باسمها الثلاثي كاملاً، فلم يجبروها على وضع بصماتها، كما فعلوا معنا، وقعت دفتراً واحداً، و"شعبان" اثنين، وأنا خمسة، يذكرونني بكلمات "سهام"، ثم يدفعونني في كتفي، يعيدون عباراتهم وسبابهم لها، وسبابها إياهم، ثم يضربونني في نحري، يلكزني أحدهم في صدري، وهو يعيد على مسامعي ما قيل، فأحاول إفهامه للمرة المائة، أنها لم تكن أنا، أطلب منه الهدوء والتفاهم..

يرد لي أحدهم خواتمي فأسأله عن الانسيال، يحدق بي ببلاهة وعدم فهم، يفغر فاهه مندهشاً ويسبني ثم يحتفظ بهم في جيبه، الانسيال كان هدية من زوجي أكملت ثمنه من مدخراتي وحفرت اسمه عليه، ألاحظ بمرارة أن كل منهم أخفى عن الآخر ما استلبه واعتبره غنيمته الخاصة، أخذوا من "شعبان" مرتبه الشهري وساعته وهاتفه ولم يك لدى "داليا" إلا مثيله الذي اشترته بالتقسيط لارتفاع ثمنه ونثريات قليلة بمحفظتها، "رسالة صغيرة من عائلة الزيات"، يبلغوننا بصيحات انتصار، ثم يعرضون أنفسهم علينا، إذا احتجناهم لمهمة مماثلة، أنظر لقائدهم فأجده صامتاً، وعيناه تلتمعان موافقة، يتحركون بنا كضمان للسيارة التي سارت خلفنا، نمر بجوار الثكنة العسكرية على مهل، والسائق الذي نزل بجوار "محمد" منذ البداية لا

يعرف كيف يقودها، تتعطل منه مرة، ويصدمها بمؤخرة الميكروباص مرة، دون أي محاولة من الحرس لاستطلاع الأمر، فقط يتأهبون ببنادقهم، ويرفعون أسلحتهم، ويشدون الأجزاء، وهم يرون تكرار التوقف، ترتخي أعصابهم، وتهبط أسلحتهم، ويتابعوننا بأبصارهم، حينما تمضي العربات، حتى إذا شارفنا آخر الشارع، حيث النصب التذكاري عن يميننا، وجامعة الأزهر عن يسارنا، وطريق النصر السريع "الأوتوستراد" يمتد في الاتجاهين، أنزلونا قذفاً وأسرعوا هاربين .

❖❖❖❖❖

مُهانة، مُتألمة، مُتفاجئة، غير مُصدقة، جلست ألتقط أنفاسي، وأحاول التظاهر بالقوة، كي لا ينهاروا، أتأكد من عدم وجود رضوض، لكني لم أجد بنفسي رغبة ولا قدرة. في المواقف المماثلة يذهب العقل لأكبر الخسائر، وقد كانت السيارة، أتخيل وقع الأمر على زوجي، ولا أدري كيف سأخبره. نسير صامتين للأمام باتجاه مستشفى "رابعة العدوية"، ونحن نمني النفس بأن يصادفهم كمين، أو يلفت الزجاج المكسور انتباه شرطي، خاصة ونحن في وضح النهار. قدماي متثاقلتين كأكياس رمل، والمسافة البسيطة التي نقطعها تبدو بلا نهاية، وقد غرق كل منا في أفكاره.

ينهار "شعبان" جالساً على أقرب رصيف رافضاً الإكمال، يتبدى القهر كاملاً في دمائه المتخثرة وملابسه الممزقة وجراحه المفتوحة، أدنو منه لألتقط يده وأطلب منه القيام، أواسيه بكلمات معزية وأشكره لأنه فعل كل ما بطاقته، رأيت في عينيه نموذجاً للحزن الجارف قبل أن تغيم عيناه فأمسحهما سريعاً وأطلب منه أن يكف. أشير لأول تاكسي يمرق أمامنا وأستوقفه صامتة،

أفتح له الباب وأنتظر حتى يدلف ونحن خلفه، نستعير من السائق هاتفه وتحين اللحظة التي نخشاها حين تطلبه "داليا" بأصابع مرتعشة، تعطيني الهاتف فأشير إليها رافضة، لا أجرؤ على محادثته وأترك الأمر لها، لا يرد أول مرة ولا الثانية ويبدو صوته قلقاً متعجلاً واشياً بنفاذ الصبر في الثالثة. ينقلب ضجره لهفة وهو يطمئن عليها ويسألها عن سبب إغلاقنا لهواتفنا، أُمَنِي النفس بأنه قد سمع ندائي حين أخذوا الإنسيال وأزداد خشية حين يبتر عبارته وقد أدرك الموقف بعد أقل من نصف جملة منها. لا يُبدي جزعاً ويتدارك المفاجأة سريعاً وهو يواعدها بلقائنا أمام المستشفى. يتأخر رغم وعده بالهرولة، وفراغ أيدينا من نقود نحاسب بها السائق، يصر "شعبان" ألا يهبط حتى يحضر ويراه، يريد التأكيد أنه لم يقصر، وما كان باستطاعته المزيد، في مهرجان الرعب الذي عشناه منذ زمن، رغم قربه، يبدو موغلاً في البعد، حيث الألم مجسماً، والمهانة أكثر تجسيداً.

دلفنا إلى الاستقبال، فاقتادوا الفتى مباشرة إلى الجراحة، لحمه ممزق في أكثر من موضع، وينزف دماً خفيفاً، وجرح عينيه تحت الحاجب، لكنه بعيد عن القرنية، رغم بشاعة المنظر يفرك الطبيب كل جرح، ويحركه، وينظر داخله، ليتأكد من سلامة الشرايين، ثم يبدأ الخياطة، فتنهار أعصابي، وتخونني قدماي، اتركه مع زوجي، وأخرج للممر الضيق، فتصر "داليا" على الكشف عليَّ للاطمئنان، تصحبني لغرفة جانبية، أرقد فوق سريرها، منتظره طبيبة لا تجيء، تتوارد الأفكار بخاطري، وقد أزفت ساعة الحقيقة..

معتادة أنا على السير فوق حافة الهاوية منذ عرفته، وأحببته، وبدأت العمل معه، على الجرأة المطلقة طالما أني على صواب، على الطريق السليم الذي لا يعجز صاحبه، لكن الأمر هذه المرة فوق الاحتمال، ما فائدة عقل يغص بالأفكار العظيمة، في روح مغامرة كروحه لا تجنح إلى أبسط الحلول،

وأكثرها حذراً وأماناً، كيف يكون تاجراً ولا يخاف، ولماذا يجب أن يكون الغجري الجريء، المتقد بالحيوية، والرغبة في إصلاح العالم، إذا كان يخطط مبانيه حتى أدق تفاصيلها، ويحاول تنفيذها بحذافيرها، دون أدنى مفاجآت، ويحتاط لكل خط رسمه، أما كان البشر أولى من الحجر، لماذا لم يتراجع، ولا استمع لـ"سهام"، ولا لـ"شعبان"؟ ما المشكلة لو كان ذلك الأخير "نسوانجياً" فيما مضى، هل صارت الملائكة تهبط على المتدينين بالآراء السديدة؟

أتفزز من ألم الروح أكثر من ألم الجسد، أهتف مغمضة العينين أني طالبته بالحل، تربت الفتاة مهدئة، ويدلف هو إلى الحجرة فجأة للاطمئنان. أخشى أن يكون قد سمعني، لكن عيناها تشيران لي بالنفي، أقوم متثاقلة هاربة للحمام بصحبتها، للتأكد أن ما نزل مني كان بولاً، وليس دماً ولا نزيفاً، اغسلني كلي بالماء، مغرقة وجهي وطرحتي وملابسي، ولا أبالي..

أعود لغرفة الكشف، تؤكد الطبيبة سلامتي، وعدم وجود كسور، وإنما رضوض في أماكن متفرقة، وتمضي. يتردد علينا أكثر من مرة، وأعرف من حديثه مع الفتاة، أن خطيبة "شعبان" وأهلها قد حضروا، وأن أحد أشقائه في الطريق. أفتح عيني لأئتنس بوجوده، وأتمنى أن يبقى، فيصدمني وجهه الجامد، صلباً في ألمه، قادراً على كبح مشاعره، لكن الكآبة كانت بادية عليه، رغم كلماته المواسية والمتلاحقة..

"ابننا كان على وشك الضياع منا بالأمس، ولو كان هذا بديله فنحن الرابحون، الحياة جولات وهي مجرد جولة خسرناها، احمدي إلَهك وتحلي بالصبر، ما أهمية السيارة والنقود الآن إن كنا، لا قدر الله، نحضر جنازة ابننا".

تلمس يداه الناعمتين رغم خشونتهما وجنتاي، فيتبخر غضبي بعد عباراته هذه وكأنه لم يكن، أسترد نفسي، وتطلب روحي أن أكون على قدر الموقف، ولا أزيد من آلام هذا الذي لا يبدي أي تأثر، فأجده يحدق فيّ، عيناه حزينتان وإن تظاهر بالعكس، إشارات يديه وكلماته عادية، وكأنه لم يحدث شيء ذي بال. يعتصرني الألم مُضاعفاً وأنا أتذكر خديعتهم، وتأكدهم من توقيت نزولنا من الشركة، حتى يستطيعوا متابعتنا، واقتفاء أثرنا. الشقة التي كنت أطمع في سداد مقدمها، بدلاً من الحالية التي تستنزفنا؛ النقود والذهب اللذان ضاعا مني؛ اللاب توب والهواتف الذكية وبعضها لم يمر على شراءها أسبوعين؛ أوراق الناس وعقودهم؛ برُشورات الدعاية التي تسلمناها بالأمس؛ السيارة نفسها. تجتاحني نار حارقة، أتفزز ثانية، أدبدب بقدمي، أهز رأسي، أغمغم بكلمات ساخطة لا أدريها، لا أتوقف إلا وهو يرش جبهتي ووجهي بقطرات ماء ندية، ويردد أني على حدود الكفر، وعدم الرضا. أخفف من غلوائي وأفتح عيني ناظرة لأعلى، يخبرني بشبه ابتسامة مغتصبة أن "شعبان" انتهى من خياطة جروحه، وتصوير أشعة لصدره وساقيه، وقد أتت سلبية بحمد الله..

❖❖❖❖❖

أحمد رفعت

حينما أبلغوني بسرقة سيارتي بمحتوياتها، وإصابة "شعبان"، والهلع الذي لحق بزوجتي، و"داليا"، تذكرت والبلاهة على فمي، في صدمة الدهشة الأولى، وغمامة الذهول التي أحاطت بالهواء للحظة، أني كنت على وشك فقدان ابني بالأمس، في غيبوبة سكري. ابتسمت ساخراً، الله هو الماكر الأكبر، وقد أعانني بالأمس على ما سوف يحدث اليوم، حمدته في صمت، صليت ركعتي شكر، وبدأت التفكير بكيفية التصرف. هاتفت أحد أقربائي من ضباط الشرطة، قلت له أني أشك في عميل ما، لم يكونوا قد أخبروني بعد أن الفتى لحماقته قد اشترك في الأمر بنفسه، طلب مني اتهامه بلا تردد، سألته عن الأوضاع الأمنية المتردية في تلك الفترة، قال إن الأمر أكبر من أن يمر، وفق ما أحكي له هناك ثلاث جنايات على الأقل، خلاف ما سيظهر في التحقيقات. شكرته فطلب مني المتابعة، وأعطاني أسماء مفتشي المباحث لأني سأحتاجها، سيدبر لي لقاءات معهم، حتى أحصل على كروت منهم وأتحدث باسمهم، سيتبعها بلقاء مع نائب الوزير والوزير نفسه لو استطاع، أبلغته أني صنعت فيلّا لابن أحد نواب الوزير، فسألني عما أنتظره لأطلب المساعدة، يجب عليَّ أن أتخلى عن مثالياتي وعنادي الذي اشتهرت به، للأمور قوانين تدار بها، وهي خلاف تلك التي أتمناها، يرجو أن تكون التجارب قد علمتني، وأحدثت ثغرة في جدار تصوراتي، ثغرة كبيرة بما يكفي، لكي أهبط على أرض الواقع .

لمَّا لحقت بهم عند المشفى الصغير الهادئ والقريب من مقر الشركة كان الوضع أسوأ من تخيلي. هاتفوني من موبايل السائق الذي وافق أن يقلهم رغم سوء حالهم وطلبوا مني أن ألاقيهم هناك، الفتى أصر أن ينتظرني

خارجا بدمائه، بجراحه، بملابسه المتهدلة ولحمه الذي يطل من بينها بتأثير المطاوي التي مزقته، زوجتي مبتلة من منتصف ظهرها حتى كعب بنطالها، والفتاة هي الوحيدة التي تبدو بخير .

طلب منهم السائق أكثر من مرة أن يدخلوا للعلاج لكنهم رفضوا حتى مجيئي لكي يطمئن الرجل على من سيحاسبه، لا أخال الأمر كذلك وإنما يريدونني أن أرى حالهم وعدم تقصيرهم ولا تفريطهم فيما ضاع، وخاصة "شعبان" الذي طلبت منه قَبلاً عشرات المرات أن يدع السيارة ويتحرك بالمواصلات، فكان يبتكر من الحجج ما لا نهاية له، ليستمتع بقيادتها، وبتشغيل الكاسيت على أغانيه الشعبية، وبالهواء يصفع شعره، ويتخلل ثناياه، وبالسيجارة في يده، وكأنه يتحدى العالم بأعوامه القليلة، وسيارته الحديثة، وبدلته الوحيدة التي لا يملك غيرها، وسماعة الموبايل في أذنيه، متصنعاً الأهمية. لم أجد النظرة الطفولية الجذلة السعيدة التي كانت تملأ عينيه دوماً، كان خافضاً رأسه، متجنباً مواجهتي، مكسوراً من خجل، منهكاً من جراح. لم أجد ما أتجاوز به الوضع إلا أن أتجاهل ما جرى، وأقفز فوقه، ولا أحاول التفكير فيه، حتى أحتفظ بعقلي، ورباطة جأشي، وقدرتي على الظهور أمامهم بالمظهر القوي اللازم لتجاوز أزمة كهذه. أتوزع مشفقاً ما بين تلك الراقدة بإحدى الحجرات تنتظر إسعافاً أولياً، وذلك الذي يختبر الطبيب جراحه كي يتأكد أنها لم تصل للعظم. كان من يضربه محترفاً، مزق اللحم ولم يقطع أوتاراً، ولولا جراح وجهه ورقبته، لاعتقدت النيابة أنه صنعها بنفسه. أرفع حاجبيَّ فزعاً ومندهشاً وأتفوه بلفظ استنكار، فينتبه الطبيب لما يقول ويكمل بحثه صامتاً، وكل تركيز العالم على وجهه وفي أصابعه، حتى إذا ما اطمأن، طلب مني مساعدته في تحريكه وتقليبه وتثبيته، وهو يخيط له جراحه، بعد رفض الفتى لوجود الممرضة،

وخجله من التعري وخلع ثيابه أمامها. سخرت منه بصوتٍ عالٍ لكي ألهيه، والطبيب يمر بالخيط والإبرة في لحمه وجلده، طفقت أعايره بأني لا أصدق أنه رفض التعري أمام امرأة فلا يضحك، تنثال دموعه بصمت ويتأوه بين كل غرزة والتي تليها، ننتهي من موضع فيبدأ معالجه في فحص الآخر لكي يتأكد من سلامة العظام. أتركه ريثما أطمئن على المرأتين، ترقد زوجتي مغمضة العينين مبتلة الشعر قد برزت خصلاته من أطراف حجابها، تتفزز من ألم ملقية اللوم عليَّ متمتمة في شبه غيبوبة أنها طلبت مني الحل. أقسم في سرى على الثأر، حاولت الحل معه سابقاً ولم يسمح له صديقه الذي ادعى أنه زوج أخته ومستشاراً بمجلس الدولة. لم يكن اجتماعيا مُنصبًّا على التأكد من شخصيته وأنا أمنحهم ما ظننت أنهم لن يحلموا به، وأوافق على فسخ العقد بعد عام ونصف من كتابته، وأتنازل عن نصف الشرط الجزائي، ولا أطالب إلا بما أُنْفِقَ فعلاً، من إعلان جرائد وعمولات موظفين، ولا شيء سواهما، فيتبجح بأقاربه المهمين، ويهرب المستشار المزعوم ليحرر محضراً، وكأني يجب أن أخاف. عدنا لعصر القوة وصار خطأي واستحققت اللوم. تنتشر بالجو رائحة اليود والمطهرات وتغدو الممرضات في ثيابهن البيضاء وأنتبه أين أنا. أُصر أسناني في غيظ وأطبق فمي وشفتاي، هذا وقت الصمت وكلنا أمام المرض عجزة ولا قيمة لنا، ما إن نطأ أبوابه وندخل في عالمه حتى نصير أسراه ويصبح هو المتحكم والآمر الناهي والسيد المطاع، ونظل على عتبته أشباحاً خائفة تراقب القرار وتنتظر الفرج .

تصل "سهام" ثم "حمادة" و"حسين" أصدقاء "شعبان" وزملاؤه اللذين ألحقهم بالعمل حديثاً، ويصل المحاسب ليهنئه على دخوله نادي ضحايا الشركة، ثم باقي الزملاء، المتحفزين والمطالبين بالثأر والمستعدين له،

بأسلحة معهم، فأهدئهم، وأبدأ في التصرف بأريحية أكثر وأعصاب أبرد وعقل أكثر تحكماً، أصطحب ذلك الأخير لقسم الأشعة بعد خياطة جروحه للاطمئنان على صدره ومعدته وساقيه، ولا أتركه إلا بين يدي خطيبته وأمها، اللتان وصلتا للتو. أبدأ في السؤال عن الشرطة التي لم تحضر رغم كل استنجادنا بها، واستدعاءنا لها أكثر من مرة، فيخبروننا في المستشفى ألا نقلق، وأن هذا هو العادي، وقد صار قاعدة متبعة في الفترة الأخيرة. لمَّا يئست اصطحبت المريضين و"سهام" والشابين ومضيت إلى القسم.

خلافاً لكل توقعاتي أجدني أمام معاون مباحث لم يتجاوز الثانية والثلاثين، ينتظرنا باهتمام ويراقبنا بتركيز ويتفرس في ملامحنا محاولاً الوصول لأعماقنا ومخترقاً جلودنا، حتى ثالث لقاء لنا معه لم يك يصدقنا تصديقاً كاملاً، يبدو الشك روتيناً يومياً في عملهم وصديقاً مقيماً، يفتح محضراً ويكتب تقريراً ويستمع لأقوالهم، لأفاجأ بأن المسروقات أكثر مما أخبرتني به زوجتي، التي خشيت غضبي، فأنتفض واقفاً وأنا أحوقل بصوت عال، تخفض بصرها هي والفتى إلى الأرض، ويصمت الثلاثة الباقون دون أن يفهموا، ويرفع المعاون رأسه إليَّ، ويتوقف عن الكتابة، أخرج لأتمشى في الممر وأنا أُسَبّح حتى أهدأ.

لا أدري هل طمَّعهم الفتى بشيء ما كي تكون الغلة كبيرة، أم أنها مصادفة أن يكون معهم مثل هذا المبلغ، إضافة إلى ذهبها، واللاب الذي لا يفارقهم، لاحتياجهم له في العمل، واحتواءه على أكواد وأشكال المواد المستخدمة، والعمارات التي نبيعها، وتصميمات الشقق الداخلية، كانت تطمع في تحسين معيشتها قليلاً، ومعظم مالي أضعه في الأراضي التي أشتريها وأتاجر بها، تجري بأقصى طاقتها لتُكمِل مستلزمات شقة عميل، حتى تنتهي منها

وتحاسبه، خاصة أني وعدتها أن أترك نقودها لهم، أعلم أن الرزق تحديداً، مهما فعلت، لا تَسرُّع فيه، ولا يأتي إلا في موعده، وقد جربت سابقاً مئات الطرق، وبذلت مجهوداً يفوق الطاقة، وسعيت بكل قواي، وقمت بما لم يقم به غيري، ولم يفدني تلهفي في شيء، ولا نفعني تعجُّلي، ولا ذكائي، لكن ....

لماذا تركتها في وسط البحر تصارع وتتعلم بمفردها، لماذا لم أشرح لها هذا، لماذا باتت عصبيتي طاغية، وقدرتي على نقل خبراتي وتجاربي محدودة، هل كنت أتوقع منها أن تفقه بمفردها، أم كنت أنتظر أن يقعوا فيما وقعوا فيه، ثم أصرخ عندما تلهبني النتائج ؟

❖❖❖❖❖

تذكر كل كتب التاريخ أن أغلب من قاموا بثورات على حكامهم، عادوا إليهم بعد فترة قصيرة، إلى نفس الطبقة ونفس الناجحين، يشكون ذلهم، خيبتهم وفقرهم، قلة حيلتهم وإساءة صنيعهم، خراب بيوتهم، وضياع استقرارهم، وعدم استطاعتهم الاعتماد على أنفسهم، يطلبون العطف، ويستجدون اللقمة، ويقرون بالخطأ، وربما يطلبون منهم أن يحموا لهم نساءهم، يَمِنُّ عليهم الأغنياء وأصحاب النفوذ، يختارون منهم أقواهم جسداً وأصلبهم عوداً وأكثرهم جلداً على العمل، يعيدون بهم بناء الأمجاد الغابرة والثروات الفائتة، لكن لا ينسون معاقبة بعض الرموز الواضحة، وتركهم عبرة، وجعْل الناس يشاهدونهم وهم معلقون، يصرخون طلباً للرحمة واستجداءً للعفو، حتى لا ينسى الباقون أنفسهم ثانية، كنت في انتظار هذه اللحظة منذ قامت ثورته، لكن مفاجأتي الحقيقية كانت فيه هو، نحتاجه ولا أنكر، لكنه يحدثني عن العدالة والمساواة، هذه كلمات تقال في الجرائد، العائلات لا تُبنى في يوم وليلة، وابن الناس ليس مالاً ولا تعليماً فقط، وإنما سلسلة ممتدة من الآباء والأجداد، والألقاب والثروات، والصعود والهبوط، والنجاح والفشل، والمحاولة باستمرار، والبحث عن البدائل، ومطاردة النجاح، وشخص لديه مثل ماضيه، لا يجوز له أن يهدره بأفكار الماركيسيين والملحدين وسواقط القوم، ممن يتخذون من كلماتهم الضخمة وسيلة للترقي، بلا عمل فعلي.

كنت كل مرة أتعمد اصطياد إحدى العرايا من ندواته، التي كان يصحبني إليها في مثالياته الأولى، وتصويرها في شقتي الخاصة، وقد خَلَعت ما تبقى من ملابسها، وتخلَّت عن كل خطبها، ونسيت المساواة المزعومة، والكرامة

المهدرة، والاحترام الضائع، الخ........... من المفردات الكبيرة، والكلمات الضخمة، وابتسمت سعيدة وراضية، لكل ما يُفعل بها، مستسلمة لأنوثتها، طالبة المزيد، باحثة عن الشبق، وقد كنت ولا زلت أجيد إمتاعهن، وإجابة طلباتهن، وتعمد إهانتهن في الفراش، ولولا تدينه، لدعوته معي في إحدى السهرات، على المرحوم شرفها.

"عبد الناصر" الذي أمَّم ثروة عائلته، وأعطاها لضباطه وأفقر البلاد والعباد- والذي أراه نسخة مصغرة منه في كاريزمته، والتفاف الناس حوله، وحبهم له- كان يسكن في قصر، ملحق به حمام سباحة، وسيارات بسائقيها تحت خدمته، ومعتقلات وسجون وزبانية يأتمرون بأوامره، وضباط ينتظرون إشارته، وإقامة جبرية وضع فيها معارضيه، وفيلّا بأعلى ربوة بمصر اتخذها معاونه سكناً له ولعشيقته، وهلل له البسطاء، الذين يريد هو وبِجَرة قلم، أن يجعل رؤوسهم برؤوسنا، دون أن يخبرني بأية أمارة؟

إنها أفكار تحريضية ودعوات مخربة، هؤلاء القاذورات لا ثقافة لهم ولا تعليم ولا يستطيعون تحمل أدني مسئولية، وقد قادتهم قدراتهم إلى أنهم من دون الجيش وأمثالنا، لا قيمة لهم، ويكفي كمُّ الفوضى التي أحدثتها ثورته المزعومة، من غياب للأمن، وانهيار للاقتصاد، وتطاول للسفهاء، على أسيادهم وأولياء نعمتهم.

يحدثني عن الصحة والتعليم والمدارس الحكومية... إلخ، إن كان يقصد نفسه فلديه ما يكفيه وأولاده لكي يتجنب هذه الإسطبلات الآدمية، ولدينا تجارب وليدة في القطاع الخاص، ستصير رائدة يوماً ما، إن احتج بطول الفترة، سأجيبه بضعف الإمكانيات، وإن كان يتحدث عن الباقين، عن جموع الناس، جمهرة الشعب، السواد الأعظم، ما لا أدريه من المفردات الكبيرة، لديهم ما يتوافق مع المستنقعات التي أتوا منها، وحال المباني

الحكومية التي جعلها هدفاً لسخريته، مناسب تماماً لحال من يحتاجونها، وعليهم أن يتحملوا، إنها مرحلة انتقالية وسنطورها، بعدما يقف قطاعنا الخاص على قدميه، ثم ألم يك انحدار الحال بتلك المباني، سببه الأفكار الاشتراكية والشيوعية، التي يصرخ بها النصَّابين وتجار الكلمات، ويريد هو تطبيقها علينا، وفي عقر دارنا.

مع هؤلاء الشياطين لا يوجد إلا القوة، ويكفي أن تظهر العصا للكلب المضروب، إنها اللغة الوحيدة التي يفهمون، وإذا رققت ضاع الحزم، وذهبت الهيبة، وعمت الفوضى، وانتشر الجوع، بل إن أغلبهم يوافقني الرأي، ويقر بأنه ليس ثمة أمل في إصلاحهم، وأنهم يحتاجون من يقودهم، ويكبح جماحهم، ويُقَوّم بالسوط عوجهم، ويتولى عنهم أمورهم، فهل سيدري هو عن شعاب مكة، أكثر من أهلها؟

إنهم لا يقفون طابوراً واحداً بانتظام، ويقبلون بكل مظاهر القوة والعربدة، والسلطة بينهم لمن غلب، لا لمن فقه، ولو كان الأمر بيدي، لأرسلت الجيش يدكهم بالقنابل، والشرطة تقنصهم وتعتقلهم، ولهدمت بيوتهم، وهجَّرتُ أهاليهم، وجعلتهم عبرة لكل من يجرؤ أن يفتح فمه..

البلاد تضيع، ولا يوجد لدينا ما يؤدي إلى نتائج غير المطرقة، نحن لسنا في أوروبا، ولا يجوز أن يُترك لهؤلاء حق التصويت والانتخابات، الديمقراطية لا تصنع حضارة، وما نحن بحاجة إليه هو حكومة قوية، ورأس صلب مدبب، ولو قال إن الستين عاماً الماضية كانت كذلك، وقادتنا إلى الخراب، سأجيبه بأن هذا أفضل ما يؤمل من أناس لديهم استعداد للرقص في الشوارع، ووضع الأحذية فوق الرؤوس، وإلقاء مسئولياتهم على كواهل غيرهم، يحملونها عنهم، إنهم بنسائهم بأطفالهم ملك لنا، ولو كان رجلها يملأ عينها لما بحثت عمن يحميها سواه، ولما خرجت تصفق وتتلوى أمام

الغرباء. إنَّ مَن قدم امرأته هكذا مكانه الطبيعي تحت قدمي، ومكانها في فراشي، ومكان ابنته في بيتي، تخدم زوجتي وأبنائي. لقد فوضني أن أقوم عنه بدوره، وتنازل بإرادته عن حريته، وصار من حقي ما أفعله به، طالما سأوفر له لقمته، لقد جرب العمل مع الفقراء، وعاد للمساكن الرخيصة، وابتعد عن الكومباوندات، فما الذي فعلوه به، وبامرأته، وبشركته؟ هل يريد لأمثال هؤلاء الحثالة أن يكسروا هيبة الضباط، ويقذفوهم بالحجارة، ويسيروا معهم على قدم المساواة.

إنه لأمر جميل لو كنا متساويين، لكننا لسنا كذلك، وهي حقيقة لا يريد الاعتراف بها !

❖❖❖❖❖

قابلوني في اليوم التالي مباشرة. كان اجتماعاً عاصفاً وخاطفاً ومريراً، المحامي الذي رآني في هذه المتاهة، حضر معنا تحقيقات النيابة، واكتفى بسؤالي عن فريقي من البلطجية، الجاهز لمعالجة مسألة مثل هذه، ثم ذهب على وعد بلقاء، مشاعري كلها مرتبكة بين الحنق والغضب وإيجاد الأعذار. وقفت أنتظره متحفزاً عاقداً ذراعيَّ نافخاً الهواء بزفرة، قبل أن ألمح سيارته قادمة و"هشام" بجواره، أحسست بأضواء الانتظار كلها في عيني ولمحتني على زجاجه، ركنوا خلف سيارتي وهبطوا فيما يشبه الخجل المتشح بثوب المرح، أخفى ابتسامة مرتبكة واعتذر عن مفاجأتي بصديقي القديم الذي قال أنه ما كان ليسمع أني في مأزق ولا يأتي ليقدم يد المساعدة، أصدقه وأعلم أنها خصلة حميدة فيه لكنه هجومي وانتقادي وكأن لي دور فيما حدث، يوافقه الآخر وإن بتحفظ، ويقر أن جرعة الثقة والصلابة التي أمنحها لأتباعي عالية، ويكفى ما فعلناه في القاضي وابن أخيه وكيل النيابة، أو الضابط الذي تجرأ وفكر في اقتحام المكتب محاباة لأحد أقاربه، بما لا أدريه من أسانيد وظيفته، فأرسلت إليه من أهانه في قلب القسم، نحن تُجار والأوضاع بعد الثورة غير طبيعية، ولا نتحمل كثرة المشاكل، ومفردات من عينة الخطأ والصواب لا مكان لها في عالمنا، حتى لو كنا على حق، كان يجب أن أرضخ وأستمع لصوت العقل، طالما أني لا أمتلك القوة الغاشمة، أطلب منهما إن يهدآ قليلاً، هذه طريقة عملي وأوافق عمَّالي، ولو كنت مكانهم لتصرفت مثلهم، ولا ألومهم في شيء، إن كانوا خائفين أو خاضعين أو فاقدي الثقة في أنفسهم فكيف سيعملون ويبدعون، يسخر "هشام" كثيراً من كلمة الإبداع وكأنها سُبة، يطلب مني

أن أسير على درب من ساروا قبلي وأنتظر دوري، ألا أحاول الفذلكة ولا ادّعاء المعرفة، وسيشمل الفقراء فتات موائدنا، عليَّ ألا أغتر كثيراً بما حدث في "يناير" الماضي فهي هبة غير مكتملة، وكل من قاموا بمثلها عادوا إليهم بعد شهور قلائل، يطلبون العفو، ويستجدون الرحمة، ويقرون بخطأ ما فعلوا. هذا في شعوب تقرأ وتفكر، فما بالي بمثلنا، أغاظني لما قال بوضوح أني سأكف عما أفعله قريباً، وسأنتبه لدنياي وعالمي، وأتصالح مع الوسط الذي أتيت منه، والذي أكن لنفاقه كراهية فوق ما يتصور، ولا يدرك لذلك سبباً .

سألته عن قيم الإنسانية والمساواة، عن الطبقية التي دافع عنها باستماتة، عن الحرية التي ظل يردد أنها لا تصلح لنا، وأن شعبنا أقل من أن يستحقها، وأن المصريين بالخارج مثلهم مثل الفقراء، وليسوا أصواتاً كاملة في صناديق الانتخاب، ثم تغير كل ذلك لمَّا جاء سمسار البورصة، مثله الأعلى، الذي يؤمن هو به إيماناً كاملاً، والذي تعلم في مدارس دولية، وأكمل دراسته بالخارج، وعمله أيضاً، ثم هدم عرش أبيه، وأضاع ملكه، لمَّا أنكر كل النواحي القدرية اللازمة للنجاح، بمنتهى الغشومية، جاء ليسير على كل كلمات "هشام" الحالية، بممحاة، ويتجاهلها وكأنها لم تكن، ويكنسها كأوراق ذابلة، لمجرد أنه رغب في عكسها، لمَّا أراد الزواج بابنة أحد هؤلاء المغتربين، عن ازدواجية المعايير، و"هشام" يرفع قيم العمل على طول الخط، ثم ينكرها على "سهام" وأمثالها، إذا طالبت بما طالب به، وزادت بأن تكون قواعد اللعبة عادلة، والقانون فيصل، والمحاكم هي أماكن حل الخلافات، عن الوطنية بضاعة الفاسدين، كما يعرف كل غر، هل تخيّلوا أني وقعت، وجاءوا للشماتة فيَّ ؟

بدا أن ثالثنا قد قرأ خاطري فتدخل لتهدئة الحوار، لكن صديقي القديم لم يرض بهزيمته المفاجئة، أسكته بإشارة من يده وألقى خطبته المعتادة عن جهل وفقر وسوء طوية هؤلاء، عن استحقاقهم لما هم فيه، وتوقعه لهم بالأسوأ، عن انتظاره لخضوعهم وذلهم وعودتهم صاغرين، عن "سهام" ذلك الوحش الذي أربيه في بيتي وبين أحضاني وأخاطر، و"داليا" المثالية الحمقاء التي لا تعرف من أمر الدنيا شيئاً، وتظن أنها بشعاراتها وطنطناتها يمكن أن تغير العالم، عن كل قيم السوق التي أتجاهلها وأتخيل أن هنا مكاناً للإنسانية، طلب مني التغاضي، ليس عفواً ولكن حرصاً على المصالح، كان في سبيله للاسترسال بنفس عصبيته المقيتة قبل أن تغلبني عصبيتي، قاطعته متسائلاً وساخراً عن ذلك التغاضي مع ابنة صاحب الكومباوند، أين ذهب ولماذا فكر في قتلها قبل أن يحاول الانتحار، لم أذكر الشطر الأخير، لكن المعنى قفز فوق كل الجهات .

جاوبتني نظرة مصدومة وتائهة قبل أن أفاجأ برد الفعل، فجرت بركان غضب كان كامناً فيه ولم أدري، أخرجته عن طوره وشعوره ولم أره في تلك الحالة قبلاً على كثرة ما اختبرنا سوياً، نكأت جرحاً كان شديداً فوق ما أتصور فانفثأ بعصبية وهستيريا وجنون، كانت قصة ومضت لحالها فلماذا عدت لذكرها، أنفجر كمن يريد الموت ولم يجده، أسمع الشارع صرخاته بمنتهى الألم عمن سرقت مجهوده وعمله وأرباحه وأعادته لنقطة الصفر، وَلْوَل وهو يشكو رفضها ترك الفتات له حينما أراد لملمة جراحه، انتحب وهو يقر بشماتتها فيه ورغبتها في كسره، أقر بهزيمة ذكاؤه ووسامته ومهارته أمام نقودها وقبحها ورغبتها في تحطيمه لمَّا تجاهلها وأعطاها ظهره، ظل يكررها سادراً في غيه وظللت أحاول تهدئته وأنا أعتذر له بلا جدوى، انسابت دموعي وأنا أبحث عن أقرب زجاجة مياه في متناولي

فتغيم عيناي ولا أستطيع الرؤيا، يعرف أني عنيف وتصادمي وأعمى ساعة الغضب فلماذا تحداني، أنثر ملء قبضتي على وجهه ورقبته ثم أصفعه برفق صفعات متتالية وأنا أناديه، يصمت فجأة ويبقى لحظات ذاهلاً ينظر في عيوننا ثم يجهش بالبكاء، أحتضنه بعمق وأنا أكرر اعتذاري على حين وقف "طارق" مشلولاً حائراً ومتفرجاً ؟ هل في غمرة العصبية، على صديقي، سننت سكيني، ورفعت المدية، وشهرت الأسلحة ؟

❖❖❖❖❖

طارق المصيلحي

كان دخولي حياة "أحمد" إثر فشل أول وأكبر مجموعة بدأ بها، وأكثرها إخلاصاً له وقرباً منه، كنت أنا من رواد المجموعة الثانية، كان يقاوم ولا يريد أن ينكسر أو يعترف بهزيمته، كعادة كل جاهل كان سلاحي السخرية منه ومن تجربته، أنا قادم من قرية من قرى المنوفية حيث لا معنى للمصطلحات الكبيرة التي يتحدث عنها، شيئاً فشيئا شدني لعالمه ودنياه، حيث البشر متساوون، والمجتمع طيب، والخير الموجود في الأرض يكفي سكانها، والرخاء يلزمه فقط كثرة العمل، أحلاماً لا أدري أألومه عليها، أم أعتز أني كنت يوماً جزءاً منها ؟

خرجت من شركته لحملة "أيمن نور"، المرشح الرئاسي السابق أمام "حسني مبارك" في عز سطوته وجبروته، حيث رأيت السواد الأعظم في حياتي، واختلطت بجهل الناس وتكاسلهم، واصطدمت بأريحيتهم واستسهالهم، وإيثارهم الجُبن والسلامة، وحيث تبدو فكرة تغيير حاكم أمضى فوق كرسيه ما يقارب الأربعة والعشرين عاماً نظرية تحتاج لشرح، عدت لقواعدي بلا أمان بعد حبس الرجل، لأنه تجرأ واحتل المركز الثاني، خلف الرئيس الأوحد، والقائد الأعظم، وحامي هيبة الدولة .... الخ من المفردات التي عفا عليها الزمن، وصارت محل سخرية أي متحضر، بدأت أفهم أن المعاني العظيمة شيء، وما يريده الناس ومستعدون لقبوله ودفع ثمنه شيء آخر، غرقت في شأني الخاص، وافتتحت مكتبي كمحامي، وأحرزت نجاحات وإخفاقات، وظللت في دائرتي الضيقة، حتى احتاجني مصادفة في قضية تافهة للمحامي وخطيرة له كعميل محتمل، وجدته كدأبه عملياً ناجحاً مثابراً، ولم يكن أي أسلوب آخر لينجح معه، صارحته

ببساطتها وأنا أضحك وشرحت له ما نفعله بتجريدية مطلقة فأعجبته جرأتي، كما توقعت، كان قد صار وحيداً بدائرة ضيقة من الموظفين المناسبين في الأماكن المناسبة، لم تفقد ملامحه حلاوتها، ولا روحه إصرارها، لكنك تستطيع أن تقرأ في عينيه وبوضوح، آثار السنين المسروقة، والأحلام المنكسرة، والتجارب الفاشلة، في تطبيق الأفكار المثالية، بهذه الدرجة من التطابق، وسابق المعرفة، والإيمان بالفكرة، من يصلح لي أكثر منه، عميلاً وصديقاً وإنسانا، بيني وبينه من الروابط والصلات والمواقف ما سيجعله يأتمنني على أسراره وغوامضه، وهو الكتوم الصموت قليل الكلام، المهتم بالفعل ونتائجه، لم أكن قد وصلت إليه لهذه الدرجة التي صرت إليها فيما بعد، وقد كانت "سهام" دائماً حاجزاً قوياً وجداراً مرتفعاً، لكن "منى" هي روح الشركة المتمترسة والخفية، ودرع "رفعت" ضد جنونه وغروره وتهوره، وعلاقتي بها أكثر من رائعة، بما يجعلني آمل مشاركته ولو بنسبة، أنا و"هشام"، شريكه القديم الذي تركه فيما مضى، لما أحس بقرب غرق الشركة، قبل أن يثبت خطأ حساباته، والذي تلاقت مصالحي وإياه في هذه النقطة، لكن "أحمد" بتجهمه وتركيزه وقوته يبدو عصياً على الاختراق، حتى أنك لا تعرف كيف تنفذ إليه، وتطلب منه على لسانه، أمراً كهذا؟

كنت أتوقع أن تتوالى المعارك الكبيرة بعمله، خاصة بعد مشكلة القاضي السابقة، وشخصيته غير المرنة، وعناده الأسطوري، كل هذا كان كافياً للنيل منه، والحد من تسلطه وجبروته، فإذا به كما هو، وقد كسر مرافقي بمنتهى الحدة، ثم أسرع يبحث عن أقرب منديل يمسح به دمائه النازفة، وإذا بي مضطر أن أشرح له، ما سبق أن أخبرته به.

المنظومة القضائية في مصر خلاف ما يتوقعه، وكونه مالكاً لشركة نقطة تجعله في الموقف الأضعف، حتى لو كان صاحب حق، وقد علمتني عشرات التجارب، أن القضاة لدينا - وربما في كل العالم - يميلون لقناعات شخصية، يتجاوزون بها أحياناً نصوص القانون، بحرفية ومهارة، مصر إحدى دول العالم الثالث، والقاضي فيها نصف إله، وطالما سيسمع النصائح، وينفذ التعليمات، ويتفق مع وجهة نظر الدولة، فالهيئات الرقابية بعده ستجيد حذف أي شكوى مقدمة ضده، طالما لم تكن طلب رشوة، ولدينا مئات الحالات المحالة للصلاحية لجرائم تتعلق بالشرف أو نظافة اليد، لكن ليس لدينا قاض واحد حُوكِمَ أو أُدين لأنه خالف صحيح القانون، حتى أني كلما جاءني موكل ما في قضايا مدنية، كإيصالات أمانة أو سداد ديون أو تأخر إيجار أو خلافه، من قضايا الفقراء التي كنت أتولاها في بداياتي، كنت أطلب منه أن يتجاهل الخصم، ولا يدفع ما عليه، حتى لو كان قادراً، وأن يرتدي أسوأ ما عنده، وألا تفارق عينيه نظرات الاستعطاف والاسترحام، ولسانه طلبات الرأفة، وأكتفي بمرافعة قصيرة، أترك في نهايتها الأمر بين يدي معاليه، وسيتكفل الفقر والبؤس والعوز، المنتشر في المجتمع، بإلانة قلب أقساهم، وأكثرهم وعورة، وأشدهم حكماً وتعسفاً.

"أحمد" كان حالة مختلفة، هذا الثري البهي، هذا المتأنق اللامع، هذا الوجيه ابن الأكابر، الذي تلوح النعمة من وجهه والطيبة من سيمائه، هذا الصعب المتجبر، هذا الشرس العنيد، هذا الضخم المترهل، المستقيم الطبع والطباع، لن يوافق على طريقتي ولن تنجح معه، أقرب الحلول هو صنع سمعة شرسة له، تتوافق وقدراته واحتياجاته، وموظفيه الذين يدينون له بالولاء، ومستعدين لتنفيذ أياً ما يطلب، هذا يستدعي قوة

خارج القانون، بلطجية بعبارة أوضح، حيث لن ننتظر الإجراءات المعتادة، وسنبحث عن حقوقنا بأيدينا، لن نقف بباب أحد، ولن نبحث عن وسائط، لا حاجة لضابط متكبر، أو وكيل نيابة متشكك، ناهيك عن الأمناء، وحاجبيّ المحكمة، وكاتبي العدل، الذين سيطلبون المعلوم في كل خطوة، قبل أن يقوموا بعملهم، إن قاموا، لا، لا وقت لدينا، سترغمه الظروف على تغيير تفكيره، وسيحتاجني في هذا الطريق، آجلاً أو عاجلاً، سيلين قليلاً، وسأجد

ثغرة في مغارة استحكاماته الدفاعية المطلقة.

هدأت الأمور بينهم بمحاولاته المتكررة لتهدئة رفيقنا الذي انفجر، كلنا ضعفاء مهما تظاهرنا بالقوة، حاولت شرح الفجوة الواسعة بين طريقة التفكيرين، ونبّهت على أهمية التكامل، ألقيت كلمة حذرة عن إمكانية التعاون، فلمعت عيناه ببريق فهم، تجرأت وأتبعتها بكلمات عن المشاركة، فصار كل شيء على المكشوف، لدهشتي لم يرفض، قال إن الأزمات نبهته، لكنه أملى شروطه، طلب ببطء وتوكيد، فيما يشبه الأمر، أن نجرب بعضنا لفترة، وألا نتدخل في طريقة إدارته، أياً كانت، تعهد أن يسمعنا، وأن يأخذ برأينا، إذا أعجبه، وهي خطوة صغيرة، وأقل من طموحاتنا، لكنها مهمة، وقد كنت أظنها بعيدة، حد القمر، أين سنتناول عشاؤنا في هذه الليلة الباردة ؟

❖❖❖❖❖

6 / 30

داليا الوكيل

مضى ما يقارب الشهر قبل أن أتغلب على خوفي بصعوبة، ذهبت مع المهندس الذي أعمل معه للقسم ثم للنيابة لتأكيد أقوال الباقين بصفتي أحد المجني عليهم، كانوا قد ذهبوا للنيابة لسؤالهم مرة أخرى بخلاف محضر القسم ولم أفعل أنا إلا لمَّا اصطحبني، جن جنوني لمَّا رأيته مصراً على تواجد "سهام" معنا حتى أني طلبت من الأمين بوضوح، ونحن في قسم الشرطة، متعمدة إحراجها، ومنتهزة فرصة غياب "أحمد" للصلاة، أن نكون بمفردنا، لست ضعيفة ولا منكسرة، لكن شعور طاغٍ بالإهانة، كان يملؤني في الأيام الماضية، الحيوان الذي كان معنا في الميكروباص، منَّ عليها، ضمن مكالمات هاتفية كثيرة، بأنه رآني آنسة، وقرأ في بطاقتي أني متعلمة، فأمر رفاقه أن يبتعدوا عني، إذا كانت تتحدث معي عن تفصيلة مثل هذه، بتلك البساطة، فماذا قالت لباقي زملائنا بالشركة، هل جعلتني سخريتهم بأسلوبها الشعبي الرخيص والمبتذل، هل تندروا عليَّ، هل تحدثوا في شرفي، ولماذا يظن مديري بعد كل هذه السنوات، من العمل والعشرة، والتآلف والمواقف المشتركة، وردود الفعل، التي أثنى هو عليها، أنى لن أستطيع إنجاز الأمر وحدي، وبدون مساعدتها؟

لم أجرؤ على مصارحته، ولم ينتبه هو لما يجول بخاطري، فتشاجرت معه هذه المرة بعد أن أدليت بأقوالي أمام وكيل النيابة، لمَّا خرجت من الغرفة ووجدتها أمامي، كنت قد مررت عليه في منزله واصطحبني حتى المحكمة، وصعد بي للدور السابع، حيث جنايات مدينة نصر، دخلت للتحقيق بلا محامي، حتى يتأكد المحقق أني لا أكذب، وذكرت ما حدث تفصيلياً، وخرجت لأجدهما يتناقشان بحميمية، ويشربان الشاي والعصائر، صعد

الدم إلى رأسي، وغلى في عروقي، وصرت تلك المدمرة التي لا ترى ما أمامها، وتتصرف كثور هائج في معرض خزف، طلبت منه أن يدخل للمحقق طالباً إعادة شهادتي، يرمقني بعينين حائرتين لا تفهم لما أفعله سبباً، لم تكن أول مرة، لكنه لم يُبد أي قدر من المرونة، وقابل التحدي بمثله، وتركني أفعل ما يحلو لي، وليذهب غضبي إلى الجحيم، أطفو في البلاهة، وأهيم تائهة في غيبوبة من الغل والعصبية المطلقة، حمدت الله أن محدثي أكد لي أنه لا يمكنني التراجع في أقوالي، لم أكن لأفعل لكنه وفر لي غطاءاً معقولاً للكرامة المهدرة، انتظرت حتى بردت أعصابي، وهبطت أنفاسي، واستعدت وضوح ذهني، ثم وأمام دهشته الشديدة، بدأت أتصرف بمنتهى الهدوء، وكأن شيئاً لم يكن.

استخرجتُ صورة رسمية من القضية لتقديمها إلى مديرية الأمن، كي تُسجل السيارة في الدفاتر مسروقة، ويُحظر بيعها، بكل المديريات والتراخيص ووحدات المرور، كما أكدتُ على طلب التحريات الجديد الذي سيعاد للقسم، لتشمل القضية متهمين جدد مطلوب أسمائهم وعناوينهم، أرسلت رسالة شفهية لرئيس المباحث بالسلام والتحية وطلب المساعدة مع أمين القسم الذي يتولى نقل الأوراق والمتهمين من وإلى النيابة، كنت أفعل ذلك أمامه بمظهر صريح البراءة، ليتأكد أني أستطيع القيام بكل شيء وحدي، وبدون الخبرة المزعومة منها، والتي منحتها دائماً الأفضلية، في العمل والنقود والوضع الاجتماعي، دون أمل قريب في الالتفات لمواهبي وخبرتي وقدراتي التنظيمية الصارمة، التي، وياللعجب، يعترف هو بها.

كان قد وعدني وللمرة الثانية بإعادة فتح الملف السياحي وعرض الشاليهات التي يملكها في إحدى القرى السياحية، والتي حصل عليها مقابل ديون قديمة له على القرية، للبيع، وأن أكون أنا المسئولة عن كل ذلك، بل

وكان من ضمن الاتفاق، أن يساعدني مع أبي في مقدم سيارة جديدة تماماً، أتولى سداد أقساطها من مرتبي، توقف المشروع أول مرة بسبب الثورة وما تلاها من أحداث، ثم هاهو الأمر للمرة الثانية يتعثر ويكاد يضيع، كان يرى السيارة رفاهية لا أحتاجها الآن، وربما لا أقدر عليها، لكنه لا يدري كم ستُسهل الأمور لدى أمي وتفتح مغاليق الأبواب، كنت قد تسببت وبشكل مباشر في المرة الوحيدة التي نزلت فيها الشرطة لمنزل "محمد عبد الرحمن" لاعتقاله، رد فعلنا كان قد أثار جنون الخصم لما لم نبدي اهتماماً بما فعلوا، حاول مساومتنا ففوجئ بكم لا مبالاة غير طبيعي، بدأ يطلبنا بإلحاح لما لم نتصل به، لجأ للتهديد فتناوب الزملاء السخرية منه، قرأ علينا عناويننا وأرقام منازلنا من واقع أوراقنا الشخصية التي معه، قال أنه سيهاجمنا في بيوتنا، وسينتظرنا ونحن عائدين من أعمالنا، فانقلبت السخرية تهكماً، طلبوا منه أن يقترب منهم إن كان يجرؤ، أن يُظهر نفسه إن كان رجلاً، أن يعطيهم عنوانه، وسيأتون إليه بأقدامهم، في عقر داره، أو في أي مكان يشاء، زادوا أنه لن يقدر، لا هو ولا رفاقه، لأنهم مجموعة من الجبناء، آخرهم مهاجمة رجل وامرأتان، ولا يستطيعون المواجهة، لست مع تصعيد الأمر لهذه الدرجة، ولم أكن أوافقهم، لم يتأثر أحد بما قال سواي، أنا التي عشت التجربة، اتهمت نفسي بالجبن، لكني كلما تذكرت المسدس الذي كان في نحري، وتخيلت وقع الأمر على أبي، الذي عاش عمره كله في الظلال، وأمي وما سوف تفعله، إن علمت بما تعرضنا له، شملتني رعدة، وتوقف تفكيري من الرعب.

❖❖❖❖❖

أحمد رفعت

وقعت رويداً رويداً، وبمرور السنين، في حالة من الهمجية، مجموع كلماتي الرقيقة والرائعة، وعباراتي المنتقاة بعناية، تقلص، نبرة الصوت الجهيرة، ازدادت علواً، حتى صارت صراخاً دائماً ومتصلاً، ولأتفه الأسباب، علامات العبوس، عرفت طريقها إلى وجهي، جسدي الطويل والمشدود، ترهل وامتلأ، أفكاري الواضحة اختفت، صرت طاغية متحكماً متملكاً، وبما أني الرجل الأوحد، والمدير الأعظم، والسيد المطلق، والمالك الفعلي، والمهندس صاحب الشركة، ومن ليس بحاجة للتصنع، والعاملون تحت إمرتي، والنساء ترفض انتهازيتهم وسوء طويتهم، لكنى لا أنسى خضوعهن، وعرضهن أنفسهن، وارتمائهن تحت قدميَّ، ويملؤني شعور بالعجب والغرور، أطلق من نفسي خبائثها، وأجري على لساني السخائم، ضاق صدري باستمرار، وتملكتني العصبية سريعاً.

صرت لا أطيق أن أُعانَد، وتعودت ألا تُعصى أوامري، وأن تُنفذ قبل أن أنطق بها، وأن يكون رأيي هو المُطاع، وألا أشغل عقلي بما يعتمل في صدور الآخرين، وبعد فشل فكرة من يلتفون حولي لثقافتي وكلماتي، وجمال طبعي ومنطقي، ومراعاتي لشعور الآخرين، صاروا يحيطونني لنقودي ومصالحهم، ولغدهم الآتي والمحمَّل مثل السحاب بأمطار الخير، والمستقبل الوادع والهانئ، بات الأمر أسرع وأقرب وأسهل، وبدلاً من تكلف ضبط النفس، وترويض الروح، والتحكم بملامح الوجه، ونبرة الصوت، وهدوء الأعصاب، صار أتفه شيء يخرجني عن طوري، وأبسط الأمور كافٍ لكي أنفجر غضباً، وأنفث لهباً، وسوط مرتباتهم يجلدني، واقتراب نهاية الشهر يضغطني، واليوم الذي لا أعمل فيه حتى اللهاث، ولا أسقط في

آخره من فرط التعب والإعياء، ومقابلات العملاء، وأوامر العمال، والاتفاق مع المهندسين والفنيين على جدول الغد، هو يوم مضى من عمري هباءاً، وسُرِقَ مما قُدّر ليَّ أن أعيشه، قبل أن يجمعني والقبر حيز واحد، ولولا بقية من دين أورثتني تواضعاً ما، لما تحملت نفسي، ولأسرعت عصبيتي بي، فوضعت مسدساً في فمي وتعجلت ذلك الجمع.

بات واضحاً أن الشركة في حاجة لمن هو أهدأ مني لإدارتها، وأن ثماني سنوات على رأسها منفرداً فترة أكثر من كافية، وعدا ذلك فأنا أضر نفسي قبل أن أضر من معي، وقد وجدت فيها بغيتي، شراستها وطبعها الحار الذي أحبه والشعبيين الذين أعشقهم رغم فشلي السابق معهم، كلماتها وعاداتها الغريبة المعجونة بماء الفلفل والبهارات الحريفة واللاذعة، قدرتها على احتمال نزقي وأوامري الطائشة، خضوعها المطلق وعباراتها القادرة على تليين الصخر، رغم نفاقها المفضوح، وحبها للنقود، ولعلاقاتي، ونوعية عملائي، الذين تذهب للتحصيل منهم، كثرة كلماتها التي ترددها على مسامعي ومسامع الباقين من حولي، عن حبها لي، واقتناعها بي، واستعدادها للذهاب للجحيم من أجلي، جعلتني أصدقها، حتى أني تعجبت من تساؤلها، عندما توقفت لأفكر، أو ترددت في قتل الفتى بعد ما فعله، أعلم أني أقل إقناعا لهم جميعاً، ولها على وجه الخصوص، في تلك الفترة، حتى أني تحججت بعظم المبلغ الذي طلبه أول من ذهبت إليه، وسألته تعقب الفتى، وخطفه، وتسليمه للشرطة، فرفض، خوفاً من فشل العملية، وحبسه، واضطراره لمعاشرة المجرمين داخل السجن، وسمعته تسبقه كواشٍ أو مخبر، لن يصدقه أحد إذا أقسم أنها كانت عملية اختطاف، وسيضطر لأن يعيش أسوأ أيام حياته، إذا لم ينحره أحد

الغاضبين من موقف مماثل، إما قتلاً للفتى، أو حرقاً لبيته، أو مخازن خاله، الذي يتحامى فيه، وإما لا يريد المهمة برمتها .

❖❖❖❖❖

لم أرد على أي مكالمة هاتفية من حفلات المعايرة تلك التي اشتعلت بين عمالي وبينهم، كنت أخشى أن أفقد أعصابي في إحداها وأتفوه بما يذهب بهيبتي أو يفضح ما أحاول فعله، عودتني الأيام على الصمت والصبر والتفكير بلا ضغوط، لكني لم أتخلص أبداً من عصبيتي، وظلت تلك أبرز نقاط ضعفي، وساهمت سنوات من التعليمات الصارمة، والأوامر المطاعة، والرغبات الملباة، في ضيق صدري، وعدم قدرتي على تقبل الآخر، ولا المجادلة، معياري دائماً نفسي، ولا أحسب للآخرين حساباً، وقد أقسمت على كتاب الله ألا أتفاهم، حتى لو تمكنوا من أطفالي، سأنفق ضعف مالهم، وأجعل من رؤوسهم أهدافاً، وأضع لها من المكافأة ما يجعلها الجائزة الكبرى، فليهنأوا بالسيارة، وليقدموا إيصالات الأمانة التي معهم إلى القضاء، إن جرأوا، سيطعن فيها أصغر محامي مبتدئ، ويسأل عن أصلها، ومتى حررت، ولماذا، وتكون وبالاً على من يتقدم بها، ولعنة ستجره إلى مشاكل لا حصر لها، لديَّ نقودهم، ولديهم سيارتي وأوراقي.

بدورها "داليا" ألقت بكلماتها الغاضبة لرئيس المباحث، واستعدت للانصراف، وهي تسأله إن كان أمر الضبط والإحضار الذي صدر في حق "الغرباوي"، قادماً من أمن الدولة لسياسي ما، هل كان سيتأخر هكذا، أو يتعلل بعدم وجوده، أحس الرجل بالحرج، وطلب منها ألا تذهب محاولاً إرضائها، ووعدها خيراً، إن مررنا عليه مساءاً، كان قد استنفد كل محاولات التفاهم مع الفتى، وطلب من أمه تليفونياً أن يمثل أمامه، أو يحادثه، ويدافع عن نفسه، إن كان محقاً، أثبتت تحرياته صدق ما نردده، وجاءه مخبريه باليقين، ولم نكن بحاجة لكل الوساطات التي قدمناها، والأسماء

اللامعة التي أصدرت توصياتها، والكروت الفخمة التي ذهبت، وعلى ظهرها رجاء حاسم بالمساعدة والاعتناء، مع تأكيد المعرفة بالتليفون أو وعد بالزيارة، بات واضحاً أنني انزلق خطوة فخطوة في اتجاه ناضلت عمري كله كي أسلك عكسه، وإن كان بي بقية من مقاومة، إعتصام "رابعة" في بدايته، والبلاد على شفا بركان، والأيام حبلى بالتهديد، ولا أحد يمكنه التكهن بالمستقبل، ورغم اقتناع رئيس المباحث، وكثرة الوساطات القادمة من ناحيتي، وتراجع أقرباء الفتى كلما أدركوا طبيعة الاتهامات الموجهة إليه، إلا أن القسم يتحول تدريجياً لثكنة عسكرية، فأمامه جامعة الأزهر، وعن يساره مبنى أمن الدولة، بكل سمعته السابقة، يليه معسكر الأمن المركزي، أما عن يمينه وعلى بعد أمتار، يبدأ الاعتصام، ولا يوجد مجنون، يتوقع من الوزير شخصياً، عدم الارتباك في وضع كهذا .

❖❖❖❖❖

داليا الوكيل

توقفنا جميعاً إجباريًا، كانت "سهام" قلقة ومرعوبة، تعاني آثار ما تسمعه في الإعلام، وهي أكثرنا مكوثاً بالمكتب، وعشقاً له، وتأقلماً معه، وأحياناً تجلس بمفردها، قبل أن تزيدها الهتافات هلعاً، إحدى المرات انتفض العميل الجالس أمامها لما سمع هدير المروحية التي تحلق فوقهم، ترك من كان يتحدث معه ومضى هارباً، فقررنا إغلاق الشركة حتى إشعار آخر، قبل ذلك كان العملاء يخافون من الهتافات التي تتسرب إلينا ضعيفة في البداية، ثم تقوى بمرور الوقت، ويتحملونها على مضض، رويداً رويداً قل عدد الراغبين في الزيارة أو المعاينة على الطبيعة، وشهدنا أياما بلا عمل ولا مواعيد مسبقة، ثم كانت حادثة المروحية القشة التي قسمت ظهر البعير، انضم أحد العاملين معنا للاعتصام وذهب الباقون لبيوتهم على وعد بلقاء لا نعرف له موعداً، كثرة الفراغ والبطالة ألجأتني للفضاء الإلكتروني، النظرة السائدة لدينا بالشركة أنه للخاويين والعاطلين والفاشلين في الحياة، لكني لم أجد غيره وسيلة للتسلية، لأفاجأ بأن "محمد عبد الرحمن" كان ينتظرني هناك، أنشأ صفحة باسمي وبصق شناعاته فيها، لم أكن أدري أنه بهذه التفاهة ولا بهذا العجز، لانقطاع صلاتي بالباقين أو خجلي من إخبارهم ومحاولة إبقاء الأمر سراً لم أعرف بداية القصة، أطلق الكلاب التي كانت معه على زملائي في الشركة مطالباً بنقوده مقابل السيارة وباقي ما استولوا عليه يوم الحادثة ومهدداً بالتكرار، بتعليمات من مديرنا وجد أبوابهم مغلقة وألسنتهم حادة وردودهم وكأنها تنتظره، أبدوا نوعاً حميماً من التضامن مع "شعبان" الذي تجمعهم به جيرة وعشرة ومعرفة منذ الطفولة، والذي كان السبب الرئيسي في التحاقهم بالعمل، ومع

"سهام" ابنة المنطقة القريبة منهم، كنت الوحيدة المنعزلة والعدوانية والمترفعة - أو هكذا ظنوا - التي صادفوها هنا أو هناك في أحد الممرات وتبادلوا معها حديثاً ودياً دام لثوانٍ قبل أن تكمل طريقها بخطواتها السريعة النشيطة، والتي تبدو وكأنها تجري على قدمين فراراً منهم أو تكبراً عليهم، تلك كانت الصورة النمطية عني بحكم احتكاكهم القليل بي، إلا أن ذلك لم يمنعهم أن يثأروا لي مع الباقين، عندما تناوبوا الردود عليه، وتسلّوا به وبأعوانه، كلما اتصلوا أو حاولوا التهديد، وضعوه تحت ضغط، مستغلين الجرأة المطلقة والثقة الكاملة التي أعطاها لهم صاحب السيارة المسروقة، وعندما تحدوه أن يدخل مناطقهم وشوارعهم وحاراتهم، أو يقابلهم على أرضهم، أو أرضه إن أراد، لم يجد لهم مدخلاً ولا منهم رجاءاً، فلم يبق له غيري يشفي فيها غليله، الذئب لا يأكل إلا الشارد من الغنم، وقد اعتدت على الصمت والكتمان في موقف يتطلب عملاً جماعياً، حاصرني على صفحتي بطلباته المستمرة للاتصال به، لم أكن أدري أن لامبالاتنا وجرأة رد الفعل الذي أظهرناه قد ضيَّق عليه الخناق ووضعه في أسوأ الأركان، كان يهاجم بشراسة المُحاصر ويأس المشرف على الغرق وقد أغراه صمتي بالمزيد، تملكني الخوف فعرفت قدماي طريقها لمكتب رئيس المباحث، مر على أمر الضبط والإحضار الذي أصدرته النيابة عشرة أيام بلا أي أثر يُذكر، أبدى صاحب المكتب تعجبه من كثرة ترددنا على القسم، فعرفت أن "سهام" بدأبها المشهور عنها تلاحقه، قد يكون مرحباً لكنه يشك في دوافعي، ويعتقدني لم آت صدفة، لدهشتي الشديدة لم يصدقنِ في البداية، ثم تطور الأمر لمهاجمة طريقتي الاستفزازية، لكنني كنت مستنفرة، ولم أتمالك نفسي من السؤال، إن كان الفتى قد صدر له أمر اعتقال من أمن الدولة "سابقاً"، هل كانوا سيقولون أيضاً بعدم وجوده،

وبعجزهم عن القبض عليه، من سخرية القدر أن الرد لم يتأخر كثيرا، بدأ اعتصام رابعة بعدها بأيام، فاعتقلوا كل من أرادوا في غمضة عين، ومن غرف نومهم، ومن أحضان زوجاتهم، وبملابسهم الداخلية، بعد أن عاثوا في بيوتهم تفتيشاً وإهانة، وبعثرة وانتهاكاً للحرمات، رد عليَّ أنه يمكنه تفسير الأمر بطريقة أخرى، سيعتبر أننا نصبنا على الفتى وأخذنا نقوده، مادمنا نتهمه بالتقصير في عمله، جاوبته نظرتي المندهشة، المصدومة والمذهولة، أجبته وأنا أرفع شفتي العليا احتقاراً أن يفعل ما يحلو له، إن كان يصدق ما يقوله، أو سمح له ضميره، زدت أنني لست ممثلة للشركة في شيء، أني أتحدث عن نفسي وخوفي ومشاعري الملتبسة، الفتى يهددني بعد كل ما فعله، بل ويزداد وقاحة وحماقة، بدلاً من أن يتراجع ويخجل، إن كان هو يرى صاحبة الشركة قد أخطأت في شيء فليقبض عليها، لكن ليقم بدوره، وليحميني مما أتعرض له، كنت مشمئزة من كلماتي، ومما أتفوه به، ومن مجرى الحوار الذي لم أقصده، لكنه فضح ما في نفسي، نهضت واقفة مرة واحدة، ورغم السلسلة التي تبرز من ملابسه، وقميصه المفتوح الصدر، إلا أنه كان رجلاً مهذباً بلا أدني شك، وإن كانت طبيعة عمله قد ضغطت عليه، فجعلته أمير الريبة الذي صار إليه، رفض مغادرتي وأصر على أن اجلس، طلب لي مشروباً ساخناً ريثما يفرغ من أمر طرأ عليه، التفت لي بعد فترة، لازال ورائي حتى هدأت ورضيت نفسي، طلب مني أن أجعلهم يمرون عليه ليلاً في حدود الحادية عشر مساءاً، أردف ساخراً أنه سيقوم بدوره كما طلبت، وسيحاول القبض على خصمنا، بلا وساطات ولا معارف، شكرته وقمت بكل الهدوء اللازم لأنثى تحاول السيطرة على انفعالاتها المتدفقة، اجتزت عتبة القسم وأنا أكاد أطير فرحاً، ما إن اجتمعت بأسفلت الطريق حتى طلبت رقمه وهاتفته، أخبرته

أني خارجة لتوي من مكتب رئيس المباحث، وقد فعلت ذلك وحدي، وبدون توصية، ولا ميعاد سابق، لم أخبره بالسبب الحقيقي لذهابي، اكتفيت بنتيجة المقابلة، وطلبت منه الاستعداد للمهمة الليلية، لماذا لا يصدقني رب عملي حينما أخبره أننا لا نحتاج الحركات السوقية التي تلجأ إليها "سهام"، وأن القضاء والشرطة، والطرق المحترمة، كافية جداً، للحصول على الحقوق ؟

❖❖❖❖❖

معاون المباحث كان يحذرني دائماً، وينصحني بإلحاح، ويعيد تذكيري، ألا أضيع نفسي هباءاً، بعد أن كان يشك في روايتنا، قلة ترددي عليه، وإجاباتي الواضحة على أسئلته، وتطابق قصتنا جميعاً، وطلبي لمشورته، واستعدادي القاطع لأي حل يراه، أمام سيل الافتراءات والأكاذيب التي أطلقها خصمنا، جعلته يصدقني، جرأتي وعدم خوفي وذهابي معه، واستعدادي للمواجهة، يوم اقتحم منزل الفتى في الرابعة فجراً، بالمسدسات الميري والطبنجات، والرشاشات والأعداد الكبيرة، في دخلة انخلع لها قلبي، رغم طلبي مرافقتهم، واستعدادي أن أكتب تقريراً أخلي فيه مسئوليتهم، ورفضهم أن أصعد معهم، حتى لا أكون عبئاً عليهم، قبل أن يهرب الفتى، محتمياً بالسطح الذي يعلو مسكنه بطابق، لم يخطر ببالهم تفتيشه.

توالي المقابلات ولَّد بيني وبين "وحيد" نوع من الصداقة المكتومة، والتضامن الخفي، الذي لا يجوز الإفصاح عنه، ولا عن إحساسه بظلمي، وانحيازه لصفي، كوني صاحب حق، إلا أن كل ذلك لم يمنعه أن يسألني بخبث، ونحن في سيارته، ذاهبين للقبض على الفتى، لتعطل البوكس كالعادة، عن السوق العقاري ومستجداته، والنصب الذي يحدث فيه، والشركات التي تظهر وتختفي، مخلفة عشرات الضحايا، دون أن يستدل عليهم أحد، ذكَّرتهُ بسخرية لطيفة أن شركتي تجاوزت العام الرابع عشر لها على التوالي، دون قضية واحدة عليها، وأني أمامه بشخصي، ومستعد للتحقيق، إن كان هناك أي شبهة ضدي، أو مبنى تقاضيت نقوده ولم أسلمه، وبأجمل مما اتفقت عليه، ضبطت نفسي عالي النبرات، فنقلت

الحوار كله بهدوء إلى جهة أخرى، كررت ما أردده دوماً، بأني أفهم في العمارة والمباني، وأترك التجارة ومشاكلها، والبيع والشراء، والعقود والاتفاقات، لأناسها، أخذته دون أن أقصد، للأجواء الأوروبية التي أعشقها، وافتتاني بالعقلية العملية الألمانية، والفن الفرنسي والإيطالي، وأحدث النظريات والأفكار في تخطيط المدن وإنشاء العقارات، وكيفية الموازنة بين طلب العميل والبيئة المحيطة، وإحساسي وآمالي واعتقادي، بأن المصري يستحق أفضل مما هو فيه، والخرابات التي تباع له بدعوى أنها مباني، لا تستحق نصف ما يُدفع فيها، أعجبته ثقافتي، وضايقه أنه لم يستطع القبض على الفتى، نبهني كثيراً ألا ألجأ لأي تصرفات حمقاء، لمَّا كان الغضب يأكلني، وصارحته بما طلبه مني أول بلطجي .

❖❖❖❖❖

لم ينفق أبي عليَّ ما أنفق، ولا توسط لدى كل من يعرف، ومن لا يعرف، ليلحقني بكلية أتخرج منها، ومنصب أُعينُ فيه، وسيارة من تسوية معاشه أتباهى بها، لتكون نهايتي على يد بلطجي ما، أو جربوع من الجرابيع، الخارجين على القانون، والذين تمتلئ بهم الطرقات، وتغص بهم الحواري والأزقة، لكي أتصدر صفحات الجرائد والمجلات، ويتغنى الإعلام بشجاعتي واستبسالي، فداءاً للوطن، أريد أن أعود إلى زوجتي وطفلي بنهاية اليوم، الذي لا يوجد ميعاد لانتهائه، أتطلع إليهم، أقضي الوقت معهم، ألاعبهم، أتساءل إن كنت هنا غداً، وما الذي ستفعله امرأتي، إذا خرجت في إحدى المهمات ولم أعد، هل ستتزوج بعدي، وهل سيغفر لها ابني، إن مكَّنت رجلاً غير أبيه منها؟

لذا عندما كان "رفعت" يحملق فيّ بعينيه الفاحصتين، المندهشتين، وحضوره الذي لا يمكن تجاهله، وأنا أرتدي واقي الرصاص في القسم قبل نزولنا، أو وأنا أركن سيارتي بعيداً، وأتخذ احتياطاتي، قبل الصعود لمنزل الفتى، لم أهتم، وإن كان يغيظني نقاؤه، وجرأته، ولا مبالاته، واستعداده للصعود معنا، وكأننا في فيلم سينمائي، لا في مهمة رسمية، قد يُطلَقُ علينا فيها النار، ضمن مصائب أخرى.

أول مجيئهم لي كنت لا أصدقهم، طبيعة مهنتي هي، وكثرة ما أراه، وأسمعه، من ادعاءات كاذبة، واتهامات ملفقة، ومبالغة في تقدير ما يدّعي الناس أنه سُرِقَ منهم، يغطون به مصائبهم، أو يخفون اختلاساتهم، أو يبالغون في الكيد لأعدائهم، هؤلاء لم يفعلوا أياً من ذلك، الزوجة كانت تخشى الزوج، حتى أنها لم تقل الحقيقة في البداية، وانتظرت غضبته

وصيحته وخروجه من غرفتي وهي تُدلي بأقوالها، قبل أن تبلغني بالقيمة الفعلية لما أُخِذَ منهم، إضافة إلى التحريات، وآثار الجروح، وأماكنها، ومكالمات رئيسي مع أم الفتى، وثبات أقوالهم، وتطابق رواياتهم، والمعاينات الميدانية، كلها مما يصعب تجميعه معاً، لتكون القصة بهذا الصدق.

اعتقدته بعدها من الإسلاميين، وربما من الإخوان، بعلامة الصلاة في جبهته، ومهابة وجوده، وأنفاسه الثقيلة، ووجهه الجاد الرزين، وحاجبيه المقطبين، ونظارته الملتصقة بعينيه، قبل أن ينفي هو، ويتضاحك من معه في حبور، لمحت فيه أثراً للشماتة، وهم يكررون أن ذلك هو الانطباع الذي يأخذه الناس دوماً عنه، ويتعاملون في البداية على أساسه، لم أصدق حرفاً من قصة أن "سهام" الجالسة أمامي هي صاحبة الشركة، ولا أن زوجها مسافر، ولا أهلها الذين لم يمنعوها من التردد على القسم وقتما شاءت، وبهذه الجرأة والكثافة، أعتقده يختبئ خلفها، ويتركها كواجهة، لتحمل عنه المصائب، مقابل الامتيازات التي يمنحها لها، والتي تبدو واضحة في ملابسها واكسسواراتها، ولا تليق بالبيئة التي أتت منها، والتي تكاد تقفز من وجهها، وحركاتها، ولفتاتها المراوغة، وإن كانت امرأة مقنعة ولا أنكر، ومشروع عاهرة، تنتظر إشارة، لن تجد لها لدينا صدى.

إن كان تخميني صحيحاً، وأظنه كذلك، فهي اختيار خاطئ، وسيدفع ثمنه، وتجربة مرت أمام عيني قبل ذلك مئات المرات، المدهش في الأمر، أن أمثاله يأتون مكتبي منفوخين، مغرورين، مزهوين بنجاحهم في الحياة، وجدهم واجتهادهم، واستقامتهم التي تعميهم عن أخطائهم، والتي يملكون حقها الحصري، ولا يظنون غيرهم يعرف عنها شيئاً، أو يجيئوني بالوجه الآخر، حينما تدير لهم الدنيا ظهرها، وتتخلى عنهم، ويقعوا في شر أعمالهم، فيدخلون عليّ مذلولين، منكسرين، وقد تمكن منهم خصومهم،

أو ذهبت عنهم نقاط قوتهم الرئيسية، وأوتوا من حيث لم يتوقعوا، هذا لم يكن أياً من الحالتين، على الأقل حتى اللحظة، وقد كان نقياً للدرجة التي أقسمت فيها بيني وبين نفسي أنه يكذب، أو يمثل، ليحوز تعاطفي، ويستميلني إلى جانبه، ولم أصدقه إلا بعد أن أمسك بورقة وقلم، وطلب أن أمليه أي صيغة تصالح أراها، أو يراها مديري، مع خصمه الذي ادّعى المظلومية على طول الخط، وقال أنه يبحث عن حقه، لكنه لم يوافق على عرضنا برد ما سرقه، والاعتذار عما فعله، على أن نتكفّل نحن له بنقوده، بعد خصم الشرط الجزائي، أصرَّ على الإنكار، وربما خشي المجيء، أو تكبَّر، لم نعرض ذلك على "رفعت" وشلته، لأن الآخر لم يمنحنا الفرصة، وغاية ما فعله أن أكد لنا أقوال خصومه، واتهاماتهم له، من حيث لا يدري، وزاد احترامي لهم، وتعاطفي معهم.

"حمادة"، "حسين"، أصدقاء "شعبان"، وزملاؤه في العمل، يأتيان مع "رفعت" باستمرار، فرحان بمجيئهم معه، وربما غاضبان لما حدث لصديقهما، لكنهما قطعاً يباهيان في أوساطهما الشعبية بترددهما على مكتبي، واستقبالي لهم، الثلاثة الذين تعرضوا للحادثة لم يأتوا إلا مرة واحدة، ولم يكونوا سوياً، اختفوا بعد ذلك وأتفهم أسبابهم، يشعر أمثالهم دوماً بالخجل والخيبة وانتهاك الكرامة، وتزيدهم نظرات من حولهم اتهاماً بالتقصير والدونية، وأنهم يتحملون النصيب الأكبر مما حدث، دون أن يدركوا لذلك سبباً.

"داليا" كانت إحدى هؤلاء الثلاثة، والتي أدلت بأقوالها فيما بعد، وأفاد الأمين الذي أخذ أقوالها بغيرتها من "سهام"، واشمئزازها منها، وعدم تمازجهما، جاءتنا بعد ذلك تشكو سفالة الفتى وملاحقته لها وخوفها منه، تركت انطباعاً طيباً لدى مديري، جعله يطلب مني أن أستعد للنزول لاعتقاله، بعد أن استوفى الإجراءات الإدارية المعتادة، وأَمُر على قسم

مدينة نصر ثانٍ، لأصطحب معي ضابطاً من مباحثها، لأن الفتى يقيم في دائرة لا تتبعنا .

❖❖❖❖❖

نحن محاصرون في مكاتبنا بين سندان أمن الناس الذي يجب علينا الحفاظ عليه، ومطرقة اعتصام "رابعة العدوية" الذي يبعد عنا بخطوات ويقع في نطاق اختصاصنا، وإن تعارض الاثنان فمعلوم قطعاً أيهما يجب أن نوجه جل اهتمامنا إليه. وسط كل هذا القلق، والتوتر، والأعصاب المحترقة، والمظاهرات التي تمر علينا بالمئات، إن لم يك بالالآف، ليستعرض الإخوان قوتهم التنظيمية، ويهددوننا بإمكانياتهم العددية، وصيحاتهم التي تثير الرعب، وهتافاتهم التي تمزق الأوصال، والقسم كله يتأهب، فنخرج للنوافذ والشرفات، ونتمترس وراء السواتر الرملية، ونغلق أبواب القسم، بعد أن نطرد من فيه، نشد الأجزاء، ونعمر الأسلحة، ونجهز المسدسات والبنادق، وحتى المدافع الرشاشة، والأوامر لدينا صريحة إن تعرضنا لهجوم، وسط هذا كله، مطلوب مني أن أهتم ببلطجي قرر أن يقيم قانونه الخاص، ولا يلتزم باتفاقه مع شركة لا أدريها، لأن عاهرته الجديدة تستبعد المسافة من "مدينة نصر" إلى الشروق ؟

كنت ضجراً متبرماً، لكن طلة في وجه "رفعت"، وهو يحكي بمنتهى الهدوء، عن تطورات الأمور معه، والبركان الهادئ الذي يغلي في أعماقه، ومحاولاته ضبط نفسه، بناءاً على طلبي، وتذكري أن خروجي في أمثال هذه الحالات، هو في سبيل الله، وإثباتاً لهيبتي كضابط، وعملي الذي أتقاضى عليه أجرى، كل ذلك جعلني أتجاهل ما أنا فيه، وأتوجه لرئيسي، فأتمم الإجراءات الورقية، قبل أن أمضى به هو ورفاقه، ولا أبالى حينما أجد إحدى سيارتيّ البوكس التي لدينا معطلة كالعادة، فأصطحب "أحمد" و"سهام" بسيارتي حتى قسم ثانٍ، على حين يستقل "حمادة" و"حسين"

السيارة الثانية مع الأمناء، انتظرنا طويلاً ريثما انتهى رئيس المباحث من العرض المسائي، نزل معاونه معي، مع قوة من العدد والعتاد، انتهزت الفرصة وقررت الضغط على "رفعت" بآخر حجج خصمه، سألته عن السوق العقاري والنصب الذي يحدث فيه، فألقى عليَّ محاضرة في تاريخ العمارة، وموضع بلادي منها، وعن عراقة عائلته ونسبه، لم يعجبني الرد، واعتقدته لا علاقة له بالموضوع، لكنه أفحمني، وشفى صدري، ونبهني أنه يقول الحقيقة، وإن كان متعجرفاً، متباهياً، وتصادمياً مغروراً.

حينما وصلنا استغرقنا وقتاً طويلاً حتى فتح لنا الحارس باب العمارة، ووقتاً أطول حتى صعدنا بعددنا الكبير وأسلحتنا إلى الدور العاشر، قال أحد المعاونين فيما بعد أن شقة الفتى قد أضاءت الأنوار واطفأتها ونحن بأسفل فلم أهتم، أم الفتى لمَّا فتحت لنا الباب ظلت تصرخ ببرائته وكأنها كانت تنتظرنا، لكنها صمتت لما وضعت عيني في عينها، في هذه اللحظة تأكدت أنها لم تكن تعلم فقط، بل كانت معهم منذ البداية، تذكرت ملحوظة كانت "منى" قد أكدت عليها، البلطجية كلموها وهم يضربونهم، ويوقعونهم إيصالات الأمانة، ظننتها محاولة من المجني عليهم لتوريط أكبر قدر ممكن من عائلة الخصم، بل وطلبت منهم عدم اتهام الناس بالباطل، ندمت في تلك اللحظة على طلبي ذاك، لكن كان الأوان قد مضى.

انتهينا من التفتيش، ولم نعثر للفتى على أثر، من ضيقي نزلت بمن معي سريعاً، ولم يخطر ببالي تفتيش السطح الذي يعلو الشقة بدور واحد، نجحت المرأة العجوز في الضغط علينا بصيحاتها، وأنا أهبط بالمصعد كنت أبحث عما سأقوله لذلك الذي هاجمته في سيارتي من دقائق، فوجدته يحدثني عما يستحقه المصري من بيئة أفضل، ومباني أجمل.

سهام ابراهيم

حينما ترفَّق بي وأخذني معه للعمل بالمقاولات وشاهدت المستوى الذي يعمل فيه ظللت من فخامة ما أرى لنصف ساعة تقريباً لا أنطق، غرفة السفرة وحدها والمطبخ المطل عليها لو اشتركا مع عشقي للطعام لقضيت الباقي من عمري فيها، كانت قاعة إمبراطورية بكل معاني الكلمة وقد حفر الحرف الأول من اسم العائلة على ظهور المقاعد والشوك والسكاكين والأطباق والملاعق ومناديل الطعام، جعل الأرضيات والحوائط والأسقف لوحة واحدة متكاملة وزخرفها بالثُريَّا الضخمة المعلقة بالمنتصف واللوحات الجدارية والبساط الفاخر والستائر المبرقعة.

كنت أسمع دائماً عن قوة أعماله، لكني لم أشاهد منها رغم السنين، إلا الشاليهات أو الفيلّات بالقرى السياحية، ومعظمها كان تحت الإنشاء، ثم إنها كانت تُسلم خالية، وتنتهي حدودي عند ذلك، وقد أدركت لحظتها لماذا لم يهتم بالإغلاق، ولا بتوقف الحال رغم تضرره، أعلم زهده المبالغ فيه، لكنه يظل زهد القادر وتعفف من يملك زوجتان أو ثلاث ولا مبالاة مبدعٍ بالنقود، يفسرها هو بأنه لا يرزق، هل يعلم أني ظللت لعام أو يزيد أقتطع من دخلي المتضاءل حتى أُجري لأمي عمليتها في مستشفى خاص، وأني من قسوة انتقاداته، وهجوميته وشراسته، خشيت أن أخبره حتى لا يسألني عن رفضي للثورة وحبي "لمبارك".

بعث بي مرة لشركة سياحة بميدان التحرير، بعد ثورته بثلاثة أشهر أو أربعة، كانت والدته ذاهبة للعمرة، سمعته مصادفة يحادثها ويعتذر لها عن تأخره في إحضار التذاكر، فتطوعت للقيام بالمهمة، مداً للجسور، وإقامة للروابط، وتنبيهاً للوجود، علَّها تكون سبباً في اقتناعه بي، فوجئت

أن الميدان قد صار بحالة مزرية، وامتلأ بالقمامة، وبالباعة الجائلين، ومنادين السيارات، بلا سيارات، توقف المرور فيه تماماً، شَوّهت حديقته الخيام والاعتصامات، التي احتلت نصف الميدان، واتخذها الأفاقون والمراهقون، والبلطجية الذين يتحكمون في الباعة، والشباب أصحاب الضفائر، والرسامون، والشعراء، ممن صاروا ثوريين فجأة، وسيلة للتسلية، عارضون على أوراق مسطرة، كتاباتهم ورسوماتهم الرديئة، وأزهار حبهم، آملين في الشهرة، ولقاءاً ما مع إحدى القنوات، ولفت انتباه الفتيات، التي لا تجد حرجاً في الملابس الضيقة، والشعور المسترسلة، والجينز الممزق، والإقامة بالخيام، مع الرجال الغرباء، تأكل وتنام بجوارهم، مُظهِرة منحنيات وهضاب جسدها أمامهم، في تحدٍ سافر لكل ما تربينا عليه.

حاولت مرة التعقيب ساخرة على ما يحدث، فلم ترحمني "داليا" الحاقدة، انطلقت كلبؤة هائجة، قالت إن ملابسهم أقل سخونة من ملابسي، وما يفعلونه خاطئ حتى وإن كانوا يفعلونه في النور، لكن ماذا عن غيرهم، الذين يقومون بكل ما يقومون به، في الخفاء، احتددت عليها، وعلا صوتي، وكدت أسبها، لكني لاحظت أنها مغتاظة وثائرة، وكأني رميتها في شرفها، فهدأْت وأطلقت أول أسلحتي، ممثلة في ضحكتي العالية، المنغمة، المنادية، التي ألمح دوما في عينيّ حبيبي أنها تعجبه، حتى وإن تظاهر بالعكس، زدت فطلبت ممن يعرف عنوان أبي أن يخبره، كنت أرتدي "طاقم جهنم" كما تسميه شقيقتي، والذي لا يدع تفصيلة في قوامي إلا ويبرزها، من ساقي الطويلة المشدودة، بالبنطلون الملتصق بها، للبلوفر الذي يحيط بي ليخفي بدانتي قليلاً، ويظهر تناسق جسدي، رغم صغر ثدياي، واللذان أتغلب عليهما بحمالة الصدر العالية دوماً، والرقبة

المرتفعة، للجاكت الذى يمنحنى طولاً أفتقده، تذكرت والمرارة تملأ ضحكتى المجلجة قد نجحت فى اثارة كل مشايخ منطقتى، لماذا لا يلتفت لى من أريده ؟

❖❖❖❖❖

في فضاء الوقت الممتد ذاك، وقلة الأعمال والنقود، وانتظارنا المبالغ فيه لإحالة القضية للمحاكمة، خطر لي خاطر أسرعت بتنفيذه، "شريف عيد" جارنا في محل العصير الذي ذكرنا اسمه وطلبنا شهادته، فلم يهتم أحد ولا حتى باستدعائه، اشترط رئيس مباحث الزاوية، الذى يقيم المتهم في دائرته، طلباً من قسم مدينة نصر، الذي بدأت عنده الجريمة، فاشترط هذا إذناً من وكيل النيابة، الذي طلب تحريات مباحث مدينة نصر، التي لم تُكتب بعد، تبادلوا كلهم نوعاً من الكبرياء الغريب، والكرامة المترفعة، أيهم يمكن أن يستجيب للآخر، ويشعره أنه أعلى موضعاً، أو أشد وطأة، والحقيقة تضيع أمام ناظري، والقضية فارغة، والأوراق خاوية من أى دليل مادي، أو شهادة ملموسة.

"شريف" ذاك كان حانقاً منذ البداية، وغالباً كان أحد من هاجمونا، إن لم يك زعيمهم، ذهبت إلى شقيقه معاتبة وشرحت له الوضع، المحل ملك للعائلة، وقد ورثوه عن أبيهم صاحب السمعة الطيبة، والسيرة الحسنة، شكواي أمام العيان، وفي وضح النهار، والناس لم تنس ما حدث المرة السابقة، بمجرد ظهوري التفوا سريعاً حولي، من حيث لا أدري، وسألوني عن أحوالي، وما وصلت إليه قصتي، طمأنتهم وشكرتهم ولم أقص شيئاً، دلفت للمحل مدعية احتياجي له في شأن خاص، وطلبت منهم الانتظار خارجاً.

رغم هدوئى - وربما بسببه - وتحكمي في نبرة صوتي، والجيران المتجمهرة بالخارج، المستفهمة، المنتظرة لأي إشارة، امتقع وجه محدثي، وصار حائل اللون كخرقة قديمة، ازرقت شفتاه، تصلب جسده، وتوترت حركاته، قال إنه سمع بالقصة، لكنه أقسم ألا علاقة لهم بها، أخيه مستهتر وطائش، لكن ليس لهذه الدرجة، طلب رقماً ما وبدأ الحديث معه بسببه ولعن جدوده وسأله الحضور فوراً، فهمت من تطور المكالمة أنه شقيقه، أنكر محدثه التهمة إنكاراً كاملاً، بل وطلب إعطائي صورته على الهاتف لأتأكد ممن عاشوا الحادثة، قال أنه سيتقدم للبوليس بنفسه، إن ثبت أنه كان ضمن من هاجمونا، شكرته على وعد بلقاء، لكن "داليا" نفت أن يكون أحدهم أو قريباً منه، وبرأت ساحته، لمَّا رأت صورته، عدت للمحل، منيبة ومعتذرة، ومستعينة بأقصى درجات الصبر، قابلني بشخصه لمَّا اطمأن، رحب بي كثيراً وتفرس في وجهي بقلق، كان من الواضح أنه لازال خائفاً، أعاد القسم بألا علاقة له بالأمر، وأنه لا يعرف شيئاً، أخبرته أني أصدق نصف كلامه، وأنه لم يك معهم، لكن ابنة منطقته أُهينت بسببه، أطرق إلى الأرض صامتاً للحظات، قبل أن أهاجم كانت عقدة لسانه قد انفكت، طمع في البداية، ثم تراجع لمَّا اقتربت الأمور من التجسد، أقر بمحاولاتهم معه، وطلبهم منه استدراجى، هاتفهم وقابلهم على مقهى بأول الشرابية مجاور لشادر السمك القديم، "محمد عبد الرحمن" كان معهم لكنه لم ينطق بحرف، كان واضحاً أنها أوامرهم، عرضوا عليه نقوداً إن استجاب لطلباتهم، وسألوه الصمت إن لم يفعل، سيشهد إذا استدعته المحكمة، لكنه لن يتدخل من نفسه ليدلي بشيء كما رجوته، ما دام البوليس لم يتوصل إليهم، ولا كلف نفسه عناء البحث، وهم مشهورون، ومعروفون بالإسم، هل أطلب منه أنا أن يتصدى لهم بمفرده ؟

أحمد رفعت

وأنا في انتظاره، أتأمل عبوس "سهام" ووجهها المقلوب، ضيقها وتلهفها على المصيبة القادمة، تذكرت والمرارة تملأ حلقي، زوجتي التي استعطفتني وحلفتني بكل ما هو ثمين وغالٍ، بكاؤها وصيحاتها، وانحناؤها على قدمي لتقبلها، وأنا أدفعها بهدوء حيناً وبعصبية أحياناً، وهي تصرخ أن الفتى لم يكن يقصد، وأن الأمور خرجت منه عن السيطرة، وأنه طلب منهم عدم التعرض للنساء، فسبّوه ودفعوه في كتفه وصدره، وهدده أحدهم بسلاح، أنها امرأة وحيدة ويتيمة بعدي، وأبوها قد رحل عن دنيانا منذ كانت طالبة بالثانوي، أن ابننا مريض ولا طاقة لها على الإكمال بمفردها، ولا رغبة لها في الحياة بدوني، إن سُجنت، آخر توسلاتها أمسكت بكتفيها، أوقفتها على قدميها، مسحت دموعها، نبهتها أن أحداً لن يحترمني، لا في شركتي ولا في السوق، لن يطيعوا لي أمراً، ولن يخشوا لي جانباً، سيلتهمونني حياً ويتسلون بمصمصتي، ويتجرأون على هيبتي، لن أعدم وسيلة للرزق، لكني سأصير بنظرهم خائفاً جباناً خانعاً، لن يصدق أحد أنه ما من عدو لأواجهه، وأن الفتى مختبئ من هول وحماقة ما صنع، البوليس تكفل بفضحه لكن ليس بالقبض عليه، لست كذلك ولن أستطيع الحياة بتلك الطريقة، ومواجهة الناس، ليس هذا زوجك الذي تعرفينه، فلماذا تقبلين لي الدنية؟

غام وجهها قليلاً وبدا أنها قد اقتنعت، إلا أنها لم تستطع أن تتمالك نفسها، انهمرت دموعها أكثر وارتمت في حضني وهي تنشج، وتطلب مني أن أبتعد عن هذا الطريق، ذكّرتني بعطفي وتسامحي، وثقافة التجاوز التي

طالما دعوت إليها، أين ذهبت هذه المفردات، وعدتها خيراً بأجوبة مراوغة، وأغلقت الباب ورائي.

❖❖❖❖❖

كان أحد مساعدي "صبرى نخنوخ"، ومن الجيل الأصغر سناً من الملاكم الأول الذي ذهبنا إليه قبلاً، أتباعه الذين استقبلوني ومن معي، يظهرون في معظم الأفلام والمسلسلات كبلطجية، ومحترفي قوة وعافية، آثر أن أذهب إليه في الكافيه الذي يملكه في الهرم بما أنه التعامل الأول، رغم فخامة الواجهة الخارجية وموقعه المتميز على ناصية شارعين رئيسيين "بالطالبية"، شارع الملك فيصل الرئيسي، إلا أنه يبدو كماخور لتيسير اللقاءات، وعقد الصفقات، وتتوافر فيه فتيات بالانتظار، بشعورهن الصدئة ووجوههن الشيطانية، رغم جمال الملامح والتقاطيع، هاتفني أكثر من مرة ليتأكد من مجيئي، وانتابه الذعر لما علم أني بالداخل، تحدث مع مساعديه، وبدا واضحاً أنه يعنفهم، أقاموا لنا منضدة بديلة، واضحة للعيان، على قارعة الطريق، هاتفني ثانية وثالثة قبل أن يظهر بجسده الرياضي الممشوق، وسيارته البيك آب الفارهة، ويسلم بقوة واعتداد، ويجلس بجانبي صامتاً، ومتفرساً، بزاوية جانبية، ومن طرف خفي، قبل أن يطلب أحد عماله، ليسألنا ماذا نشرب، إما أنه يؤمن نفسه، ويتأكد أنه ليس كميناً منصوباً له من أحد أعدائه، أو أنه لم يكن يريدنا أن ننتبه للوضع بالداخل، خاصة وقد كانت "سهام" معي، بجوار "حمادة" و"حسين"، زملاء "شعبان" وأصدقائه.

استمع جيداً ثم رفض، ما أطلبه لن يقبل به إلا بلطجي غشيم لازال في بدايته، سيتعلم فيَّ، وسينتهي به الأمر إلى القبض عليه، وإرشاده عني، وإضعاف موقفي القوى جداً أمام القضاء، خاصة أني لست معروفاً في أوساط القوة العضلية هذه، ولا صاحب خبرة، ليوافقني أحد البارعين،

ممن يجيدون الفعل لا القول، في الأمر فائدة له لكن، اختطاف الفتى، ونقله بالقوة إلى مخزن ما، ثم حمله وتسليمه للشرطة، مع عدم ضمان ألا تتمكن تلك الأخيرة من القبض على المنفذ، إلا إذا رشونا من سيتسلمه منا، كل هذا يجعل القتل أسهل وأرخص وأكثر أماناً، سيصطاده في أقل من أسبوع، أياً كان مخبأه وإلا فإنه سيُنفذ مجاناً، إن كنت لا أريد هذا المسلك، وأصر ألا أصل لهذه المرحلة، فهو يؤيدني، القتل طريق بلا عودة، لكن عليَّ الانتظار، ستة أشهر وسيجيئك زاحفاً، قرر بثقة، وأعُجِبَ بنفسه لمَّا أخبرته أنها نفس وجهة نظر معاون المباحث، استطرد أنه سينفذ أوامرى إن غيرت رأيى، وهو معي على أي وضع، لا أحد يرفض بهجة الرزق والنقود، لكن هذا عمله، وأنا أبدو له من هؤلاء الذين يتركون كلاً لما يفهمه، أو أتقبل هذه الحقيقة على الأقل، سمعته التي لم يبنها هباءاً تقتضي تحذيري، ومثلي مشاكله كثيرة، وسأحتاجه مستقبلاً، ولن تكون علاقة قصيرة الأمد.

بعد انتهاء المقابلة السابقة، سألتني "سهام" بعبارة مقتضبة: ألن تقتله، أخبرتها أني لا أريد ما أندم عليه لاحقاً، وحتى لو نجوت الآن بفعلتي، سأكون قد اجتزت بوابة طريق مظلم بلا نهاية، وحين يأتى وقت الحساب، وقد علمتني التجارب وتقلبات الزمان أنه يأتى، قد أكون أكبر سناً، وأقل قوة، وأكثر عجزاً، مقيداً بالتزاماتي التي تزداد، ومشاريعي التي تكبر، ووضعي الذي يتنامي، ناهيك عن عذاب الضمير والأخلاق، لست مستعداً لقرار مثل هذا، بكل تبعاته، هذه المرة صمتت تماماً، وهي تسمع نفس الأجوبة، من شخص مختلف، يعمل بنفس المجال، أعلى أجراً، وأكثر شهرة، أقوى منطقاً، ويشرح بطريقة شديدة الوضوح، على وجهها مسحة غيظ، وهي تراني أترك لرجاله مئتي دولار، على سبيل التحية، ولوقته الذي

أهدره معنا، الأيام قادمة، وأحتاج لتكوين جيشي الخاص، والتحية لسيارته الفخمة، والتي على كثرة عملائي، من الأثرياء والمتنفذين، ومن يعملون في الصحراء، وشركات البترول الأجنبية، لم أرَ مثلها منذ زمن.

سألتها عما هي غارقة في التفكير فيه، فلم تُجِب، بادلتني التحديق ثوانٍ، قبل أن تشيح بوجهها، ثمَّة ما يغضب هذه الفتاة، ولعلها حادثة الجاكيت المخلوع، سأتولى مصالحتها فيما بعد، وبمفاجأة لا تتصورها، لكن القتل ليس أمراً أستطيع العيش معه، أو الصعود لآخرتي به، ومادمت مع ربي فلن يخذلني، سلَّمتُ أمري له سبحانه، وأيقنت أنه لا يريدني أن أتورط فيما قد لا أستطيع الخروج منه، وطالما أني لازلت بكراً، وأريد أن ينتهي الأمر بالمحاكم والقضاء، وأؤمن بعدالة قضيتي، فلأحترم نفسي، ولأترك لرجال القانون أن يقوموا بعملهم، أهو قرار لن أندم عليه لاحقاً ؟

❖❖❖❖❖

محمد شعبان

.الوجوه تغيرت تماماً عمَّن كانوا بجواري فى 28 يناير!

كان هذا هو تعليق "رفعت" لمَّا دخل بنا ميدان التحرير في بداية أحداث "محمد محمود"، دعوة ما للاعتصام وجدت صدى لدى الشباب فانطلقنا ليلاً بعد الانتهاء من العمل، أنا وهو و"داليا" و"سهام"، كانت تلك الأخيرة تسخر دوماً من كل الدعوات المشابهة، وتراها فراغاً وتضييع وقت، "رفعت" كان يرى الثورة ليست لعبة، وهي الأيام الثمانية عشر، التي لم أشارك أنا فيها، والخطأ الأكبر كان في ترك الميدان بعد تنحي "مبارك"، الآن الناس لم تعد تتحمل، واحتياجهم للمال والطعام، أقوى لديهم من الانشغال بالحرية، التي لم يعتادوها سابقاً، فلم يفتقدوها حالياً، وكل محاولات التصحيح بعد ذلك، أو إدراك ما فات، هي تضييع وقت، ومراهقة فكرية، وبحث عن وجاهة اجتماعية، ما لم يمكن الحصول عليه بالثورة مكانه قاعات السياسة، خلاف ذلك لن يتركنا أحد نستمر في اعتصام، أو ندعو لإضراب .

كنت في سبيلي لمناقشته عندما فوجئت بشاب ما، نحيل البنية، رث المظهر، يرتدي بلوفر أزرق بلا قميص، وبنطلون جينز ممزق، ويلف رقبته بكوفية، يتشارك الفقر والانتهازية في التقافز من وجهه، وصوته يعلو، مدَّعياً العصبية والحمية، متسائلاً عن معنى الوجوه التي تغيرت، وما المقصود بعبارته، هل الموجودون لا ينالون رضاءه، أم أن فقرهم يضايقه؟

علا الحياء وجه "رفعت" واحمرت وجنتاه، اتسعت حدقتاه ولم يعقب، شمَّرت "داليا" أكمامها وتأهبت للنقاش، وربما لافتراسه، لوت "سهام" شفتيها ورفعت أحد حاجبيها كعادتها عندما تستعد للسباب، على حين

بقيت أنا متفرجاً، باحثاً عن مدخل له، وجاهزاً لضربه، إنه يسعى لاكتساب زعامة على حسابنا، التف الناس حولنا كما أراد صاحب الصيحات الهادرة، بسطاء ومرهقين ولا مبالين، استمعوا إليه بهدوء، ألقوا نظرة عليه وعلينا، مطوا شفاههم وهزوا رؤوسهم، ثم انصرفوا بلا تعقيب، قبل أن نفيق من ذهولنا كانت الابتسامة الجانبية، الساخرة، المتشفية، قد قفزت إلى وجه "سهام"، واختفى الفتى، على حين بقى ثلاثتنا وكأن على رؤوسنا الطير، من قوة رد الناس بقينا صامتين لدقائق طالت، قبل أن يجمجم "رفعت" محنقاً بأن أمثاله لم يشاركوا في الثورة، وسيكونون سبباً في ضياعها، قال لي نفس العبارة سابقاً، فهل كان يقصده أم يقصدني ؟

❖❖❖❖❖

كنت قبل الحادثة التي تعرضنا لها، أدعو بجنون لحركة اسمها "تمرد"، من أجل العودة إلى الدولة المدنية العادلة، التي لا تبالي بأفكار أحد ولا ديانته، ولا وضعه في المجتمع، ولا يمكن لضابط فيها أن يعتدي على مواطن بأي حجة، حتى لو كانت تلك الحجة هي الأمن، خاصة بعد رفض الإخوان إلغاء المواد التي تمنع ذلك، وصلف ردودهم، ورغبتهم ضم الشرطة إليهم، وجعلها عصاهم الباطشة، في تكرار لما كان يفعله "مبارك" ورفاقه، بدأت مع الحركة وأقصى أحلامي إجبار "مرسي" على انتخابات رئاسية مبكرة، وأفقت بعد أحداث رابعة، فإذا بوالدة "اسلام"، زميلنا الذى أصر على اللحاق باعتصام "رابعة العدوية"، تستغيث بي مولولة، بلهجتها الفلاحية الحميمة، التي تقترب من لهجة أمي، أن ابنها لم يظهر منذ الأمس، ولا يرد على محادثاتها، لا هو ولا أي رقم ممن تركهم لها، وأنها لا

تعرف أحداً غيري بالقاهرة لتسأله المساعدة، يختلط في صوتها التوسل بالذعر والقهر، وهي تبكي وتطلب مني أن أحاول الوصول إليه، وطمأنتها عليه، خاصة والسكك الحديدية معطلة، والمواصلات الحكومية مقطوعة، والميكروباصات ترفض الحركة، وكمائن الشرطة العسكرية المشددة، تعيد كل من يتجه صوب العاصمة، ولا أحد يجرؤ على ركوب الطريق، في ظروف كهذه.

أغلقت معها الخط وأنا أرتجف، نظرت لصورتي في المرآة فوجدتني شاحباً ممتقع الوجه، أطبقت كفي قلقاً وفردتها لمَّا أحسست ببرودة أطرافي، قبل مكالمتها لم أكن أبالي مطلقاً، فإذا بها تنقلني مباشرة لخط النار، كانت هذه أول مرة أجبر نفسي بإرادتي على سماع ما تقوله الشاشات الأخرى، التي لا تلتزم بالروايات الرسمية، على الرغم من التنبيه المكثف "لإعلامنا" أن الآخرون كاذبون، وأننا في حالة حرب، وأن الحقيقة لدينا فقط، وما عدا ذلك هي مؤامرات كونية ضدنا، من قطر وتركيا وأمريكا وإسرائيل وإيران، لهدم الدولة المصرية، ما شاهدته أرعبني وشل تفكيري، لكني لم أك في حالة نفسية تسمح لي بأن أخطو باتجاه "رابعة"، أو ما يؤدي إليها، ورغم تحسن علاقتي بالفتى بعد حادث فيلّا الممثلة، إلا أن الفضل في ذلك يعود لـ"رفعت"، الذي جمعنا على مائدة طعام واحدة بعد المشاجرة، ولن يضيره في شيء أن طلبت منه أن يسأل عنه، خاصة وقد نقلوا الجثث، ومن استطاع الهروب من المصابين، إلى مسجد "الإيمان"، القريب من بيته.

هاتفته بكلمات مقتضبة، وحروف مختصرة، فيما يشبه الغمغمة، جعلني أعيد الكلمات مرة واثنتان، سألني عني وعن سر اختفائي كل هذه الفترة، لديَّ إحساس بالمسئولية، وربما العار، لم أوضح لكنه فهم،

استمهلني حتى يكتب البيانات، وأعاد عليَّ ملامح الفتى وأوصافه، وإن كان يتذكره جيداً، وعدني خيراً، وطلب مني معاودة الاتصال به ليلاً، أخبرته أني لن أفعل وسأنتظر أنا اتصاله، إن كان لديه أخبار جيدة، خلاف ذلك سأعتبر الأمر منتهياً، ولا داعي لخيبات أمل جديدة، لم يعجبه ردي ولا منطقي، لكن بما أنه لم يتصل بي، فإني أجزم هذه المرة أنه اقتنع به، وتفهم طريقة تفكيري، لم يعد يتهمني بالجبن، ولا أن الفقر والخوف شلّا تفكيري، مثلما كان يفعل في كل نقاشاتنا السابقة، حينما كنت أطلب منه التراجع، وإعادة النقود كاملة لـ"محمد عبدالرحمن"، هل فهم أخيراً أن الأمر يتعلق بالقوة القاهرة، التي تعودت أن أُعامل بها، في كل دروب حياتي

❖❖❖❖❖

أحمد رفعت

لا نريد معارك إضافية، ليس من مصلحة أحد أن يسقط مزيداً من الشهداء، أو أن يضاف إلى القائمة أعين مفقأة أو أضلاع مكسورة أو ملامح مشوهة، انتهى عصر الشعوب التي تحل أزماتها مع بعضها بالقتل والدماء، ففضلاً عن كونه تخلفاً وانحطاطاً، أي قيادي أو سياسي، أو حتى بلطجي محنك، يعلم أن نهاية كل معركة هي جلسة تفاوض، أي أننا بعد كل الحرب والضرب، سنجلس لنتناقش في أمور كانت منذ البداية لا تحتاج إلا للحوار، لسنا مقاتلين، ولن نبيع للناس فنون الحرب والنزال، ولا قليلي العقل، ولا نفتقد التبصر اللازم لما سيحدث، إن استمررنا في العراك، سنظل هنا بلا حركة حتى يرحل "مبارك"، معتصمين وفقط، هذا أقل كلفة، وأرخص ثمناً، وأكثر حكمة، من كل الحلول الأخرى.

كان هذا هو رد أحدهم عليَّ يوم 29 يناير 2011، أي في اليوم التالي مباشرة لدحر الشرطة، وتراجعهم حتى حدود وزارة الداخلية، وتدخل الجيش، واحتلال الثوار لميدان التحرير، عندما سألته عما ينوونه فيما هو قادم، عن الخطوة التالية بعد أن بدأت حفلات السمر، والنار الموقدة في العراء، والشاي الرائع الذي يتسلل مباشرة إلى التلافيف، والمصنوع على الأخشاب المتفحمة، واختفت كل المظاهر الثورية، كنت قد انسحبت بالأمس إثر كدمة قوية تحت عيني بعد أن أطاحت إحدى رصاصات الخرطوش أو البلى بزجاج نظارتي الطبية، وانحرفت عن البؤبؤ بملليمترات، بقيت أعاند لساعتين أو ثلاثة لكن أربع من أظافر قدميّ المنفصلين عن اللحم، من كثرة الكر والفر، وعيني التي لا أرى بها، والصداع القوي الذي أحس به، ورهبة انفجار الرصاصة في وجهي، وطنين

الرأس، وجسدي المرهق في الحادية عشر مساءاً، كانوا قد أخرجوني من المعركة فعلياً، وجعلوني مجرد رقم وسط الأعداد، وقذفوا بي إلى الصفوف الخلفية، وهو ما لا أحبه.

أسير ببطء وتأني، وأتألم في كل خطوة، وقد ثنيت كعبيّ حذائى الجديد، الذي اشتريته حديثاً، وتجاوز ثمنه المئة دولار، بأقدامي التي تحتاج صندلاً مفتوحاً، وأظافري التي تنز صديداً مع كل خطوة، وعيناي اللتان تتشوقان لمنظارهما الطبي، وعظامي التي تئن وتحتج طلباً للراحة، مستنداً على "داليا"، التي هربت بالأمس لمَّا بدأ الضرب، وجاءت اليوم بكل أقربائها وأصدقائها وزملاء الكلية السابقين، وقرروا تمضية الليل ساهرين، في عز برد يناير الثلجي، بلا مأوى ولا خيام، تاركين مراقدهم الوثيرة، وبيوتهم الدافئة، ومشروباتهم الساخنة، فداءاً للوطن والحرية .

❖❖❖❖❖

الشوارع شبه فارغة وبالجو صمت ورهبة وكأننا في مأتم عام، السيارات المارة كل عشر دقائق أقل من عدد أصابع اليد الواحدة، شارع "مكرم عبيد" الذي أتجنبه في أي وقت وأعتبره الأكثر ازدحاماً والأسوأ مرورياً في بلادي خالٍ تماماً حتى ما قبل مسجد "الإيمان" بأمتار، ما إن تصل لحديقة الطفل حتى يجب أن تترجل أياً كانت وسيلة مواصلاتك، سيارات دفن الموتى تحاصر الحواجز التي صنعها المنظمون، تقف على أطرافها وتنتظر شحنتها لكي تنطلق بها إلى مثواها الأخير، السماء مكفهرة ورمادية، والهواء مشبع بروائح الغاز المسيل للدموع، رغم أننا نبعد عن مكان الفض الذي كان بالأمس، بما لا يقل عن الألف متر.

أكاد أسمع صوت سريان الدم في عروقي، أسناني التي تصطك، نبضي الذي لا يهدأ، جسدي الذي يرتجف، أغالب ارتعاشتي وأمضي، واجلاً قلقاً مترقباً، للموت رائحة وأنفاس يراها ويشمها كل من يقترب، الصمت والأسى والكآبة هما العناصر الأبرز رغم صوت مظاهرة واهنة أمام باب المسجد، وهتافات بسقوط الديكتاتورية والحكم العسكري، الزحام خانق وغير طبيعي، وقد شقوا ممراً للنعوش المتلاحقة، واصطفوا عن يمين ويسار يرشّون كل جثة خارجة بقطرات من الماء، وهم يرددون الصيحات والتكبير، عُلّقت على الأسوار الحديدية الخارجية لوحات بيضاء ممزقة الأطراف، مكتوبة على عجل وبخط رديء، لكنه واضح، لأسماء من تم التعرف عليهم، الباقين لازالوا يبحثون عنهم، أو تم تسليمهم لأقربائهم، ورغم كل التوقع والاستعداد والتخيل فإن الصدمة الحقيقية تبدأ حينما تخلع حذائك، وتطأ بقدمك أرض المسجد، رائع التصميم، كثير الأعمدة، ذو المستويين.

عشت عمري كله أقدس الحياة البشرية، حتى ترددت أمام قتل غريم كان يجب أن يُقتل، فإذا بي أمام كل هذا الموت المجاني، الجثث متراصة بجوار بعضها، متزاحمة ومكدسة، يعلوها أكياس سوداء مملوءة بالثلج، تحميها من التفسخ، في حر أغسطس اللاهب، االمعطرات والمراوح والتكييفات التي تعمل بإصرار، لم تنجح في إخفاء روائح التعفن والرمية والتحلل التي صارت إليها الأجساد، المحروقون بارزون من أكفانهم دون أن أدري السبب، بتعبيرات وجوههم المذهولة، وأجسادهم المتخشبة، وآثار الصدمة والمفاجأة، هؤلاء المشطورة رؤوسهم، أو الممزقة جماجمهم، أو المبقورة أمعاؤهم، أو من اخترقته رصاصة هائلة الحجم، نفذت من الجلد إلى الجلد، بحيث صرت ترى ما تحته من خلال جسده، موضوعين على جانب

خاص، لمن يجرؤ على النظر، بعض الأكفان أصحابها ظلوا ينزفون حتى بعد الغسل تقريباً، إن كانوا قد غسلوهم، لدرجة أن دماءهم التي تخلفت عن جروحهم برزت من أكفانهم البيضاء، واختلطت بهوياتهم، التي ألصقت بالموتى، لكي يتم التعرف عليهم، أقرباؤهم الذين يجلسون قرب رؤوسهم، يقرأون عليهم القرآن، من مصاحف محترقة، أو يدعون لهم فى صمت، أو يتجاوز بعضهم فيبكي بحرقة، ليحيط به فوراً من يواسي ويهدئ، وينبه لعدم ارتفاع الصوت، اتباعاً للدين، واقتداءً بالسنة، ولكي لا يثير الباقين، فتتجدد أشجانهم، ويفعلوا مثله. أكمل البحث صامتاً، وأسير في دوائر مفرغة، وأجوب المسجد دائرياً، مرة واثنان وثلاثة، ومع ذلك لم أصل لجثة الفتى، توقفت وبدا أنه لا يوجد بارقة أمل .

تفقد الكلمات معناها حين تتكرر، والإنسانية لا يمكن تعليمها، التاريخ يعيد نفسه، والوضع يبدو مشابهاً لما حدث في "تشيلي" السبعينيات، ثم في باقي دول تلك القارة المنكوبة، أتذكر يوم 28 يناير، في عز الضرب، أمام الجامعة الأمريكية، في الشارع المؤدي إلى وزارة الداخلية، والشرطة تصلينا من نيران بنادقها وخراطيشها ورصاصها المطاطي، وقنابلها المسيلة للدموع، وأنا أبحث عن مخرج من هذا الجحيم، الذي كاد يذهب بأنفاسي، كنت أتساءل عما فعله الثوار الفرنسيين في وضع مشابه، وهم يحاصرون سجن الباستيل، منذ مئتي سنة، الآن أتساءل عن دولة صغيرة في أمريكا اللاتينية، منذ أربعين سنة، أو التونسيون، منذ أيام قلائل، متى سيتساءل أحدهم، عما فعله المصريون، في مثل هذا الموقف ؟

❖❖❖❖❖

الخيــانـة

- لا نملأ عينه يا ابنتي.

أفقت على عبارة أمي، وأنا أقبع بجوارها، في المستشفى الصغير، الذي أُجريت لها فيه جراحة في قرنيتها، صارت رويداً رويداً شبه عمياء، غطت بؤبؤيها غشاوة بيضاء، أضعفت قوة إبصارها في البداية، ولم أجد لها مكاناً بأي مستشفى حكومي إلا بعد ثلاثة أشهر، أخبرونى أنها حين تصل لدورها على قوائم الانتظار، يمكن أن تكون العملية بلا فائدة، فاستنزفت مدخراتي، وسحبت ما أودعته بالبريد، وأجريتها بمستشفى خاص، امتص كل ما معي، ولا زال يطمع بالمزيد، أخفيت الأمر عن حبيبي وكل زملائي بالشركة، حتى لا تسألني "داليا" ساخرة، بصوتها الرفيع، وطريقتها المستفزة، عن استعدادي للتشاجر مع إدارة المصحة حول أجرهم المرتفع، وأسعارهم المتضخمة، وتفاصيل العملية الصغيرة، التي يسرقونني حرفياً في كل خطوة فيها، لكن ليس مع الدولة، التي تضعني في موقف مثل هذا.

انتبهت أنها تراقبني، بعينيها التي لا زالت كليلة، ونظراتها المشفقة، وترثى لحالي، ولقسوتها معي أحياناً، تلك المرأة التي أدين لها بأشياء كثيرة، إنها أحب خلق الله إليَّ، ولولا صمودها وصبرها لما استمر بيتنا، ولو أمضيت عمري كله تحت قدميها لما أوفيتها حقها، لكن يبدو أني سرحت قليلاً مع أحزاني، كان الضغط منهم قد بدأ يزيد عليَّ، وتشاجرت مع شقيقتي لسبب تافه لا أدريه، ففوجئت بها تعايرني برجلي الذي لا يريدني، شقيقتي تلك أصغرنا، وأحلانا، وأكثرنا بياضاً، وعوداً متناسقاً، وشعراً ناعماً يملكه ثلاثتنا، ورثناه عن والدينا، وقد كنا نتوقع لها جميعاً زواجاً سريعاً للمؤهلات السابقة، لكنها أيضاً أكثرنا وقاحة وتدللاً ولساناً منطلقاً، وهي

خريجة نفس المعهد العالي الذي درست فيه، ظلت ترفض وتتمنع وتنتقد وتُقيّم حتى وصلت الخامسة والعشرين بلا زواج، فبدأت حالتها النفسية تسوء، وكلماتها الرعناء تزداد وقاحة، وأعصابها المنفلتة تقترب من الانهيار، تقدمت في سوداويتها خطوة، حتى باتت تُخزّن الحقد، وتزرع الغضب، وتحصد الكراهية، أفقت يوماً فإذا بها تعايرني، بعينين مشتعلتين، وجبين مقطب، ووجه مكفهر، رغم أن البلاء واحد، لكنها عدتني أفوقها، إذ لديَّ من أتعلق بأهدابه، وأستعين على الأيام به، حتى وإن كان يراوغني، لولا خشيتي غضب أمي، وتجاوزي لأبي، وقد كنت أعد ذلك من الكبائر، لصفعتها على فمها، ولطمت وجهها، وانهلت عليها ضرباً وركلاً، خاصة وقد كان لديَّ من القدرة ما يكفي، لطيّها، ووضعها تحتى، والجلوس فوقها، لو أردت.

شقيقتي الأخرى، أوسطنا وأقلنا جمالاً، وأكثرنا اقتداراً، السمراء التي كانت تعمل معي فيما مضى، والتي تزوجت بمن أراده لها الله، بعد قصة حب عنيفة وفاشلة مع أحد أقطاب الشركة القدماء، ومنَّ الله عليها بالهداية فتنقَّبت، إثر حلم رأت نفسها فيه كذلك وهي نائمة، رغم أنها لم تكن يوماً من المتمكنين دينياً، واهتمامها العادي بالصلاة، مثلنا جميعاً، شقيقتي تلك، أخذتني إلى أحد المشايخ، ممن يديرون مكتباً للزواج، بعد أن تركت بياناتي لديه، فطلب منها إحضاري، لوجود العريس الملائم، لكنه لم يكن كذلك، على الأقل بما يتفق مع تطلعاتي، كما أنه بدوره لم يقبل بي، ولا حُزتُ رِضاه.

سرحت مع عجوزان على السرير المقابل، يعتني أحدهما بالآخر، ويترفق بها، يُطعمها وهي شبه غائبة عن الوعي، يناجيها بألحان قديمة عذبة، ويخاطبها بكلمات عاشقة، ويتلمس طريق الملعقة لفمها، يتأملها نائمة،

ويمسح العرق عن جبينها، ويساوي خصلات شعرها القليلة، يُسمعها من عبارات الهدهدة، ما لو قال لي حبيبي نصفه، لهويت بين ذراعيه، لم أشاهد أولادهما إلا مرة واحدة، مكثوا فيها نصف ساعة، ثم صرفهم الرجل التماساً لراحة أمهم وهدوء الجو المحيط، أو طلباً لانفراده بها واستمرار تغزله فيها، لم تكن تفيق من غيبوبتها، ولم تك بحاجة لمرضة من كثرة مكوثه معها، وملازمته لها، واعتناؤه بشأنها، كوكب القمر الذي أتيا منه، كيف السبيل إليه، وهل يمكن أن تمنّ عليَّ الأقدار بلحظات مثل هذه؟

من كثرة عشقي لـ"رفعت"، كنت أمارس أحياناً شبقاً مع نفسي كالمراهقات، أتخيلني معه في أوضاع حميمية وغرائزية، أو أراه في أحلام سعيدة وحسية، ولحظات شوق وانتظار لرؤيته، أستيقظ الفجر متقدة بالرغبة، مضطرمة من لهفة، أُبَرّد نفسي بوضوئي وصلاتي أحياناً، أتعجل النهار وأنفاس الصباح، أُعد طعامي على عجل وأنطلق لمكتبي قبل موعده، علَّني أجده هناك، أهاتفه مدعية احتياجي له في أي عمل، أحصى الدقائق حتى يأتي، وتمسك بي العصبية، ويتولاني الترقب، لست جميلة، ولا أملك جاذبية خاصة، ولا ملامح مبهرة، لكني لبقة ومتكلمة، وذات مظهر جيد، وملابس غالية، لا أجد في نفسي من القوة ولا الكفاءة لمناطحة خدم من ناطحتهم، أنا منظر داخل بدل، اختارها هو لي أول مرة، فعرفت طريقها بعد ذلك، وأضفت إليها لمستي الأنثوية، أنا معه حضوراً حامياً عظيماً، ومزاجاً رائقاً، وتعبيرات شعبية لاذعة، أنا به، وفي عالمه، ومع وجوده، فقط......................، يمكنني الحياة.

يدخل مصطحباً معه بهاؤه ونقاؤه وماضينا المشترك، أرتاح إثر طلتي في وجهه، وأعود لألملم زمام نفسي، يعاودني طيب المزاج والصوت الرنان

والضحكة المجلجلة، أشياء بدأت بفقدها منذ ذهابه لأبي يدفعه ضميره وخوفه من الحرام، ضغط العائلة عليَّ ومحاوطتهم لي وتدقيقهم غير المُجدي، في المواعيد والأماكن التي أذهب إليها، كلماتهم المصبوبة من رصاص، والتي بدأت باختراقي، لمَّا تأخر عن تنفيذ وعده، بفعل الأحوال المتوقفة، رفضه قضاء الليل معي، وطلبه أن أعود لمنزلي، لمَّا جئته بحقيبتي عشية الحادث مباشرة، بعد أن أبت أمي الذهاب للعمل أصلاً، خوفاً عليّ، فعاندتها، وجمعت ملابسي في شنطة، وذهبت إليه، فردني، وجدته وحده في المكتب يجتر أحزانه، لكنه أيضاً يريد أن يقهر نفسه أمام أى خوف داخلى يمكن أن يتسرب إليه، ابتسم ضاحكاً لمَّا أخبرته عن سبب حضوري، وربت على وجنتي وكأنه يحادث طفلة، هاتف أصدقاء "شعبان" ورجاهم أن يسرعوا، لم يأبه لنظراتي اللائمة وهو يسألني عما أود تناوله كإفطار، ولا حنقي المتزايد، تكرر الأمر بحذافيره مع عقد زواجنا العرفي الذي اشترط عليّ بعد كتابته أن أسأل دار الإفتاء، قبل أن يقربني، فرفضوا، وجاءت النتيجة بالسلب، قالوا أن مثلي لا تتزوج بدون إذن وليّها، وجدت "طارق" المحامي يخبرني ساخراً وهو يضحك، أنه قد مزق العقد، ولم أصدق إلا حينما سألت "أحمد" عرضاً، وبمنتهى البساطة لم ينكر، ولا حتى حاول الشرح، اعتبر ما قالته لي المؤسسة الدينية كافياً لفعل كهذا، دون الرجوع إليَّ، واكتفى بوعد غامض أن نتزوج لدى مأذون، أتبعه باصطحابي لأبي بمقر عمله، وإقراره برغبته في ابنته، وطلبه أن ننتظره قليلاً، إن أردنا، كان يتحدث من علٍ، وبلهجة فوقية، وفي أحاديثنا الخاصة القليلة، تلك التي كانت تأتي عرضاً وسط العمل، لم يخف احتقاره لأمي، وكم الغدر المتصاعد من عينيها. هل يعلم كم الصعوبات التي واجهتها لكي يستمر البيت، وأبي المعجب بشبابه ووسامته، ينفق

ميراثه على الخمر والنساء الغريبات، ويرفض في البداية أن يعمل لدى أحد، بعد أن باع نصيبه في المخبز، الذي كان يملكه؟

❖❖❖❖❖

أحمد رفعت

في الأيام التي سبقت عقدي العرفي عليها، كانت "سهام" قد وصلت إلى مرحلة من الهستيريا والغيرة والاهتياج غير طبيعية. صارت تخلع معطفها كثيراً في الأيام الأخيرة، خاصة كلما رأت "داليا" أو أحد البنات بفستان جديد أو بلوزة أو بنطلون حديث الموديل، تروح وتجئ بالبدي الداخلي الملتصق بجسدها، والذي يشف بوضوح عن تناسقه رغم امتلاءه. رويداً رويداً باتت تتطلع لما هو أكثر، تتعمد الاختلاء بي وأتعمد الذهاب والتجاهل. إحدى المرات وقد استعددنا للرحيل، كنت أتمم على مكتبي بالداخل وأغلق بابه، خرجت فلم أجد أحداً وسمعت صوت خرير ماء، ناديتها ففاجأتني خارجة من باب الأوفيس الصغير، الذي يلاصق باب الشركة مباشرة. البذلة هذه المرة بلا بدي داخلي ولا تي شيرت، مجرد فيست أبيض رائع مكشوف الذراعين. خلعت الجاكت فبدت تمثالاً للفتنة المجسدة، بقوامها الرائع، وذراعيها العاريتين، وحذاءها ذا الكعب العالي، الذي يشد جسدها، ويزيدها طولاً، وطرحتها التي تبرز خصلات شعرها الناعمة، والمصبوغة، وكأنها كانت تنتظر مثل هذا اليوم. تحججت بطبق تغسله في يديها، يقطر منهما الماء ورغاوي الصابون، لم أعرف هل أضحك أم أغضب، في كل الأحوال تجمد الدم في عروقي، وبهلع. اجتاحنى المنظر وشل تفكيري للحظة، بعد زوال الرهبة الأولى، سألتها عن الباقين، أجابتنى وفي عينيها نظرة مراوغة أنهم قد مضوا لتعجلهم، ولم ينتظروا توصيلي إياهم كالعادة، رغم أنهم كانوا يسخرون دوماً من عشقي للقيادة، وإصراري ألا أتركهم إلا أمام منازلهم، وطلب أحدهم مني يوماً، أن أرفع شعار التاكسي فوق سيارتي.

باب الشركة مغلق، والنظرات الصامتة الحائرة أعلى صخباً وأشد دوياً، من كل ما يمكن أن يقال، والتصرف في أمثال هذه المواقف ينبغي أن يكون سريعاً وحاسماً. طلبت منها أن نمضي، قالت إن لدينا عملاً لم يُنجز بعد. غمغمتُ بما لا أدريه من الكلمات، لكن بما يفيد بإمكانية تأجيله وتوجهت نحو الباب مباشرة، قفزت بخطوة رشيقة واعترضتنى، بالطبق في يدها، والصابون يقطر منه، بحيث صارت في مواجهتي مباشرة، بدا أنها قد ملت الانتظار، وضعت عينها في عينى، وطلبت مني بخفوت ونعومة، وبلا مواربة، أن احتضنها، فأخبرتها بوضوح ومباشرة، وصرامة، أن تكف عن الدلع. بُهتت وظهر في عينيها ما يفيد عدم التصديق، أزحتها بلطف، وأخبرتها أني سأنتظرها في السيارة.

عندما أغلقت باب المصعد، وبدأ تأثير ما حدث يخفت، تنفست بعمق، وفكرت جدياً أنها قد نضجت، وعليَّ أن أتحرك سريعاً قبل أن يتكرر الموقف، ومن يدري أي هراء سنصل إليه. في المرة الماضية حملت حقيبة ملابسها، وتركت بيت أهلها، وطلبت أن تبيت في الشركة بمفردها، كي تثبت لمن هاجمنا عدم تأثرها، وربما لكي أمكث معها بدوري، قبل أن أرفض، الآن أغلقت الباب، واعترضت سبيلي، وطلبت ضمها بوضوح، ما الذي أنتظره؟

ما إن جلست خلف مقود السيارة حتى هاتفت "طارق"، وطلبت منه أن يأتيني في أول مرة يخطو فيها للقاهرة، ومعه أحد تلامذته كشاهد، حتى لو لم أك مرتاحاً لهذه الخطوة، وتراكمات الفتاة لا تشي معي بخير، أنا لست مستعداً لحرب مع الله، أبارزه فيها بالمعصية، إنه سندي وعزي ونقطة قوتي، واعتمادي عليه لا نهائي، وظني فيه لم يخب يوماً، ونجاحي كله قائم عليه، فكيف سأتنازل عن سلاحي الرئيسي، ثم إن التجارب علمتني، أن

النساء دائماً أضعف على المدى الطويل، مهما احتوت نفوسهم على شر، ومن تبدأ منهم بخيانة، لا تجني إلا على نفسها، وحتى لو غدرت، وقامت بسفالاتها القديمة، وحركات الأفاعي التي تجيدها بالفطرة، فغاية ما ستحوزه تعاطف أولي، والباقي معروف، الشر في حد ذاته بريق مبهر، ثم ضعف وقصر مدى، ما بالي إن كان من امرأة، ولماذا أصلاً أفترض السوء، ولا أتوقع أن تكون الأيام قد أدبتها، وتجارب العمر قد كسرت سمها؟

❖❖❖❖❖

داليا الوكيل

أول دروسه لي كانت انضباطاً فائقاً وغير طبيعياً، القاعدة الأهم لديه أن المجهود والنظام يتفوق على الذكاء بما يستصحبه من غرور قاسي هو شخصياً معاناته، دخلت أولى شركاته وأنا في الثامنة عشر وتشربت كل مبادئي منه وربما زاد عليها صرامتي الشخصية بحكم تربيتي، لم أكن مجرد سكرتيرة ولا كان رب عمل، كان رفيق درب يرى نفسه بعد أبي وأراه أخاً أكبر لم تمنحنيه الأيام، سحبني لتدين وسطي بهدوء مادمت ألتزم بالصلاة وتغاضى عن لبسي الجينز والبناطيل ما دامت غير ملتصقة بجسدى وقال ضاحكاً إني سأكف عنهما مع الوقت، كان قديماً يفترض في الناس حسن نية أثبتت الأيام كذبها لكنها عمقت صورة الفارس داخلي، لم يسمح لي أن أحبه، وكان ينبهني كل فترة بلمحة ماكرة أو ملاحظة خبيثة، رأيته أصغر من أن يكون لي أباً ثانياً، لكنه تجاوز بي تلك المرحلة الخطرة من المراهقة وقلة المعرفة وفقدان الثقة بالنفس إثر انفصال والديَّ، تربيت على يديه بكل معاني الكلمة حتى أن جدية ملامحنا كانت متشابهة وإن كنت أفوقه عبوساً، لذا لم ترق لي أبداً "سهام" الناعمة بملامحها غير المريحة وملابسها الضيقة وأسلوبها الملتوي، قد تكون تحسنت قليلاً وصارت أفضل وأكثر استقامة في السنوات التي ولاها فيها أمور الشركة لكن العرق دساس، قد يكون ولاءها الأسطوري له في تلك الفترة سبباً لذهاب أي شك في إخلاصها حتى أني كنت أحسدها لكن سابق تجربتنا معها لا ينبئ بخير، كانت سليطة اللسان عليه منتقدة لعيوبه قادحة فيه، وكان يسخر بشدة عندما يبلغه ما تقوله، أو يتجاهلها بلا أي ضغينة شخصية، ويعتبر كلماتها تنفيساً عن العجز وقلة الحيلة، بل ويبتسم ابتسامته المغرورة

والمعتادة إذا كانت رسائلها على لسان الموظفين طلباً لحبه أو سؤالاً عن أسباب تجاهله إياها وعدم رؤيته لها، لم يعطها يوماً أكبر من حجمها فما الذي تغير؟

زاد الطين بلة مصارحتي إياه من غيظي، أنه فعل ما فعل وكتب الشركة باسمها خوفاً من مشاكل السوق، وإيصالات الأمانة التي يجب عليه توقيعها للقرية الجديدة، التي انضمت إلى قائمة القرى التي نشترى منها ونسوّق لها، اعتبرها نقطة تفوق لصالحها، حيث كان يرى دوماً المغامر يستحق، سألته بوضوح لماذا تزوج "منى" واكتفى مع هذه بالعمل، كنت أتخيل أني أعرف الإجابة لفارق المسافة الشاسعة بين الإثنين ففاجأني بأخرى مغايرة، قال إنه ملأ عقل الأولى وقلبها، لكنه ملأ عين الثانية ولم يجد مكاناً للخصلتين الأخريين، فأعطى كل واحدة ما أرادته، نبهته أنها لن تكتفي فابتسم ساخراً وقال إنها حاولت قبلاً، وأكثر من مرة، العمل خارج الشركة، وفشلت، وأن تجاربها، والعمر، وحفرها في قلبه بتوالي الأيام، ومركزها الذي وصلت إليه، وسمعتها في السوق، كل ذلك مما لايمكن التفريط فيه بسهولة، لم أهتم إلا باعترافه الصريح، أقسمت له أنها تسرقه لكنه لم يصدقني، كانت تفلت منها أحياناً عبارات تثبت تورطها فيما اختفى ثم تتراجع عنها سريعاً، لكنه لم يكُ على استعداد لسماعي، عشق صنماً صنعه، واستكان لنفاقها وخضوعها، وتخيل أن الأيام والبيئة التي وفرها لها كفيلة بصنع شخص آخر غير ما كانته طوال عمرها، نسى أنها دوماً كانت تتسبب في تطفيش أي محترمة تحاول شق طريق لنفسها أو إثبات جدارتها، لم يك يسمح بالعاريات في الشركة، ولم يبدأ الاستثناء إلا معها، لمَّا تجاوزت الثلاثين، أعلم أنها تكسب أرضاً جديدة كل يوم، وبقدر حبي وإخلاصي لهذا الرجل لا يمكنني أن أتصوره يوماً وقد اقترن بها،

جعلته يعدني أن يخبرني قبل أن يتزوجها لأرحل، كنت أتحدث بعصبية وصوت عالٍ وأشير بسبابتي وأنا أرتعش، رد ساخراً بأن ابنته الصغيرة الموظفة التي لازالت تحبو في السوق تهدده، أقسمت له بعمري وسنيني وقلة خبرتي أنه لن يكون الرجل والمعلم والفارس الذي عرفته إن رضى أن يربط اسمه بمثلها، نبهني بجدية وقد قست ملامحه أني غَيرى وحاقدة، وككل الطيبين لا أملك من الدنيا إلا حدة انفعالي، صرخت وزمجرت وتململت في كرسي السيارة، وخبطت التابلوه بقبضتي حتى أدميتها، وتفوهت بكل الشناعات اللازمة، ثم بكيت بغل وحرقة وانهمرت دموعي حتى ابتلت ملابسي، راقبني بعينين خاويتين وتركني حتى هدأت، نزل ليشتري لي آيس كريم من محل أحبه، لكنه رمقني من فوق كتفه بنظرة غادرة، أقسم أنه لو كان شخصاً غيري لخنقه بيده، ولو قبِلَ أن يسمع عنها ما تكره، سيسمع عني ولا يرد غيبتي أبداً، تأملته بعيون خاوية، أيقنت أنه لابد من تغيير الطريقة، زفرت وانتظرت حتى أتى بالمثلجات، استمتعت بالطعم الرائع وتركت نفسي أذوب فيه للحظات، أملت الكرسي قليلاً وألقيت رأسي للوراء حتى بدأ جسدي يسترخي، شرحت من خلف عيون مغمضة أن ما نحصل عليه قد يكفيه ويفيض لأنه بديل ضمن بدائل، لكنه لن يكفينا ولن نتقدم خطوة بهذه الطريقة، المنافقة المنتفعة أجادت تخديره وسيظل الوضع كذلك حتى الخراب، ما هي فيه شديد العظمة بالنسبة لها حيث لا عقل ولا أفكار باعترافه، لكنها أول القافزين من السفينة إن أحست بقرب الغرق، استشهدت بعبارة قديمة له عن أن معادن المحيطين بك لا تظهر إلا في الأزمات، ماضره لو انتظر الملف القادم ورأى رد الفعل وآثار الاحتكاك خاصة وقد صار متأنياً جداً ومعولاً على الزمن، في توسل أخير قفز بنظرة ذعر في عينيه، رأيتها من نبرات صوته،

سألته أن يخسف معها بحقيقة مركزه المالي الأرض، استعاذ بالله وقال أنه لا ينكر فضل مولاه، أنه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، تراجعت وطلبت فقط أن يخفي ولا يتحدث، أن يكف عن الإنفاق من المكتب على الشركة، وأن يلتزم بالقواعد الصارمة المتعارف عليها، حاول التماس الأعذار وتراجع تحت تهديد ناعم وضحكة عابثة لمَّا عايرته بخوفه، أطلقت تنهيدة حارة واعتدلت لمَّا انتزعت موافقته، احتفالاً بتراجعها المرتقب لحجمها الطبيعي طلبت منه قطعة أخرى من الآيس كريم، وبنفس المذاق.

❖❖❖❖❖

مر على السرقة شهران، عقب بيان 3 / 7 / 2013 مباشرة تم إعلان حظر التجوال، فتوقفت التجارة تلقائياً، والعقارات على رأسها، استغل أحد العملاء ويُدعى "زكريا عبد الفتاح مختار"، الشلل الذي أصاب البلاد، وانهيار الخدمات والمرافق، وتفشي السرقة وعدم الأمن، وسوء حالة "شعبان" النفسية، وقرب الانتهاء من تشطيب شقته، فطرده وأخذ المفتاح، حتى لايدفع باقي ماعليه، حيلة قديمة ومكررة وطرق مواجهتها معروفة، لكننا جميعاً كنا في أسوأ أحوالنا، ولم يبلغني الفتى إلا بعد حدوث الواقعة بأسبوع تقريباً، لخوفه مني، أو لإحساسه بالعجز والتقصير، توالي الضربات أقعدني وأشعرني بالقنوط، لم تعد بي رغبة للمقاتلة والعراك، على أن أتنفس وأعيد ترتيب أولوياتي، رأسي به ألف مطرقة، وللمرة الأولى أقر بأن الأمور تخرج عن السيطرة، أدرك أن أعمالي كثيرة، وأنه من الطبيعي أن أواجه المشاكل ولو بنسبة قد تعلو قليلاً في مثل تلك الظروف، لكني لم أكن يوماً الضعيف ولا المتراجع، مايحدث لا معنى له إلا أني رخو ومثالي، وأواجه الدنيا باللين وقت الشدة، والرفق وقت الحزم، وحيث فشل العقل والحكمة لا مناص من ضرب الأيدي ومد الأرجل، وربما إيذاء الوجوه والأجساد، كدت أعود للبلطجي الثاني وأعطيه بيانات العميل، نحن متفقان في الهدف هذه المرة، فلا قتل ولا دماء، ولا الأمور تستحق، لكن ما أجبرني على التراجع، بادرتين أرسلها لي ربي عوناً وتثبيتاً، وقد كنا في مدخل الشهر الكريم.

أعاد الفتى السيارة، وجدتها مصادفة وبلا مجهود، أمام شركة البترول العريقة، بمقرها الفاخر، بنهاية شارع عباس العقاد، وقريباً من منزلي،

ظللت لدقيقة أتأملها غير مصدق، على الرغم من الحالة المزرية التي صارت إليها، والخدوش والكسور والانبعاجات التي تملؤها، إلا أنها لازالت سيارتي، والأرقام الموضوعة خلف الزجاج تثبت ذلك، سألت حراس الشركة، فقالوا إنها هنا منذ خمسة عشر يوماً، وأن أحدهم صدمها يوماً، وظل يبحث عن صاحبها بلا جدوى، أرسل الفتى رسالة تهنئة في اليوم التالي، فعلمت أنه يراقب موضعها ذاك، كان يرسل لـ "داليا" رسائل الكترونية عديدة يضايقها فيها، ويتسلى برعبها، وتذكيرها بما حدث، يتسلل إليها على الفيس وتويتر، وينتحل أسماء وشخصيات مختلفة، يفاجئها بها كل مرة، فيتفاهم حيناً ويسبها أحايين، فلا تملك إلا إغلاق المحادثه، والخروج من الحوار، وهي تلعن عجزها، وعدم قدرتها على الرد والشتائم، مثلما تفعل "سهام" بمنتهى البساطة، لكنها من نبهتني، لقلة حيلته، وإحساسه بالورطة التي أوقع نفسه فيها، وتساؤله عن الكيفية التي يمكنه بها الخروج من المأزق.

بدأت أفكر أنه ربما سبقته الأحداث، واستغله الأشقياء، وأحنقهم عدم موافقتنا على سرقته، وأنه في الأغلب غر صغير، لم ينتبه ولا توقع، استعاد ذهني صرخات زوجتي وتوسلاتها، وهي تقسم أنه حاول الدفاع عنها، فضربوه وأهانوه، نسيت أو تناسيت طباع البشر، وطلبت من "سهام" أن تعرض عليه التصالح، وأن يسترد نقوده مقابل إعادة ما سرقه، هو ومن كانوا معه، وافق في البداية، ولاح الأمل في مخاطبة العقول والتفاهم، وكدت أستبشر خيراً، لكن محاميه رفض، ماطل وسَوّف، وعقد الأمور تدريجياً، وبهدوء، ثم طلب أن تكون جلسة التصالح في مكتبه، لأن القضية لا تهمه، وفارغة، وبلا أدلة، سوى تحريات المباحث المكتبية، وأن تكون في موقف المدافع، أسهل مئة مرة من أن تكون صاحب الحق،

وأبسط هفوة في الجنايات كافية للبراءة، وهو على يقين منها، عاد موكله بعد فترة لسب "داليا"، لمَّا لمحها صدفة في إحدى شركات المحمول، أخفى نفسه عنها، ثم فاجأها برسالته الإلكترونية الأخيرة، وفيها صورة من حكم غيابي ضد زوجتي، صدر في نفس يوم تنفيذه لجريمته، بات واضحاً أنه كان يُدرِكُ ما يفعل، وأنه ارتكبه بتخطيط مسبق، رأيته بغبائي خائباً، ورأيتني أواجه سفاهة لاتنم إلا عن خواء عقل، وفراغ فكر، وأن الثقافة التي أعتز بها، والدين الذي كان سبباً في تراجعي عن قتله، لا مكان لهما هنا، وهما كما كانت تقول "سهام"، أكياس رمل، تؤخر الخطو، وتعرقل المسير.

كنا نتشاجر كثيراً أنا وهي تلك الأيام، وفي سبيلنا للاختلاف الكبير الذي سنصير إليه فيما بعد، بسبب تعريفي للانقلاب العسكري، وعدم اهتمامها هي وأغلبية المصريين كما تقول، بمعنى الكلمة أصلاً، ماتقدر عليه أفعله، ولنؤجل كل الأسئلة التي لا محل لها الآن، هذا شعب لا يمكن قيادته إلا بالكرباج، لكنها لم تقل لي ماذا ستفعل مع "هشام"، الذي لا يرى لأمثالها مكاناً إلا تحت الكرباج، وما هي الإنتاجية المنتظرة من العبد، الذي سيتلقى السياط راضياً، طالما ستطعمه القليل، وتجعله ينام تحت أي وضع، وتوجهه وتقوده وتفكر له، تفحمني عن القانون الذي أريد السير عليه، وأخذ حقي به، فإذا بي دوماً في موقف المدافع المتخندق، وعن العلاقات والأقارب الذين لا أريد الاعتماد عليهما، وأنا أهاجم، فإذا بي في أشد الاحتياج إليهما، وأنا مضروب ومسروق ومهان، وعن شراستي وعدوانيتي وعنفواني، الموجودين في أصلاً، والمغروزين بالفطرة، ورغبتي في تجنبهما، وخوفي من عواقبهما، وترددي وإحجامي لمَّا اقتربت الأمور من القتل، حتى بات الحل الأسهل والأسرع والأقصر طريقاً، أنها ترى الموقفين

مختلفين، وكل منهما على جانبى نهر، وأنا أراهما مطردين، والأول أدى إلى الثانى، لكني لا أملك لها دفاعاً، وهي تسألني عن "شعبان"، المختفي بعد كل مافعلته له، وعن خطيبته، التي تتبجح سراً، بأني كنت أكتب على ظهر الروشته نفقات العلاج، لكى أعايرهما به، بعد أن منحتهما شركتي، بكل ما أنفقته عليها، لكي يقيما حفلهما فيه، وسيارتي لكي يزفوا بها، وحاسبته عن كل مقاولة بالنسبة وكأنه شريكي، بدلاً من أن أكتفي بمرتبه.

❖❖❖❖❖

منى اسماعيل

وقفت أجهز ساندويتشات الجبن الإيدام بالجزر المبشور ودوائر البصل والخس والطماطم والبنجر، لم أجد مخبوزات بالمكتب، وفتى الأوفيس غير موجود، ولا أحب تقديم كوب الشاي الصباحي بالحليب لزوجي بلا إفطار، أعلم أنه سيلتمس لي العذر إن لم أفعل لكن لطعامي مفعوله الذي لا يقاوم في ابتلاع التوتر وامتصاص القلق، خاصة ونحن على أعصابنا في انتظار هذا القادم لاسترداد عربونه، استعنت بكل ما وجدته في الثلاجة الصغيرة التي أحرص دوماً على عدم خلوها، إضافة لما أحمله في شنطتي من عينات صغيرة من تلك المتوافرة بالسوبر ماركت، صنعت الصلصة سريعاً لمَّا خلطت ملعقة كبيرة من العسل مع مثلها من الخردل، ثم أضفت إليها رشة ملح وفلفل، حتى أحتفظ بالنكهة الحريفة والملتهبة كما يحب، وضعت الخليط فوق الجبن والشرائح وسط شطيرتي توست، وأرفقتهما بالمشروب الساخن والماء، وأرسلتهما مع "داليا"، وأنا أطلب منها ألا تحاول مشاغبته كعادتها، ولا استفزازه، ولا حتى الحديث معه، وأتمتم بالابتهالات والدعاء إلى الله، أن يهوّن مرارة الساعة القادمة علينا.

كان "فريد بطرس نقولا" قد سمع بما حدث، عميل جار لـ "زكريا" في العقار، ومماثل في المساحة، استهواه ما فعلناه في شقة هذا الأخير، وأعجبه المستوى، فطلب منا تشطيب شقته هو الآخر، دفع عربوناً ولم يبالي بتأخرنا عليه، قال إنه يتفهم ظروف البلاد، وقد كان الحس القومي لدى كل الفئات التي تجاوزت الخمسين، عالياً جداً تلك الفترة، خاصة وقد أعلنت الدولة عن أكثر من مشروع قومي قادم، فلم يبال الرجل، وأعلن أنه سوف ينتظرنا لأبد الآبدين، الشقة مخصصة أصلاً لابنه الطالب في السنة الثانية بإحدى الكليات، فلا داعي للعجلة، وهو يهوى شراء الشقق

وتركها للزمن، أو المتاجرة فيها، شقته 175 متر مربع، لذا لم يسبق "لأحمد" لقائه، ولا الاتفاق معه، ويكاد لا يعلم به إلا سماعاً، كان قد ترك لي المشاريع الصغيرة أمثال هذه، فانطلقت بحملة دعائية على النت، واتفقت معه أن يساعدنا قدر المستطاع إذا احتجناه، وأن يتولى هو الفيلّات أو المساحات الكبرى إن صادفني، كنت أطمع في أي دخل إضافي، ومعظم ما نربحه ينفقه على مشروعات الساحل الشمالي، أو يشارك في قطعة أرض صغيرة، أو روف مميز، فلا يتبقى لي بعد مصروف البيت إلا الفتات، وأجدني بعد كل هذه الفترة والبراعة، أقيم في شقة صغيرة نسبياً،، بحمام واحد، وريسبشن قطعتين، وأطفالي تكبر، وأثاثي ضخم، والحاجة إلى مساحة أوسع تزيد، وزوجي لا يهتم، ويطلب مني أن أحمد ربي، وأشكر نعمتي، فالمساحة التي أنا بصددها، حلم لكثيرين في الوقت الحالي، إني حامدة وشاكرة، وقد يكون صادقاً، لكن العمر يجري، وأمثالنا قطاع خاص، عمل حر، ليسوا موظفين، بلا تأمين ولا معاش، ماذا سيتبقى لنا غداً إلّا ما نصنعه حالياً، نجحت حملتي، وانطلقت من مشروع إلى آخر، باعتماد شبه كلى على "شعبان"، في المعاينات والحرفيين والعمالة، حتى وقعت الحادثة، وتصادفت مع الانقلاب، فتوقف كل شيء.

لما علم "فريد" من جاره بما حدث، وهم بمشاطرتنا الأحزان، فوجئ بالأخير يخبره، أنها فرصة ذهبية للتملص منا، وإلغاء التعاقد، مع عدم تحمل أياً من تكاليف ما نُفِذَّ فعلاً، والهروب بأكبر فائدة ممكنة، كان يغمز له بعينه، ويكلمه بوسطه كعادته، عندما نظر له في سخرية وإشفاق، على حد تعبير حارس العقار، الذي كان شاهداً على لقائهما، وقص عليَّ ما حدث، أكمل أنه مط شفتيه، وأولاه ظهره، ومضى بدون أن يعقب.

حدد معنا موعداً، توقعنا فيه أن يلغي تعاقده ويسترد عربونه، لتأخرنا، لم أنبس ببنت شفة، عندما أخبروني، جهزت له نقوده، وانتظرته بحسرة متزايدة، أتى في موعده تماماً مصطحباً ملاكاً ذكّرتني بأستاذة اللغة الفرنسية في مدرستي الثانوية، وبشاب صغير قريب الشبه به، قدمهما على أنهما زوجته وابنه، هل يتوقع مشكلة معنا، ويتهيأ لها، بادرني قبل أن يسمع اعتذاري بشنطة صغيرة كان يحملها بيده، قال أنه يدرك الظروف، ويعلم أن الشركات تمر عليها مراحل صعبة، في أوقات معينة، ترك خمسين ألف جنيه تحت الحساب، غمغم بمنتهى الخجل أنه نائب مدير بنك، ويتعامل مع الناس منذ صغره، ويدرك بوضوح من نحن، رغم قصر المدة، وندرة اللقاءات التي جمعته بنا، اعتذر عن قلة المبلغ الذي قدمه، لكنه ما استطاع جمعه، وسط الدهشة والترحاب والمفاجأة، أقسمت له بكل المقدسات أنه ليس ثمة أزمة، والنقود بحمد الله متوفرة، قال أن هذا جيد، وفرصة لكي يضع مما عليه جزءاً، ويتخلص من ثقل الأقساط القادمة، رغم أنه لم يوقع عقداً، ولا بيننا وبينه إلا كلمة، كان "أحمد" في مكتبه ينتظر رحيل العميل، لمَّا أرسلت له "داليا" بعد أن حدجتها بنظرة ذات مغزى، ففهمت الرسالة وانطلقت لتوصيلها، كانت، مثلي، ترفض بشراسة اتفاقه مع البلطجية والإحباط الذي صار إليه، أيقنت من نجاحها لمَّا خرج لشكر تلك الهدية السماوية، تبادلوا التحايا المعتادة سريعاً، وفوجئت بزوجي يخبر الرجل أنه مضيء الوجه بشكل غير طبيعي، ويفوق ابنه الشاب وسامة بمراحل، رغم تجاوزه منتصف الخمسينيات، على الأقل، ضحكنا، ضحكة صافية أفتقدها منذ فترة، وسط كل الكآبة التي نمر بها، قال إنه أيضاً كذلك، مع فارق العمر، وربما لهذا بعثه الله إليه، تآلفا، صارحه أنه لا يعمل بالمساحات الصغيرة، ولم يعتد عليها،

لكنه إكراماً لما فعله سيبدأ فيها قريباً، وبتصميمات مجانية، تصافحا بقوة وفي لمحة خاطفة عاد لزوجي ألقه الذي أعرفه، بدأ صداقة ستمتد لما بعدها، لكن التوقيت هو أهم ما فيها، عندما التفت ثانية "لداليا"، لم أحدجها بأي نظرة هذه المرة، تنهدت بارتياح، وغمزت لها مباشرة، كانت سعيدة، وكنت أسعد، كنا نحاول تأجيل المقدور، لكنه، من فوق سبع سماوات، كان له رأى آخر.

❖❖❖❖❖

كان يقول دائما إن القرى السياحية لا تقيم اقتصاداً ولا إسكاناً، وإننا لانعمل في مشاريع فعلية، وكنت أتعجب من هذا المُرفه المغرور الذي لايدري شيئاً عن العالم الخارجي، أطلب منه أن يحمد الله، فيصمت عندما أرهبه من منطلق ديني كما يقول، ها قد جاءت ثورته الملعونة فأطاحت بالنعمة من أيدينا، وبدأنا نتجه للمشاريع السكنية، وبجودة عالية، وأسعار أقل من السوق، وهو ما سبب لنا فيما بعد أضراراً لا حصر لها.

حاولنا العودة للتجمع الخامس حيث كانت انطلاقته الأولى منذ ما يربو على السنوات العشر، فوجدناها قد امتلأت، وصارت قطع الأراضي شحيحة وغالية، بمفهومه الاشتراكي ذاك الذي مازال يتملكه اتجهنا للشروق، حيث المستقبل والإمكانات الواعدة والأسعار الأقل حدة، والتي لم يتمكن منها السماسرة وتجار تسقيع الأراضي بنفس الدرجة التي فعلوها بالتجمع، ترك لنا الأعمال الصغيرة وبيع الشقق في العمارات التي يشارك فيها، وتفرغ هو لفيلّات أصحابها كانوا قد ابتاعوا منا فى الساحل أو السخنة، أو لكومباوندات يطلبه بعضهم فيها بالإسم، ويريدون منه الإشراف عليها، وتسليمها وفق ما يشاء ويهوى، كنت أفضل أن أتعامل على أيٍ من ممتلكاته، حيث العقار ملكية خالصة، ونوعية العميل مختلفة، والبيعة صعبة وثقيلة، لكنها مبهجة، عقد واحد منها بثلاثة مما ألهث ورائهم الآن، لكنه بأفكاره الطوباوية تلك، وبمعتقداته الإنسانية التي لا مكان لها على أرض الواقع، وبإيمانه بمستقبل أفضل للبلاد كما بات

يقول، منذ "يناير" المجيدة، كان سينحو بنا النحو نفسه، فطاب لي الصمت، وصادقت الخرس، وأطبقت لساني داخل فمي.

الآن وقد صرنا في قلب المعركة لم يحدد لي طريقاً أسير عليه، ولم أره يتخذ رد فعل واضح، فلا نحن قتلنا الخصم، ولا البوليس ألقى القبض عليه، ولا هو وافقني على تعذيب إحدى العاملات لدينا واستنطاقها، والتي كنا نشك أنها عشيقة "الغرباوي" وقد زرعها وسطنا، فاكتفى هو بطردها بلطف، بضغط من المثالية الحمقاء، وزاد الطين بلة هروب "شعبان"، واختباؤه، والرعب الذي صار إليه، ونقود المقاولة الخارجية التي لم يرسلها إلينا.

إحدى العميلات لم تتحمل أسعارنا ومستوى جودتنا، وقد كانت رغم سجائرها وملابسها الفاخرة، إحدى الغلابة اللواتي يعمل أزوجهن بالخليج منذ فترة، وتزوج أولادها، واعتادت الأمر، أقصى ماتملكه هو شقتها بمصر الجديدة، والتي تريد تغيير ديكوراتها، لكنها لا تملك ما يكفي لكي تُنفّذ أفكارنا، أو تتعامل مع شركات، طلبت "شعبان" كمُنفذ بشكل سري فاستأذن حبيبي الذي ولدهشتي لم يعارض، اكتفى بتنبيهه لخطأ ما يفعل، أعاره الأدوات والأجهزة مقابل نسبة ما، ووعده أن يمده بأفكار مساعدة، إن سمح له الوقت، لكن لمَّا وقعت الحادثة، واعتكف الأول بمنزله ولم يعد يأتى، طلب مني حبيبي أن نذهب إليه، ونحاول إخراجه مما هو فيه، ولا نضغط في مسألة النقود، اتسعت عيناي من دهشة ومن غل، سيترك له عشرة آلاف جنيه على أقل تقدير، وفي ظروف مثل هذه، ونحن متوقفون عن العمل، هلا نبهه أحدهم أني أولى؟

كنت أتحرك والغيظ يملأني، والحارة تقودني إلى حارة، في طرق لا يمكن رصفها، لأن المعدات الضخمة اللازمة أعرض من أن تدخل هنا، واهتزازها

كفيل بإسقاط المباني والمقابر المقابلة، والحر يعوقني، والهواء العطن يمنعني من التنفس، والدلال الذى صار إليه الفتى، وعدم الإحساس واللامبالاة، والتكبُّر على عمل تقاضى عنه نقوداً مسبقة، يقتلني، وقد انعكس ذلك في طلتي الأولى عليه، وطريقة سؤالي عنه، إثر مقابلتي والدته، وأنا بيني وبين نفسي أتوعده، أعلم أنه يخشاني، ويدرك مدى الجنون الذي يمكن أن أصير إليه، أنا أو "داليا"، التي ترافقني، لكن نظرة واحدة عليه، وقد نمى ذقنه، واستطالت لحيته، وتمكن منه السُهد، وبدا الإرهاق واضحاً تحت عينيه، وعرفت الهالات السوداء طريقها إليه، السجائر لاتغادر فمه إلا لتفسح مكاناً لأخرى، يمجها مجاً، وكأنه يمتص معها دمائه وأعصابه، ذلك الذي كان دوماً، ضاحكاً ساخراً مردداً لأسوأ الأغاني الشعبية وأكثرها قذارة، منشغلاً بعرايا الكليبات، ومغازلة النساء في الشوارع، متعجلاً يوم زفافه، ذلك الهيكل العظمي ذي السيقان الرخوة، والوجنات الغائرة، والعظام البارزة، والساعد المهزوز، والجسد النحيل، ذلك.. الذي صار إليه، ماذا سأفعل حتى بتهديده؟

جلسنا نتفاهم، واستخدمت كل ما أوتيت من قوة إقناع، وكل الأساليب التي أعرفها أو أحدسها، والتي تكونت على مدار العمر، كان مصدوماً من كل الاتجاهات، سأل وتوصل إلى البلطجية الذين فعلوا به ما فعلوا، أرسل أشقاءه من يراقب "أحمد أبو النصر" في المقهى الذي يمكث به، لكنه لم يعثر عليه، الشرطة لم تحرك ساكناً للتحري عنهم، ناهيك عن القبض عليهم، محامي جاره أكد له أن القضية ضعيفة والأوراق خاوية، وخصمنا صدر له حكم غيابي ضد "منى" في نفس يوم تنفيذه لجريمته، وبراءته شبه مضمونة، شعر بالإحباط، وخاف من العمل، ومن أن تطأ قدماه الشركة، خُيّل إليه أن الفتى يراقبه وينتظره وسيتربص به، طرده "زكريا مختار"

مستغلاً خوفه وهلعه الذي صار إليه، واستولى منه على المفتاح، ولم يجد مغيثاً ولا زميلاً يلجأ إليه ليساعده، والشركة قد توقفت تماماً، وجلسنا في بيوتنا، انتظاراً لما سيتمخض عنه الثلاثين من يونيو، خشى إخبارنا حتى لا تتدمر سمعته تماماً، ولم يُعلِم أحداً إلا زوجة حبيبي، التي كانت أقربنا إليه، بعد أسبوع تقريباً، مما أضاع علينا أي فرصة للرد السريع.

في محاولة منه للنسيان، أمضى وقت فراغه يدعو بجنون لمنظمة اسمها "تمرد"، ذهب إليهم في كل تجمع دعوا إليه، وقَّع لهم مئات الاستمارات بأسماء مختلفة، حارب منتقديهم ومخالفيهم من المتدينين والإخوان، واستخدم سخرية يجيدها، فى إصلائهم نيران لسانه، ونعتهم بالخراف، وسب تنظيمهم، وإطاعتهم للأوامر، والهيراركية المقدسة التي لا يحيدون عنها، ساعد بالمال والتأييد، على الفيس وتويتر، وفي المؤتمرات، حتى تفجّر الخلاف بين رئيس تلك المنظمة ونائبه، عن أموال ما تقاضاها أحدهم من المخابرات، ليمهد لما حدث بعد ذلك، كان يشعر بالخديعة، ويردد ما كان يقوله له حبيبي، أنه وأمثاله لم يخرجوا فى "25 يناير"، وسيكونون سبباً في هدمها، مالنا والسياسة، وما الذي جنيناه منها؟

بدورها أعادت العميلة ما قام به كله لعدم وجود تصميم مسبق، وكافأته بوجبة غذاء في مطعم فاخر، استغلته أبشع استغلال، متعللة بأن ما نُفِذَ ليس ماتخيلته، رغم أنها من اختارت الموديلات، هدمت السيراميك ووحدات الإضاءة ولم تبالِ باعتراضاته، كونه يعمل منفرداً، مسح لها الأرض بعد أن أنهى العمل حتى تعطيه أجره، وأقر بالجزء الذي يخصنا لكنه أنفقه، وسيرده في أقرب فرصة، إستفز رفيقتي فسألته عن نوع السجائر التي يدخنها، وعمله الذي يهرب منه، وخطيبته التى اعترضت على المصروفات المكتوبة على ظهر الروشتة، وكأنها موجهة إليهم، عن "محمد

عبد الرحمن" الذي أقسم لها أنه على تواصل معه، عما فعله معه حبيبي والذي لن يفعله أي شخص أخر، فإذا به يرده بهذا الجحود، صمت وألقى بنظره للأرض، غمغم من بين أسنانه أنه لا يعرف إن كان سيستمر مع خطيبته أم لا بعد فقدانه عمله، لكنه لا يستطيع أن يخطو ناحية الشركة ثانية، لايرى نفسه رجلاً، ولم يحافظ على النساء اللائي كن معه، تملك منه الخوف فَشَلَّ إرادته وأفقده كرامته، قطرات دموعه تحولت إلى أنهار وأردف في هياج أن آخره العمل في شرم الشيخ، وانتظار البقشيش، هدأته قبل أن يسترسل، وزجرتها بنظرة معادية، طبقتنا لا تفكر بهذه الطريقة، والمثاليات التي تتحدث عنها لا نفهمها، استأذنا في الرحيل على وعد بلقاء، ذلك الرابض في قلب المكتب هناك، بأي نور كان يرى؟

❖❖❖❖❖

داليا الوكيل

لمَّا بدأوا في تعذيب الفتاة وعلت صرخاتها يممت وجهي شطره. مسرعة الخطو مبهورة الصدر متقطعة الأنفاس ركضت الخطوات التي تفصلني عنه، كان يقف أمام السور العالي في نهاية المساحة المفتوحة، بجوار أحواض الزهور المضاءة بخفة ونعومة، والعابقة برائحة الفل والياسمين، يوليني ظهره ويتحجج ببعد المسافة وكأنه لا يدري ما يحدث بشركته. كنت أسمع صوت حذائي وهو يدق الأرض بغضب جندي كعادتي دوماً وأبطأت لمَّا وجدته يرتعش. كان رائعاً في عزلته كملك سقط عن عرشه، وجهه المكفهر لازال يفتر عن تعبير حلو وصاف لم يكن له غيره، حتى في لحظة كهذه. أدركت حجم معاناته لكني لم أستطع التوقف، اتهمته أنه لم يعد كما كان فطلب مني الخرس أو المغادرة هاربة كما أفعل في كل مشاجرة. رددت بأني لن أفعل، وسيتوقف ما يحدث وسنطلب الشرطة ونسلمها لهم، وليقوموا بعملهم. قال بأنه فعل مرتين، وفي الثالثة قالوا له إن القوات مشغولة بفض المظاهرات. بُهِتُّ ثم تمالكت نفسي، سألته مستنكرة:

.فقررت أن تفعل كل ما كافحت ضده سابقاً؟

.الناس في بلادي تحب القوة القاهرة.

.الجهلاء في بلادي هم من يفعلون.

. أساتذة كلية الطب يؤمنون بالكفتة التي تعالج الإيدز وفيروس سي في نفس الوقت.

.البيئة التي جعلت هؤلاء أساتذة هي السبب.

.وتريدين مني أن أنتظر حتى تتغير البيئة؟!

. أن تثبت بالدليل الحي أن تجربتك ناجحة، وأن القانون كافٍ لانتزاع الحقوق.
.قولي ذلك "للغرباوي".
.أعطني الفرصة وسأثبت لك.
.الأمور لم تعد تحتمل التجارب.
.ما خوف الغريق من البلل؟
يصمت لحظة فأحس بفرجة أمل، أهاجم:
.ماذا ستقول لربك؟
السماء فوقنا مُشكلة بألوان رائعة، والأفق البعيد يرسم لوحة الغروب اليومية، الفضاء يمتد للأبد، وتصميمه الرائع للروف زاد المساحة اتساعاً. والله لم يكن بهذا القرب يوماً، يتطلع ملياً لأعلى، يدور بنظره حائراً، يصرخ بعد لحظة هدوء رانت:
.لِمَ لَمْ تخلقني جباراً؟
.كنت أظنها نعمة.
تغيظه ردودي الحادة المباشرة فيقصفني بنظرة شرر، لن أتركه لنفسه ولا للشياطين المتجمعة بالداخل، نبدو تائهين ضائعين في الفراغ الفسيح، خلال لحظة بدا أنها لن تنتهي. ظللنا جامدين قبل أن يتركني ويمضي لإيقاف المهزلة التي تحدث بالداخل، ينتهون من تفتيش أغراضها وهاتفها وحقيبتها، تبدو "سهام" غير راضية لكنها تصمت عندما يعلو صوته هادراً، تُنبه الفتاة ألا ضغينة شخصية، لكنه مجرد عمل، نشك في كونها جاسوسة علينا، خاصة وقد التحقت بالعمل لدينا قريباً، خلاف ذلك لا يعنينا. تبدو الأخيرة غير مصدقة أنها ستمضي بهذه البساطة، وقد انتابها

الرعب لمَّا سمعت أن الشرطة قادمة، ليست بريئة، وقد شاهدها زملاؤها تهبط كل يوم من سيارة مختلفة، لكن لا علاقة لها بما نحن بصدده.

كان الحكم الأول قد صدر على "زكريا مختار"، العميل الذي سرقنا بعد تجرؤ "الغرباوي" علينا، بالسجن والغرامة، ولم تتمكن المباحث من التنفيذ لمرور الوقت، واختفائه من العنوان القديم، وبيعه الشقة محل الخلاف، وربحه فيها رقماً أدار الرؤوس. طلبت التقصي عنه ممن نقلوا أثاثه بالشروق، فعثرت على مسكنه الجديد بالتجمع، القريب من مقر عمله. ذهبت لتنفيذ الحكم ثلاث مرات، فسألني القسم عن أوقات تواجده. راقبنا البيت عن طريق مخبر خاص، واصطحبت أمناء من مركز الشرطة، الذي يبعد عن بيته الجديد خطوات، لانشغال رئيس المباحث بمطاردة المظاهرات. طلبوا مني أن أبقى بعيداً، لم يفتح لهم الباب فكسروه عليه رغم عدم قانونية الأمر، وجدوا معه مفاتيح أربع سيارات، وثلاث بطاقات فيزا، ومبلغ نقدي يقارب الألفين جنيه. اصطحبوه للقسم وراجعوا اسمه فتبين أن عليه عدة أحكام قضائية تدور كلها في فلك مقارب. ظهر رئيس المباحث فجأة من العدم، بدا مزهواً بنفسه وهو يسبه بأقذع الألفاظ، في أوائل الثلاثينيات، متوسط الطول، نحيل، أصلع، محني الظهر قليلاً، لا يمت بصلة للأشكال الصارمة المتعارف عليها لمن هم في مثل منصبه، لكنه التطور الطبيعي لأبناء الأثرياء والضباط السابقين. وهو و"وحيد حسين" يبدوان قادمان من نفس الفئة، لكن هذا أكثر ثراءاً والآخر يفيض رجولة. لم يرضَ الأمناء بأربعمائة جنيه هي كل ما كان في حقيبتي فاستمهلتهم حتى الغد، طلبوا مني أن أُقدم أي إيصالات أمانة أو شيكات بحوزتي مخافة أن يهرب "زكريا" ثانية بعد الاستئناف، طلب هو التصالح دون دفع فرفضت، تبجح بأنه سيقضي مدة الحكم الهزيلة

بالحبس لكننا لن نحصل على نقودنا. تقدمت "سهام" بالبلاغ التالي باسمها وشخصها حتى تثبت أنها لازالت فعَّالة، ترددنا على القسم أكثر من مرة وسط غياب مهندسنا لانشغاله بأحزانه بعد وفاة معلمه وأستاذه، ورغبته الدائمة في أن نقوم بالعمل، وأن نثق بأنفسنا دون الاعتماد عليه، وأن نكون شخصيات قوية رغم كوننا نساء. مر عام منذ الحادثة، وتغيرت أشياء كثيرة، وإن كان إحباطه ولا مبالاته أهمها، رغم كل الومضات التي تومض فجأة، وتنبهُ أنه لا زال به بريق من أمل.. الأسود لا تستسلم للتدجين، وإن حُبِست في ألف قفص، فأين ذهبت روحه المقاتلة.

زادت مباهاة رئيس المباحث بنفسه، عرض علينا دولابه المليء بالعطور النسائية وثلاجته الميني بار العامرة بالعصائر والمشروبات، ساعاته الفاخرة، مقتنيات والده نائب وزير الداخلية الأسبق، مرتبه الذي يتركه للأمناء والعساكر، وسيارته التي يغيرها كل سنة، هاتف أهله بالساحل الشمالي، وتحسر أنه لا يستطيع اللحاق بهم لحضور الحفل الغنائي لأحد أشهر المطربين، لم تعجبني كلمات من عينة أنه غير مرتاح مع زوجته، وإمكانياته متوفرة، ويبحث عن البديل، أبديت حركة تدل على الاستياء، ورسمت ابتسامتي الساخرة، المتحدية والمستفزة، على جانب شفتيَّ، من يظنني، وهل يتخيل أن تلك التفاهات يمكن أن تسترعي انتباهي؟

بالمقابل لاحظت نشاطه في عمله، أعاد دراجة بخارية مسروقة وأحضر صاحبها ليتسلمها، اتصل بفتاة يعرفها في إحدى شركات المحمول، لتلج الكمبيوتر الرئيسي لهم، طلباً لبيانات مشتبه به، وإن كان من الواضح أن علاقاتهما غير سوية، تتبع حجة غياب زوج أحرق بيته بما فيه، لشكه في امرأته، فعل كل ما لم يفعله نظيره بقسم مدينة نصر إبان مشكلتنا السابقة، لكنه استبقانا أوقاتاً كثيرة، كنت أشعر فيها أن وجودنا مبتذل

واستعراضي ولا معنى له، تأخرنا وخشيت غضب أمي وكانت السيارة معي، سألت "سهام" فأجابت أنها ستبقى لكي تُنجز المحضر، لم أفهم، أي محضر، أخبرتها أن تكمله صباحاً، فكررت أنها ستبقى، ولا تريد من "رفعت" أن يعنفها. انصرفت وأنا متعجبة، كيف ستعود لبيتها البعيد جداً في ساعة كهذه، وماذا ستقول لحبيبها المزعوم؟ أنَّى لي في أشد لحظات جنوني أن أتخيل، أنها يمكن أن تقبل أن يوصلها، وبسيارته، ذلك الغريب الذي يصغرها بعدة أعوام؟

❖❖❖❖❖

شهقة الروح إثر اكتشافي خيانتها وتفاجئى بالأمر كانت من أعماقي، شهقة أقرب لصرخة أظنها لن تخرج مني ثانية لنهاية عمري، شهقة ممتلأة باللوعة والصدمة والذعر. ما هذه القسوة والشراسة التي ملأت عينيها فجأة، وهل هذا الوجه الذي يتقافز منه الشياطين وتخرج به لعميل متهرب، جاءت به إليَّ طالبة هاتفها، الذي سبق واشتريته لها؟ هل انقلب ولاؤها بهذه السرعة؟ كنت قد اختطفته منها إثر إحساسى بشيء غير طبيعي، وصافرات الرسائل تدوي أو تضيء، وهي تصر على الاحتفاظ به فى ملابسها وجيوب سروالها، على غير العادة. لماذا لم أصفعها، أو أركلها، أو أدفعها أمامي لأي غرفة جانبية؟ ما هذا الشلل الذي اعتراني، ولماذا انعقد لساني، واعترتني الدهشة والمفاجأة والإحساس بالغدر، وصرفتها بمنتهى الاشمئزاز والرفض، وأنا أردد كالببغاء: "اللهم اكفنا السوء بما شئت، متى شئت، كيف شئت"، كررتها على مسامعها ثلاث مرات، وهي تنتظر المصعد لتهرب، بعد أن سلمت المفاتيح لـ"داليا"، دون أن يفصح كلانا عن الأسباب. تشاغلت بالناس، وبالعملاء، وبالصلاة، وبحركة الموظفين، دون أن أجرؤ على فتح باب الذكريات. أي ذكريات لامرأة عملت، وخرجت، وأكلت، وفكرت، وذهبت معها، لكل شبر في مصر تقريباً، لكل مكان امتد إليه عملي في الساحل، وسدر، والسخنة، والغردقة، وبورسعيد، للشروق، والتجمع، وروكسي، ومدينة نصر، للعشاء في اسماعيلية، أو بطريق اسكندرية الصحراوي، اللذين كنا نذهب إليهما ذهاب الإنسان لبيته، لدعاء السفر الذي جعلتها تحفظه كاسمها، لفرح في أرياف المنوفية، أو عزومة من شاب شرقاوي يعمل معنا ودعانا لمزرعة أهله، أو عميل قليوبي أراد التعبير عن

صداقته وامتنانه لما فعلته معه، فأقسم أن نأكل طعامه ونمضي ليلتنا في بيته الفسيح، ويفاخر بنا كل أقرباءه في بلدته، لإثنى عشر عاماً ارتسموا فجأة أمام ذهني وكأنهم لحظة، ستة منهم لم أراها خلالهم مطلقاً، وظلت هي تواصل الطرق بإلحاح على بابي، وتشكو لكل من حولي، وترسل رسائلها الملتهبة، حتى صدقت في الأعوام الأخيرة أنها تحبني، قضيت معها من الوقت مالم أقضه في بيتي وبين أولادي، مررنا معاً بمشاكل عاصفة زادتنا اقتراباً وترابطاً، مشاجرات وأقسام ونيابات، وسرقات وصعوبات، جعلتها تفهم، ولو قليلاً، أفكاري، مآسي العمل المشتركة وحدت بيننا، كانت تستأذنني قبل صيام النوافل، وتختم القرآن كل رمضان في مصحفي، وتقول لي دوماً أني رجلها، حتى لو لم أعقد عليها، عاتبت ربي إثر مرتين صليت استخارة فيهما فجاءتا بالسلب، تحججت بأن الإنطباع نفسي، ومال هواي إلى أني متأثر بمحاربتها السابقة لي، ولسانها السليط، ووقيعتها بين الموظفين، ومحاولاتها دوماً التأثير على كل من حولي، حتى تخلو الدنيا لها وحدها، التمست لها العذر، وعلقت أنها تفعل ذلك بدافع حبها، وإدراكها لضعفها، وقلة حيلتها، ورغبتها ألا أرى سواها، تعقدت الأمور كلما هممت بالزواج منها، حتى رفعت رأسي وسألت الله عن رزقها معي، خاطبته في أنصاف الليالي ومع قيام الليل فألهمني صبراً لم أفقه له سبباً، رفضت أن أكمل زواجي العرفي بها بعدما كتبه المحامى وطارت فرحاً به لأني رأيته مهيناً لها، أعرف أبيها جيداً بملامحه البسيطة البريئة، وقد ائتمنني على ابنته، فلم تفارق صورته خيالي إثر توقيعي العقد بضغط من ضميري وعمر الفتاة الذي يمضي، طلبت منها السؤال بدار الافتاء، فجاءت النتيجة بالسلب، لتقضي على الفكرة، أخبرتها أني لن أتزوجها إلا على يد شيخ معمم، ما إن تسنح لي الفرصة، طلبت منها سابقاً عشرات المرات أن

تمضي لحالها وترى طريقها، فلم تغضبها الكلمات ولم تبدٍ رفضاً ولا ممانعة، مرة تالية منعني خروج المأذون من مكتبه عن زواج رسمي كدنا نتمه سوياً وطلبت منها الإحتفاظ بنقوده ريثما نعود إليه، مابرح "طارق" يردد أنها زوجتك وأن ما بينكما وعد وأنه شاهد على العقد الذي مزقت نسخته بيدي، لم أستبيحها ولم أستحل عرضها ولا طاوعتها في مئات المرات التي كانت تطمع فيها أن أضمها إلى صدري، هل صار وزري الآن، أني لم أعرف الزواج إلا كما هو، محله الرضا وشرطه الإعلان.

وفق منطق "هشام"، وسخرية "طارق"، وعدم تصديقه وعتابه لي، كان بوسعي أن أرتوي منها كما أشاء، لكن من قال أنها يمكن بوضعها الحالي أن ترويني، وما حاجة أمثالي إليها بعدما صارت إليه، كنت أرى في كل تفصيلة صغيرة منها إضافة إليها، ابتسامتها، عيونها الواسعة، كلماتها الراضية، تعبيراتها الشعبية، عالمها المختلف، انتقلت رويداً رويداً من خادمتي إلى امرأتي، عقلي لم يكن مقتنعاً بها، ولا قلبي، لكنه الاعتياد، العمر والعشرة والتفاصيل، الأماكن والحوادث والأشخاص، وعدم تخيل إمكانية المضي قدماً بدونها، بعد كل ما مررنا به سوياً، لتفاجئني وهي تضع نفسها تحت أقدام من يصغرها بسنوات، وتمثل عليه الحب، طامعة بنقود أهله، لازالت كما هي ولم تتغير، رغم العمر والتجارب، ضاعت مجهوداتي معها سُدى، لم يزد ذكاؤها ولو قطرة، ولا ارتفعت أخلاقها بمقدار ذرة، ها هو "هشام" يطل ساخراً، شامتاً، مخرجاً لسانه ومتحدياً، ها هي "داليا" تؤكد نفس المعنى، رغم اختلاف الشخصيات، لماذا نسيت، وكيف تمكنت تلك، بخضوعها، بنعومتها، بنفاقها، من التحليق بعيداً لهذه الدرجة، كيف نزلت بنفسي لهذا الدرك؟

منذ سنوات، أفسدت عليَّ امرأة في أسابيع، طاقماً متآلفاً ومترابطاً من الموظفين والعمال، أنفقت من عمري ثلاثة أعوام في صنعه، كان الأمر بلاهة مني، وحسن ظن زائد، وقلة خبرة، تركتها وسطهم رغم أنهم نبهوني لشرّها، ولعدم اتزانها النفسي، كونها مطلقة، ووحيدة، ومهجورة، فطلبت منهم احتواءها، في تطبيق نظري، مكانه قاعات الدرس والمحاضرات، بقيت أشاهد متفرجاً حتى انفرط العقد وذهبت الحبات، رغم قسوة التجربة بقيت أنا أقل الخاسرين في النهاية، استمرت شركتي، وزادت ثروتي، وصنعت طاقماً جديداً، وأعلنت الدنيا بوضوح إحجامنا جميعاً، لذا لم أبال كثيراً بما يمكن أن تفعله "سهام"، لو قلدتها، لكن ما أثار دهشتي أنني هذه المرة لم أخترها إلا للعمل، ولحبها المفرط للنقود، ولتركيزها، ومجهودها، وقد وضعت شركة، بموظفيها، بأطقمها، بعمالتها، تحت قدميها، بل ولم أتدخل إلا والأمور تنهار، فأين الخطأ، ولماذا لم تفكر، ولم تحاول تطوير نفسها، لماذا لم تبحث عن الخلل وتحاول إصلاحه، كانت أكثرنا حديثاً عن العمل والمجهود، والفرص المتاحة في الهواء الذي نتنفسه، والتي تنتظر من هو مستعد لالتقاطها، أين ذهبت كلماتها، ولماذا استسهلت خيانتي، وخداع غيري، بدلاً من أن تستغل ما هو متاح لها، بل ولماذا لم تستغل باب الغفران الذي فتحته لها حتى بعد ما فعلته؟

هل آن لي أن أكف عن المكابرة، وأستمع قليلاً للآخرين، وأقر بأنني لم أهبط من السماء، وأعترف، أن يد الله مع الجماعة، وأن آراء غيري، قد تكون مفيدة أحياناً، ولم يكُ يضيرني شيء أن أستمع إليهم، وأتبادل معهم خبراتهم، وأنهم كانوا أدرى مني، وأكثر تمييزاً، ورأوا ما أصررت على عدم رؤيته، هل كانت "داليا" محقة وهي تكرر أن نموذجها لن يسمح لي بإزالة

الطين المتراكم، رغم علمه بالمستنقع الذي صرنا إليه، وترفض التعاون معها أو التفاهم، أو حتى مجرد المهادنة؟

❖❖❖❖❖

سهام ابراهيم

سألته أين سيذهب بي فأجاب أنه سيغتصبني، كررتها عليها فضغط مكابح السيارة، وأعاد نفس الإجابة، طلب مني أن أهبط إن كنت لا أريد، فطلبت منه أن يمضي، وليفعل بي ما يشاء، كانت أكبر مخاوفي أن يضربني، قال إنه يشعر نحوى بحالة من الغثيان، أقسم معها أنه لن يقربني، ولو مثلتُ أمامه عارية، سمعت منه قبلاً مئات العبارات الفظة، والمعاملات السيئة، والصراخ، والشتائم، وسباب الأهل والأقارب، والفقر، والمنطقة التي أقطن فيها، والأفكار المتخلفة التي أدور في فلكها، وإعلام العهر والدعارة كما يسميه، الذي أستقي منه أفكاري، لكن عبارته هذه كانت أقساها جميعاً.

لم أنتبه أن روحي تكن له حباً بهذا العمق، ولا أن النفس البشرية فيها من القذارات ما يجعلها تصل بي إلى هذا المنحدر، أخرج ما يحدث من نفسي أضغانها، وفكرت للمرة الأولى أن نظرته لي ربما كانت صحيحة، مرت ستة أيام دون أن أراه، ولا زلت لا أستطيع أن أضع شيئاً في فمي، وتأبى معدتي بإصرار أن تحتفظ بأي لقمة، حتى صرت أعيش على العصائر، وكسرات من الخبز المغطى بالمربى أو الحلاوة، وعلى الرغم من أمل الزواج المرتقب، وحلم الأمومة الذي بات نصب العين، والرسائل المتبادلة بيني وبين "الآخر"، إلا أني لم أعرف للبسمة طريقاً، إلا حينما قابلت "رفعت" بعد كل هذه الفترة، أدهشتني ردة فعله الملتاعة أول اكتشافه لخيانتي، وكم الدفء في عينيه وصوته اللذين يتحدث بهما الآن، هل يحبني حقاً، وهل كان لازما إن نتعرض لتجربة بهذه القسوة، أم أنني الفتاة النشيطة التي تحمل عبء شركته، وتدور في فلك تنمية ثروته، وصارت جزءاً من أملاكه؟

وأنا معه على طريق، لا أدري أين هو ذاهب بي، ولا أهتم سوى بكم الدموع التي تهطل مدراراً من عيني، ولا تريد أن تتوقف، ولا تهدئني سوى لمساته، وكفه الذي يربت على يدي، فأمسك بها بكل ما أوتيت من قوة، وكأني أخشى فقدانها، استغلالي للحظة وارتمائي في أحضانه، نافذة السيارة التي فتحتها، والتكييف الذي أطفأته، لأشهد العالم أني بين يديه، للمرة الأولى في حياتي، جهاراً نهاراً، بعد إثنتي عشر عاماً من معرفته، روحي التي استرددتها، وأنفاسى التي عادت تعرف للهواء طريقاً، غصة الحلق التي ذهبت، وطعم المرار الذي ابتعد، هل أحلم، أم أنه يفتقدني فعلاً، وما هذا الدفء الكامن في وجهه وعينيه ولمسة يديه، ما كل هذه اللوعة والحزن والنبرة المختنقة والخائفة من ذهابي، "أحمد" القوي الأسطوري، رجل الأعمال وصاحب الشركة، ذو القلب القاسي والطباع الجامدة، ابن الأكابر الذي يفصلني عنه مئة سنة ضوئية، والذي لا يأكل طعامي ولا يعجبه ذوقي، يوشك على البكاء من أجلي، ويبدو أمامي بهذا الضعف والحنين والرومانسية، يكاد قلبي ينفطر، وأنا أرى حبيبي أمامي كذلك، لكن الفرص لا تأتي في الحياة مرتين، وأنا سئمت الفقر والمشاكل، وتسلط موظفي الحكومة وتحكمهم، في كل مشوار يبعثني فيه، وأقاربه الذين لايريد الاستعانة بهم، ومثالياته التي لاتنتهي، والنقود الكثيرة التي أربحها، فيستهلكها نمط المعيشة والملابس والمواصلات، أسعار الطعام المرتفعة، وحساسية صدري، وأمي المريضة، وحلمي الذي لا ينتهي بالخلاص، وتديّنه الذي جعله لا يقربني، ولا يصعد معي في الأسانسير لوحدنا أبداً، جعلني فاكهته المحرمة، ونسى تذكيرى أني نعمته، وأن الفاكهة لاتستوي إلا لتؤكل، وأن النساء خلقن للمتعة والرقص، والمضاجعة والإنجاب، ما

يضيره لو منحني طفلاً كنت أصبو إليه، وما المصيبة التي كانت لتحدث حتى لو افترقنا بعدها.

عمري يقترب من السادسة والثلاثين، والأمور بدأت تخرج عن السيطرة، الأجواء صعبة منذ ثورته، والبيع شبه متوقف، ثقتي في نفسي بدأت تقل، لأن ثقته فى قدراتي باتت كذلك، وقد تقدم لي سابقاً من هو أفضل من "محمد العطيفي" بمراحل، وكان ضابط شرطة أيضاً في قسم مصر الجديدة، فرددته بلطف لكن بحزم، كانت عيني على "رفعت"، وآمالي فيه أكبر، رغم عشرات المرات التي أخبرته فيها بتقدم عريس لي، فطلب مني أن أتزوجه، وكأنه يُلقي عبئاً رهيباً عن كاهله، ثم يردف بكل دبلوماسية: إن كان مناسباً، في حياة كل امرأة رجل لا يُعوض، وقد ابتلتني الأقدار بكونه رجلي، فما الذي فعله غير إهانتي، والسخرية مني، وتحقير كل ما هو قادم من ناحيتي، والتركيز على العمل، والشركة.

ورغم كل ما أردده عن أهمية المجهود، وتوفر النقود، وفرص الربح، والسوق المفتوحة، يبقى كل ما سبق كلاماً للاستهلاك المحلي، في هذه البلاد القاسية، حيث كل طرق المعيشة، والبحث عن الحياة اللائقة، تؤدي للإهانة، وعريس مثل هذا، كفيل بحل معظم مشاكلي، وإراحتي من عثراتي المادية المستمرة، خرجت من معهدي العالي لشركة حبيبي، وفشلت كل محاولاتي لأن أجد نفسي بسواها، لكنه الآن، وتحت ضغط وإلحاح "داليا"، وما يسميه الحاجة للتطور، وأسميه أنا قلة النقود الواردة، وإنفاقه من رأس المال، واحتمال أن يقع، بعد ضربة "محمد عبد الرحمن"، أو أقله يتعافى بعد فترة، بدأ يسحب مني أجزاء من اختصاصاتي، ويفسح المجال لطريقة أحدث، وعدد أكبر من الموظفين، يتعامل معهم بصبر غريب عليه، وينفق عليهم مرتبات أكبر، وحوافز أكثر،

ويدرس أحدث ما في السوق، ولدى المنافسين، بل ويرسل عاهرته الصغيرة للشركات، لتتقدم بطلب وظيفة، لكي يعرف ماذا يفعلون، ويقدم أفضل، ما أدراني أنه "لا يهوى" بلغة السوق، أو أنه لن يسحب الشركة مني، وهل هي أم حلم الزواج والإنجاب، من فتى لاهٍ ومتيسر، يعمل بالداخلية، وأبوه كان مثله، ويستقل سيارة يزيد ثمنها عن نصف مليون جنيه، ويرافق فنانين وممثلات، في مقابل المهندس الذي لا يدري بي، ولم يراني سابقاً، ولا الآن، ويعميه غروره، والمسافة بيننا شاسعة، والنساء كثيرات من حوله، والمتقدمات الجديدات في كل إعلان أجمل وأصغر، وعمري يمضي بي؟!

يقولون إني في الجنة سأختار الزوج الذى أريده، لو صدقت هذه المقولة، فأنا يارب لا أريد غيره، ولا أرغب في سواه، وتكفيني لحظة تحت قدميه، أقبل فيها أصابعه وأطرافه، وعنقه وشفتيه، وأقوم ليحتويني بين صدره، بدلاً من جواربه التي أختطف منها رائحته، وأضمها لنحري، وأغرقها بقبلاتي كلما خلوت بها، لقد وصل بي الأمر لتبجيل الهواء الذي يتنفسه، لكن الدنيا لها حسابات أخرى!

❖❖❖❖❖

غاب عني "العطيفي" أسبوعاً أو خمسة أيام، لم يرد فيهم على اتصالاتي ولا رسائلي المشبعة، بالحب والشوق واللهفة، كان قد حاول استخدام تعبيرات جنسية فاضحة فصددته بلطف، قبل أن ينتقل التلميح تصريحاً، ووقفت به عند حدود القبلات والأحضان لكي يظل الأمر ملتهباً، يبدو أنه يعاقبني ويضغط، قبل أن أفقد صبري، أرسل رسالة أنه لايقصد الغياب، ولا داعي لإساءة الظن، كونه في مهمة لمطاردة الإرهابيين بسيناء، كما نقلت كاميرات التليفزيون، ومؤتمر الوزير، وأبرزت القنوات الخاصة، شبكات المحمول لاتعمل هناك بالكفاءة المطلوبة، وإن وُجِدَ إرسال فما يكفي بالكاد للإطمئنان على زوجته وأبنائه، وإبلاغ أمه بسلامته، بدأت

أنتبه أنه غير مُطلق كما قال سابقاً، وقد لا تكون هناك خلافات كما ادّعى، لكني لم أبالِ، ما الضير لو صرت زوجة ثانية، وبماذا كنت أحلم مع سابقه، الذي لم يرانِ، ثم أنه موظف مضمون الراتب، ومستريح مادياً، دون التعرض لمخاطر من عينة شركة مغلقة لستة أشهر، وحظر تجوال تفرضه الحكومة، فيخاف الناس الخروج من منازلهم، وتتوقف الأعمال، قد لايكون الأبرع ولا الأقوى، ولا الأذكى ولا الأوسم، لكن بماذا أفادني كل ذلك، قد يكون موظفاً وأراني عفية عليه، لكن الوظيفة تعني الأمان، وكونه ضابط شرطة سيجعلني دوماً فوق رؤوس الناس، وسأستعيض عن وضعي كمديرة، بصفتي زوجة.

هل صرت أبدل ولائي بهذه السهولة؟! نفضت رأسي ساخرة، تصرفات "رفعت" البلهاء في الفترة الأخيرة، وإيمانه بالقانون، وتراجعه أمام طلبات البلطجية، وقسوة القلب التي افتقدها، كلها تشي بحجم التغيير الذي طرأ عليه، منذ هذه الثورة الملعونة. انتبهت على صوت محدثي، يسألني عن أهمية حجابي، فتهربت بإجابة مراوغة، لامانع من نزعه مستقبلاً، وعليه ألا يتعجل، أنا ابنة بلد حريفة وشعبية، وسأذيقه مالم يحلم به، قال أنه رآني بالأمس في المنام، وكنت شديدة الشقاوة والعفرتة، طلبت منه أن ينتظر لما بعد الزواج ، زفر بحدة وقال أني صعبة، أنهى المكالمة لانشغاله بشيء مفاجئ، انقطعت بيننا الاتصالات، وإن استمرت الرسائل، حتى لو انتهينا لشيخ معمم، وهو احتمال مستبعد، لن تستمر العلاقة طويلاً.

❖❖❖❖❖

إحدى عباراتي له كانت "يا حب العمر كله"، قررت ألا أستمر في معاندة نفسي، متى أحببته وكيف، بهذه الطريقة سأخسر الإثنين، لا ينقصني إلا القليل من القوة، كنت أحدق في الهاتف منتظرة، حتى كلمني أحد

العملاء، انتهزت الفرصة وعدت إلى ذلك الذي أمضيت عمري كله معه، واستودعته ذكرياتي وآمالي وأحلامي، وسنوات نقائي وبراءتي، لم يتحدث فيما مضى، ولا سأل، ظن أني لم أقوى على فراقه، ربما، لكن هذه نصف الحقيقة، أذاقني من لذة الأيام ما لم أظن أنه موجود، صعد بي لسماوات عالية وحلق بي في آفاق بعيدة، علمت مدى صدق المقولة المشهورة بيننا، والتي كان يرددها الشباب قبل الفتيات، عن جبروت حنانه إذا أراد أن يقرب أحداً إليه، ولوعة فراقه إذا أبعده، كنا نشبهه دوماً بالنار لحضوره الطاغي، وشخصيته المتسلطة، ونحن ندور حوله كالفراش، نتدفأ بحرارته، ونستضيء بنوره، لكن الويل كل الويل، لمن يجرؤ على الاقتراب منه، ثم لا يستطيع الحفاظ على مكانته لديه، سيهوى سيهوى، في حضن تلك الشخصية النارية المتهورة، ولن يلبث هذا الأخير بدوره، أن يحرقه.

❖❖❖❖❖

الآن انتبه أنها منافقة، الآن فهم أن صبرها عليه، واحتمالها له، وخضوعها المطلق، وكونها رهن إشارته، وتحت مشيئته، والشبشب الذي كانت تجرى لإحضاره كلما هم بالوضوء، والأعمال الشيطانية، وأحجبة المحبة، التي كنا نضبطها بمكتبه، لم يكن حباً ولا انبهاراً، ولا حتى اعترافاً بمهارته، التي يتحاكى بها السوق والعملاء، لم يكفه توسلاتي ودموعي، ولا صرخاتي، ولا محاوراتي الهادئة، ولا تأكيدات "هيثم" الواضحة، ولا تلميحات "مجدي" المتحفظة، ولا عبارات "شاهيناز" الصادمة، ولا حتى تحذيرات امرأته الصامتة، والتي كانت تصدقه حيناً، وتنبهه أحايين، وهم جميعاً يتركون له الشركة، لتخلو لها بالتبعية، فلا تقدر عليها، ولا تتركها لمن يقدر، هل وضع لنفسه وبيديه، أفخاخاً في طريقه.

كان ولا زال وسيظل، أفضل ما مر في حياتها، باعترافها لي، وهي تبكي بدلاً من الدموع دماً، وأنا لا أصدقها، إثر تبرؤه منها أمام صديقه المحامي، وإلقاؤه لها على طول ذراعه، خوفاً من أن ترمي بلاءها عليه فيما بعد، أنها في أفضل فتراتها عقلاً ونضوجاً، وبداية حصاد، وما تفعله بنفسها لم يكُ يخطر على بالي، ولا في أشد أحلامي تفاؤلاً، حتى أني قمت وألقيت الماء على وجهي، ومسدت شعري بعد أن فككت طرحتي، خبطت جبهتي بيدي، وقرصت خدي، وأخفيت ابتسامة ظافرة، عدت إليها لأمسح دموعها، متعاطفة ربما، ومصدقة لأول مرة حزنها، لم يكن مزيج المثقف والمتدين هذا الذي أعمل معه، وأعرفه منذ حيوات سابقة، وعرفته روحي قبل ميلادها، كأبي الثاني، قد أخبرني بالحقيقة، ذكر أنه خلاف في العمل استدعى طردها كالعادة، المشاكل واضحة بينهما منذ بدأنا نغير طريقة

العمل، ونوعية الموظفين، ونرفع الرواتب، ونتطور، كانت قد أخبرته، في إحدى ثورات غضبها، أنها إذا رحلت، سيرحل رجال المبيعات معها، وهو ما قوبل منه بسخرية أغاظتها، الموجودون أصلاً ضعفاء، قليلي الحيلة، ضيقي الخيال، وأقل بكثير من مستوى المباني التي نصنعها، وأرقامهم في البيع شديدة الضآلة، استدعاءهم تم باعتبارهم قدماء، جاهزون، فارغي اليد، ريثما نكوّن أطقماً جديدة، تلافياً لأزمة الإغلاق التي سببها اعتصام "رابعة"، ثم طريقة فضه، ثم حظر التجوال الذي أعقبه، كان العملاء يخافون المجيء بمجرد أن يسمعوا عنواننا بمدينة نصر. "سهام" نفسها لم تكن مديرة مبيعات قوية، وشهرتها قائمة على سنوات كانت فيها وسط أطقم شديدة المهارة، صنعها هو بنفسه في بداياته، وساعدته امرأته، وأناس لم أقابلهم لكني سمعت عنهم، من أمثال "صالح سعد"، "ياسر فؤاد"، ومستر "هشام" قطعاً، بالإضافة لمديري تسويق، بأطقم كفيلة بتحريك الصخر، وملء الشركة بالعملاء، أياً كان التوقيت، وإبداع هندسي خالص، صاغه بيده في القرى التي كنا نعمل بها، متفرغاً له، منكباً عليه، فارضاً شروطه، على أناس كانوا أكثر منا ثراءاً وقدرة وعلاقات، لكنهم يدركون قدره ويعرفون جيداً شركته، دنيا صنعها على عينه بمجهود خرافي، وفكر تشاركي، واستغلال أمثل، لأفضل ما فيهم جميعاً، وبتطبيق كامل لأفكاره الليبرالية، المجنونة، المتحررة من كل قيد، دون مبالاة بعقيدة أحد، أو آرائه، أو طريقة حياته، في وعاء كان يتسع لنا جميعاً، فانعكس نجاحاً على الشركة، ورخاءاً، ونقوداً، لماذا استسهل شخص بتعليمه ونجاحه، وثقافته، الاستكانة لمنافقة مثلها، لماذا قبِلَ أن يضع كل تطوره وأفكاره، في يد جاهلة لا تفهم ما يقوله أصلاً، ولا تدرك قيمة ما يفعل، لماذا لم يصدق محاميه، حينما أخبره أننا عرائس ماريونيت يجيد تحريكها

بأصابعه، وأننا بدونه لا قيمة لنا، بل لماذا أوصلنا إلى أن تقوم الشركة عليه وحده، حتى إذا اتخذ قراراً خاطئاً كـ"سهام"، هبطنا جميعاً من تسعون عامل وموظف وفني، إلى الثلث، في أقل من خمس سنوات، ثم ها هي تتركنا في وسط البحر نصارع، فقط لأنه أغلق صنبور النقود، فاعتقدت أن السفينة تغرق.

بعد أيام، وحينما أحسَّت بخطأ حساباتها، حاولت إعادة فتح الباب، وكاد قلبه يرق لها، أسرعت أقاوم وأضغط في الاتجاه المعاكس، نالني من شناعات لسانها ما كان متوقعاً، وأبدت أمي تعقلاً فاجأني، حينما أغلقت الهاتف في وجهها، بعد أن سألتها عن السبب الذي أبقاها في شركته كل هذا الوقت، طالما كان يريدها وتتمنع كما ادّعت، لم تفارقها أخلاق الخادمات حتى النهاية، ولم يؤمن إلا بعد محاولته الأخيرة معها في عيد ميلادها، لم تنسى أمي إفساد اللحظة حينما أخبرتها أن حلمي نموذجاً مصغراً منه، فسألتني عما يمكن أن يغري مهندساً ناجحاً بي؟

❖❖❖❖❖

والآن يلومونني وكأنها لم تكن تجربة ناجحة، أو كأنها لم تستمر، رغم كل الأهوال التي مررنا بها سوياً، الآن يتقولون عني، وكأننى الأعمى أو المخدوع، أو الذي لم يكن منتبهاً لعمله، ولا مهتم بتفاصيله، وكأنها لم تجتاز معي تجربة عمرها من السنوات اثنتا عشر، ومن إدارة الشركة ثلثهم، مهما ادّعى مدعٍ أني كنت خلفها، وفي ظهرها، وداعماً رئيسيا لها، لو لم تكن تستحق لما استمرت، وما ضاعت إلا لما عقمت أفكارها، وبدأت تسمع لأهلها، وتبحث عن مفردات العجائز والضعفاء، حيث الهدوء والاستقرار.

من يحدثني منهم عن نهاية الطريق، عليه أن ينظر لما أنجزته بها خلال السنوات الماضية، ومن يتحجج بقوتي ووقوفي ورائها ودفعي لها، هو من كان يريد مكانها، ويطمع فيه، ومستعد تماماً لأن يُقدح فيه عشرات أضعاف ما كان يُفعلُ فيها، ويكون هو القوي والمسيطر والمستحوذ على زمام الأمور، مثلما كانت.

هي نفسها قالت في لحظة صحو مراوغة، أن الخطأ الأكبر كان في ذهابي لأبيها، وتنبيهه أني أريد ابنته، قبل أن تتدهور الأحوال، بفعل الثورة مثلما تصورت، في عالمنا لا ينبغي أبداً أن يعرف من حولك حجم ثروتك الحقيقية، وخاصة إذا كانوا في دائرة العمل، سيطلبون أزيد ويعملون أقل، وسيعتمدون عليك، ويصير الوارد أقل كثيراً من المنصرف، وقد اخترتها لمنصبها ذاك لأنها أكثر الموجودين حرصاً على النقود، وسعياً ورائها، وبحثاً عنها، وشوقاً إليها، صفاتها الشخصية تخصها وحدها، وقد كان خطأي، أني وثقت فيها، وقربتها أكثر مما يجب، حتى تناسيت قواعد العمل، ولم أنتبه إلا على صيحات "داليا" التحذيرية، وحتى هذه لم أك أصدقها، لو

عادت بي الأمور لعدت لما فعلت، بلا ذرة تردد ولا ندم، اختياري لها كان صحيحاً، ومن يصلحون لإدارة الشركات أقل من عشرة بالمئة من مجموع البشر، ولو قالوا أن المنصب أكبر منها، فسأجادل بأنها على الأقل كانت تنفيذية رائعة، وضغط عليها الفقر والجهل والبيئة المعادية، إضافة لحقها الطبيعي في الإنجاب، الذي لم تمنحها إياه الأيام، واتخذت كل الطرق الملتوية لتحقيقه، لا جدال بأنها لم تحافظ على نفسها، والسوق المصري شديد الشراسة في هذه النقطة، وسريع الطرد لكل من لم يسعى للتطور، أو على الأقل يتمسك بموقعه، إن لم تحرص على الزيادة، ستضطر دائماً إلى النقصان.

❖❖❖❖❖

سهام ابراهيم

أمضيت مع "رفعت" يوماً لا أصدق أنه جرى بهذه السرعة، لكنها دأب اللحظات السعيدة في أعمار من هم مثلي، دعاني للغداء في أحد المطاعم، وعاملني برقة واحترام، وثقافة ورقي، وكأنه ارتد للوراء عشر سنوات، قام ليغسل يديه، فطفقت أنظر للمائدة أمامي، وللأسر من حولي، وللصالة بأكملها، هامت عيناي مع اثنين من العشاق، يتحادثان وهما يأكلان، ويؤكدان العبارات بإشاراتهما، ونبرة صوتهما، ومحاولات تنبيه العالم لوجودهما. تبدو الفتاة سعيدة، حتى لو كانت حركات أصابعها وهزات رأسها، فيها مبالغة، لم أملك إلا أن أتذكر أني منذ أسبوع فقط، بعد خروجي من شركتي، وتسليمي المفاتيح "لداليا"، كأي سارقة مطرودة، بعد ضبطها بالجرم المشهود، بعد أن رأى "رفعت" الرسائل المتبادلة بيني وبين "الآخر"، بكل ما فيها من عبارات ملتهبة، لم يعقب، ولم ينفع معه ادّعاء الغضب، لأنه مد يده على جهازي، وهو شيء لم أكن أمانع فيه سابقاً. ظل يكرر دعاءاً احتقارياً، وددت منه لو يصمت ولا يكمله، وهو ينظر إليّ، وأنا مطرقة ولا أجرؤ على مواجهته، وضعت يدي في جيب معطفي ولم أدر ماذا أفعل، لست معتادة أن أكون في أي مكان في هذا التوقيت سوى شركتي، حتى الإجازة لم أكن أريدها، ولم أعرفها إلا في الفترة الأخيرة، بعد أن بدأ أهلي بالضغط عليّ، والقدح فيه، هل هم من جنوا عليّ، أم أنني كنت أستحق، من قال أصلاً بالجناية؟

ذهبت إلى رجلي الجديد منهارة وأنا أبكي، أحضر لي مشروباً من ثلاجته العامرة وسألني عن القصة، فرويتها له بكل البطء اللازم والدموع الموضحة، تعجب من رجل لديه شركته، بكل هؤلاء النساء تحت أمره،

ويستكثر عليّ حقي في الحب والزواج، أمنت على قوله وطلبت منه أن ننساه، وألا نشغل أنفسنا به، استمهلني ليستأذن المأمور في الانصراف وتوصيلي، فاستمهلته بدوري، أشعرته بأهميته ورجولته وأنا ألتقط له صوراً خلف مكتبه بكاميرا هاتفي، اضبط له اللقطات والوضعية وطريقة الوقفة، أقبله برقة على وجنتيه، قبلة خفيفة كما تفعل إحدى الممثلات في أفلامها وأتحدث بطريقتها، نظرة عينيه، وانتفاخ بنطاله، أكدا لي أني على الطريق الصحيح، وأنه مفعم بالشهوة تجاهي، اصطحبني لسيارته واستمع لحكاياتي التي لاتنتهي، انتبهت أني أستخدم عملي كمديرة مبيعات، وتعليمي كأخصائية اجتماعية، وعبارات "رفعت" الضخمة والرائعة كمثقف، وطلبه الدائم أن أشرح فكرتي بهدوء وحيادية، وعمراً عشته أتعلم ألفاظ من عينة، "سيدي الفاضل"، "رهن الإشارة"، تقليداً لحبيبي، فإذا بي المتكلمة اللبقة المقنعة التي صرت إليها، خفت أن يفضحني تمثيلي، فسألته بكل الاستعطاف في عيني الواسعتين البريئتين، إن كان يلعب بى، أمسك مصحفاً يزين سيارته الحديثة، وأقسم أنه يريد الزواج ثانية، ولا شيء سواه، أمسكت يده برقة وأنا أشكره، فالتقط كفي وقبله، اختلج جسدي إختلاجة هزت كياني كله، وأرضت غروره، حتى أن الابتسامة ارتسمت على جانبي شفتيه، ظللت أرتعش حتى أوصلني لناصية شارعي ومضى، فأسرعت الخطى إلى المنزل القديم الذي أقطن فيه، قفزت الطابقين قفزاً، فتحت بمفتاحي لمَّا تأخرت أمي في الاستجابة لطرقاتي، يممت شطر المطبخ الصغير وأشعلت ناراً على ماء في براد الشاى، ثم جريت باتجاه حمامنا الضيق، لمَّا لمحت بالسخان ماء، أغلقت الباب من الداخل، وفتحت الصنبور الساخن وحده، وانتظرت حتى بدأ البخار يتصاعد، كتمت فمي بيمناي، ووضعت اليسرى التي قبلها رجل غيره، تحت

الماء الحارق المتدفق، صرخ جلدي من اللهيب، وشملت الرعدة جسدي كله، انسال الألم شلالاً مباغتاً، ونفرت يدي لا إرادياً فأجبرتها على العودة حتى طفرت الدموع من المآقي، كنت قد أقسمت بعد تقدمه لأبي، رغم كل ظروف السوق غير المواتية، ألا يمسني غيره مهما حدث، ها قد حنثت بقسمي، كدت أفعل المثل في شفتاي، لما انتبهت أمي لهمهماتي المتصاعدة، فطرقت الباب وهي تنادي، أجبتها بصوت متوازن قدر استطاعتي لأطمئنها، أغلقت الصنبور وبقيت منحنية فوق الحوض قليلاً، غسلت عيني ووجهي بماء بارد ثم جففته، حدقت في تلك النظرات الشيطانية المنبعثة عبر زجاج المرآة، ما هذا الوهن الذي أنا فيه، أحتاج ثباتاً، أحتاج قلباً جامداً، أحتاج أن أمضي بعزيمة كافية، قاومت الأيام الثلاثة التالية، شجعت نفسي بتذكر أسوأ ما فيه، سببته ولعنته بيني وبين نفسي، وأمام أمي وأبي، وشقيقتي، تحججت بأي موقف فقد فيه أعصابه، أو نهرني، أو سخر مني، ومئات المرات التي سألته فيها إن كان يحبني، فلم يجب، لكن مقاومتي انهارت حين خلوت بنفسي، رسائل الآخر جنسية، وأحتاج كل مرة لرده بلطف، أعتصر نفسي بحثاً عنه، لو كنا في الأوضاع العادية لما تحملته لدقيقتين، ولجعلته عبرة لمن لا يعتبر، لكن الغاية قد تبرر الوسيلة، ولا ألوم أحداً إلا رجلي، الذي وهبته نفسي منذ الأزل، فمزق ورقة زواجنا، مخافة إنحناء رأس أبي.

هززت رأسي لأنفض ذكرياتي، وأعود لنعيمي، وأتمتع باللحظة الراهنة، كان قد عاد من غسل يده، وجلس أمامي باسماً، مترقباً، منتظراً، الغريب أننا لم نكن قد تحدثنا لحظة عن الآخر، رغم تلهفي، قررت الهجوم وسألته رأيه كصديق، فقال أنه لا يفاوض، نصحني ساخراً بابتسامة أغاظتني أن أمضي في طريقي، كررها بثلاث لغات وترحم على مهندس كان دوماً يجل

اسمه، ذكر امرأة عرفها لديه في بداياته، انتحرت لما فرطت في حبها، قال أني سأقطع شراييني، قالها بيقين كامل، وهدوء مرعب، أثار القشعريرة في كل أجزاء جسدي، حتى أطرافي، تجاهلت وبذلت كل ما أملك لكي أخرج منه بعرض جيد، عاود الابتسامة الساخرة وذكّرني أنه من علمني ألا أعمل تحت ضغط، ولا أستجيب للمؤثرات الخارجية، وأن أحتفظ بتركيزي، أكمل باشمئزاز يجيده، وأعشقه، وهو يلوي شفته، ويشوح بكفه في الفراغ، إن العلاقات الشخصية لا يجوز أن تدخل تحت بنود المعاملات التجارية، لم أفهم ولم أهتم، كنت قد ضحكت وأكلت، واسترد جسدي جزءاً من طاقته، ورأيت نفسي في مرآة السيارة أقل شحوباً، ولو كان معي إصبع روج لزينت له شفتاي، لكني انتهزت الفرصة ونحن على الطريق وقبلته في عنقه، وأخفيت يدي المحترقة بين يديه، وكأني أطهرها، كانت قد شُفِيتْ تقريباً، ولم يبق منها إلا ندب صغير لم يلفت انتباهه، ولم أك أريد للحظة أن تنتهي، ولا لليوم أن يمضي، فما بال تعكيره بحادثة كهذه، أمضيت وقتاً أجادله، وأحاول الوصول معه لأي حل، طلبت أن نتزوج في الاستراحة التي خصصها لأطفاله، قال أنه قد فكر في هذا الحل سابقاً، لكنه استحى أن يعرضه عليّ، من هذا المثالي، اشترطت عليه إن وافق، أن يطلبني من أبي، أبدى ردة فعل منزعجة وهو يؤكد على طبيعية الأمر، لكن على أولاً أن أغلق باب الشيطان الذي فتحته بيننا، وعدته خيراً ونزلت وأنا لا أكاد أصدق نفسي، لم تعرف قدمي نشاطاً ولا مشيتي غنجاً مثل الذي كنت فيه وأنا أغادره، وأخطو بأبطأ مشية ممكنة، يكفيني أنه يراقبني وينظر إلى انحناءاتى، حتى أني أشعر بدغدغة في كل أجزاء ظهري، لم يفرط فيّ، ولن يجرؤ على خسارتي، هل تمكن الحب منه، ووجدت له أخيراً ما أملكه به.

هاتفني في اليوم التالي قرب الظهر، وسألني إن كنت لا أزال لحمه فرددت بالإيجاب، ثنى بالتساؤل عن طلبه فاستمهلته، أعاد تساؤله في الخامسة عصراً فراوغته، هذا لن يغفر، ولن ينسى، وعصفور في اليد، أقرب من نزيل كوكب القمر هذا، الذي أراه أمامي، ولن أمسك به، في الثامنة مساءاً كلمتني عاهرته، وطلبت مني أن أبقى حيث أنا، وأترك لهم أي عميل محتمل، ولا أتحجج به، وستصلني عمولاتي حتى منزلي، سببتها باهتياج، واتصلت بأمها، مدعية وجود علاقة بين ابنتها ورئيسها، فأغلقت السماعة في وجهي وهي تتأفف، أرسل لي صباحاً رسالة أقل ما يقال عنها أنها من روعتها فاجرة، اكتفيت من البكاء والدموع ومواجع القلوب، وقررت الالتفات لحالي وحاضري.

❖❖❖❖❖

الانتقام

طارق المصيلحي

تغير"أحمد" كثيراً منذ لم يقدر على قتل الفتى، صار عاطفياً حتى أني أظنه لن يكمل بدون "سهام"، كانت تُكمل عبقريته وفنه، بجهلها وسوقيتها، والحقوق دوماً تحتاج بلطجي، أو في أقل الأحوال، غشيمة مثلها، وهي تجيد إعطاء هذا الانطباع، حتى لو لم تك كذلك، وقرار تخليه عنها خاطئ، حتى لو كان صحيحاً أخلاقياً، فهي في الشركة يديه وقدميه، وسكرتيرة تنفيذية رائعة، مهما أعطاها من مسميات، أو كتب باسمها، وكل محاولات "داليا" المفضوحة لانتقادها، كنا نظنها غيرة ورغبة في احتلال مكانها، حتى لو كانت رؤية تلك الأخيرة صائبة، وقد أثبتت الأيام ذلك، لم أكن لأفعل إلا ما فعله، تلك المتعبدة في محرابه، والملبية لإشاراته، والمندمجة بكليتها فيه، كانت تثير إعجابي لإخلاصها، وأعتبرها امرأته، حتى إني لمَّا نزلت في ضيافته لثلاثة أيام بالقاهرة، كنا نسهر سوياً أنا وهو وأسرتي بها، وكانت كل تلميحاته أنه يحب زوجته الأولى جداً، وترك معظم أملاكه باسمها، وأسماء أطفاله منها، بما يعني اعترافاً ضمنياً بها كثانية، خاصة وقد كتبتُ لهما العقد العرفي، قبل أن يمزقه بغباءه، ويدّعي عدم مشروعيته، وهي اللبنة الأولى في الجدار الذي ارتفع بينهما، تلك الريانة اللبقة المتحدثة التي تجيد الخضوع، رغم عدم جمالها ووجهها غير المريح، كانت ضمن أخريات أبرزهم زوجته، و"داليا"، مثار حسدنا له، وغبطتنا عليه، وغيرتنا منه، وكان "هشام" يتحدث عنها بغل، ويقول إنها سد حقيقي أمام محاولاتنا للوصول إليه.

بصفتي أقرب أصدقاءه أمضيت النهار بطوله أناقشه، أعلم أنه شخصية كتومة وغامضة، ولم أك مقتنعاً بعبارته المقتضبة عن "خلافات لا يمكن

حلها"، التي أردفها بتخلصه منها، وإزاحتها عن كاهله، ثم إني لم أصدقه حينما قال إنه لم يلمسها، ولا حتى موافقتها على كلماته، قبل أن يطردها، مع تكرار الأمر منها قبل وبعد انفصالهما، ثم تأكيده هو عليه ونحن جلوس في أحد المقاهي، اتهمته في رجولته، سخرت منه وهاجمته، وشمتُ فيه وسببته، لم أتوقف إلا وحدقتاي متسعتان، ووجهي مندهش، وقد ألقيت عصا الشيشة من يدي، إنه يقول الحقيقة بإخلاص وبساطة، ويعتقد أنه فعل الصواب، ويستغرب تعجبي، لمن كانت تلبس الضيق والمثير، وتتبرج إذن؟

أخبرته أني لو كنت مكانها لقتلته، وأياً كان العمل وما تربحه من ورائه، فلن يعوضها، ومصطلحاته وثقافته، وتركيزه على قيم النجاح والاجتهاد والتقدم، لا تعنيها طالما لم يكن بجوارها، ظللت عدوانياً مهاجماً حتى بدأ يدافع عن نفسه ويحكي، رغم الشك الذي انتابني في البداية إلا أني أوقن لن يكذب في أمر كهذا، لا هي أخلاقه، ولا هو سيشوه سمعتها، ولا أخالها فاضلة، أو تقيم للشرف معنى، ما أثار دهشتي هو التوقيت، لأنها أكثر فترة شهدت تقارباً بينهما، وكنت موقناً أنها على وشك اصطياده، فإذا بأقداره تنجيه، بعدما صار قاب قوسين أو أدنى.

الأدهى أن هذا المحظوظ تخلص منها بهدوء، وبلا خسائر، ودون ضجيج، حتى الآن على الأقل، وهو ما كنت أراه مستحيلاً، بل واعتقدته من بدأ الغدر، وملها، أو في سبيله لعلاقة جديدة، فإذا به يحدثني عن جمود فكرها، وتوقف عقلها، وقلة مجهودها، وعدم تطورها، وتأثرها بأفكار الغوغاء، هلا أخبره أحدهم أنها الغوغاء أنفسهم، وتختبئ خلفه كواجهة، الشركة تحت أقدامها، وهو قد بدأ يعتادها كروتين يومي، ومصدر مضمون للدخل ملك يمينها، جهلها مُطبق، والفرق بينهما رهيب، والبون

شاسع، حتى أني لم أجد ما أحذره به يوماً سوى كيف يمكن أن يجعل من أمها جدة لأولاده؟

أعلم أنه يأنف منها، لكنه لم يتخل عنها، ولا أبدى استعداداً، إغراء الركوع الذي تمارسه بإتقان يؤتي ثماره، وقد جعلته يخطو خطوة هائلة بكتابته العقد العرفي، ولم يتراجع عنه إلا لخوفه المبالغ فيه من الحرام، المشهور به، والذي يعرفه عنه من يعاشره ليومين، كيف يمكن لامرأة بيدها كل هذا ألا تمضي به الشوط لآخره، كيف تفكر، وماذا فعلت بنفسها، هل ما حدث كافٍ ليصدق أنهم كذلك ولا أمل فيهم، وأن نواياه الحسنة هي التي تمنعه من الرؤية، هل جاء بابنة "الزاوية الحمرا" ليصنع منها صاحبة شركة، وكان يريد أن يتزوجها؟

لم ترُقه عبارتي الأخيرة، وطلب ألا يتحدث "هشام" بلساني، فجابهته بما هو أقسى، ولم أمهله، الزواج وسيلة للإشباع، وطريقة كريمة للنسل والذرية، لكن من تمثل الحب لتتزوج من يرتقي بها مادياً واجتماعياً، عاهرة مقنعة، تطلب ثمناً غالياً، لبضاعة لا تستحق، و"هشام" محق في تلاعبه بأمثالها قبل أن يلقى بهن، بل إن نظرته هو شخصياً لها من البداية باعتباره أفضل حلولها، انتظاراً لمثيله، أو من هو أدنى بدرجة، كانت صحيحة، وأثبت للمرة المئة صواب رؤية، وبُعد نظر، وحسن اعتقاد، فما الذي تغير، وما هذه الملائكية التي يريد أن تنتهي بها القصة، جعلها فأر تجاربه ففشلت، هل كان يريد دليلاً على قذارتها، أم أنه اعتقد أن سنواتها معه ستجعلها أنظف، إن كان أبرز ما فيها خضوعها، فقد تجرأت عليه، وانتهى الأمر، نظراً لعدد العملاء، وبياناتهم، وأوراق الشركة التي بحوزتها، متى ستبدأ بسرقته، وعند أي حد سيفقد صبره، ويطلب مني حبسها؟

استكمالاً لحفلة المصارحة أخبرته أن طريقته خاطئة، الشباب يقلدونه في المكتب، حتى في كراهيته لربطة العنق، وأكمام قميصه المنثنية، إذا لم يكن لديه عملاء ليقابلهم، طريقة كلامه، إشاراته، حركات يديه، ثوريته التي لم يكتف بها في الكتب، فكتبها بقصة حياته، شئنا أم أبينا، هناك فئة متفوقة مبدعة، وأفضل من الباقين عقلاً، وأرقى سلوكاً وتفكيراً، أمثالها يحتاجون جرأته وتميُزه وإبداعه، وانفتاحه على كل الأفكار، لن يكونوا مثله إلا بحدود، ولا على شاكلته إلا بقدر، ليسوا زملاء سلاح ولا فاتحين ولا طلاب معالي، لا يريدون قيمه ولا مفاهيمه العالية ولا المساواة اللعينة التي صدع رؤوسنا بها، يريدون الأمان والوظيفة المستقرة والمرتب الثابت، اللذين سيوفرهم هو، أو الحكومة، أو الجيش، أو أي شخص يستطيع حل هذه المتاهة، لأنهم لن يبذلوا جهداً في ذلك، ولن يحاولوا، لا مانع لديهم من استغلالهم بكل السبل، طالما سيتحقق لهم ما يريدون، الحاجة ماسة لرجال الأعمال، والاشتراكية البلهاء التي يقودنا إليها دون قصد، وربما دون تبصر، أثبتت فشلاً ذريعاً، وحنين لماضي ذهب ولن يعود، وبضاعة راكدة لتجار الأحلام والأوهام، والكلمات المعسولة، عمله يحتاج للغة الاقتصاد الجليدية، و"25 يناير" فشلت حتى حين، وربما إلى الأبد، وحتى يقرر الفقراء، والموظفين، والفئات المطحونة والمهمشة، والشباب، ومن ليسوا أصحاب نفوذ ولا مناصب، ولا متنفذين، أنه لا حل إلا بالديمقراطية، أو الحرية، أو المساواة، علينا أن نرى حالنا وننتبه لمصالحنا، إن كانت الأغلبية تريد حكم العصى، والنساء الراقصات، وخطابات التحريض والتهييج، والنصب باسم الحس القومي والوطني، وشعارات العظمة والحضارة، والموقع الجغرافي، ومصر التي بلا مثيل، فلسنا مصلحين، ولا دعاة فضيلة، هؤلاء سيقتسمون الوطن مع أول

سكين تمتد إليه، ومحاولاته لإخراج أفضل ما فيهم، تماثل محادثة "سهام" عن الصواب والخطأ، والحلال والحرام، بلادنا الآن لصاحب الصوت الأعلى، والجبين المعقود، والوجه العابس، والنبرة الهادرة، ومن ستجادله بالعقل، سيلجمك بالرقص، والنقود لن تنتظر، ولا الالتزامات، ولا مواعيد التسليم، ومدارس الأطفال، وأقساط السيارات، والشاليهات، وأحدث تصميمات البدل، والقمصان، والأحذية، والجوارب، وأفخر العطور، وأشهى الأطعمة، وغيرها من عشرات التفاصيل، التي صارت تقيدنا، وتتحكم في طريقة عيشنا، وتقطع كل سبيل للنكوص، نظرة "هشام" ليست خاطئة، والثورة لم تصل لمكتبه، وقطاع كبير من الفقراء يلعنونها، فمتى صار "دون كيشوت"؟

حملق فيَّ صامتاً لدقائق، هز رأسه مستسلماً بعد خطبتي، قرأت الهزيمة في عينيه، فعرفت أني هُزِمتُ قبله، وأن كل الصعوبات التي لاقيتها في حملتي مع "أيمن نور"، عام 2006، وكل الإنكار والاستسلام، والرضا بالواقع، والجنوح إلى الأمان، والخوف من التغيير، ومهاجمة المختلف، وإطلاق سخائم الصدور، وشناعات الألسنة، واتهامات الخيانة والعمالة، وجهل الفكر، وقسوة الفقر، قد تجسدت على لساني وكلماتي الحانقة، عباراتي الغاضبة هي إعلان يأسي من كل محاولات التغيير، وتقبلي للأمر الواقع كما هو، ومحاولتي التماهي معه.

❖❖❖❖❖

ذهبت إلى "رفعت" بعد أن انقطعت بيننا كل وسائل الاتصال، ولا في أسوأ كوابيسي أن أمضي كل هذه المدة بعيداً عنه، تعللت بأي شيء، لم أبالِ بما يمكن أن يظنه، ولا حتى لو استغل الفرصة وأذلني، عقلي يضغط بقسوة بحثاً عن المصلحة، لكن "الآخر" يريد عشيقة أو أسوأ من ذلك، قبلني مرتين في السيارة وفي مطعم بفندق ما، طلب مني الصعود معه لإحدى الغرف، فأخبرته أن عليه مقابلة أبي، تعلل بمشغولياته، فطلبت منه الصبر والانتظار.

بالمقابل فوجئت بحبيبي حين أبدى لي كل هذا القدر من الحب والاحترام، أين كانوا طوال العمر السابق، ولماذا لم يحاول إظهارهم لي، تعلل بأنه كان يعتبرني امرأته، لا زلت أعتبر نفسي كذلك، لمَّا رأيت عينيه المتسعتين دهشة، زدته بأنه سيظل رجلي للنهاية، وإن كان يمكنني أن أطلب في الآخرة زوجاً فسأختاره هو بلا تردد، لكني أريد طفلاً في هذه الحياة..

استمهلني ثلاثة أيام لن يسألني فيهم عن شيء، ولن أسأله، اعتبرتها هدنة أحتاجها، من براعة ما كان يفعله بي. ورغم كل احتياطاتي المسُبقة، وميراث الكراهية الذي حشدته في قلبي له، ونزعتي للانتقام، ورغبتي فى إذلاله وتدميره، لمَّا صرت إليه، وقفت أُشاهده مبهورة وهو يُمسك بيدي، ويعبر بي خطوة خطوة، ويتجاوز عن إساءتي، ويتجنب الحديث عنها، ويمر بها وكأنها لم تكن، ويُحدثني عنه، ويَسمعني أحكي له عن نفسي، ويصغى لقصصي، ويتركني أواجهه بنظراتي الوالهة، ولمساتي العطشى، يصعد بي لسماء أحاول كل يوم ألا أصعدها، ويجذبنى لآفاق لا أقوى على تخيلها، فكيف بي العيش فيها، يعلمني قيادة سيارته، يخطفني لمحلات العطور التي

يدمنها، يذهب بي لمطاعمه، يمرق بي لعالمه، يشدني بقوة لجانبه من النهر، يجرفني بأقوى مما سيفعل أي شلال، يسمعني أغانيه، ويطربني بقصائد لم ألكُ أعلم أنها قيلت يوماً، فإذا بي أسمعها مُلحنة.

يُقبل الليل ولا أريد الذهاب إلى بيتي، رغم كل رفضي ومقاومتي وصراخ الملعون عقلي، واستدعاء كل أنواع قسوة القلب، أخبره أني لا أريد النوم لساعات، أعلم بعدها أني سأقابله ثانية، روحي عنده ولا تريد تركه، وما مر من عمري لم يك قليلاً، شياطيني تهاجمني طيلة الليل، هذه فرصتي للضغط عليه ومساومته، لن أجده يوماً أضعف وأقرب وأرق. شيء ما في عقلي ينبئني أني مجنونة وأحلم حلماً بعيداً، أني تطاولت في البنيان كثيراً وزدت في الارتفاع، لكنه لا يشرح لي لماذا، عقم أن يصل إلى أن هذا الشخص ليس كذلك، وبه من الرفض والحريق ما يجعله الملتهب الذي كانه، من خوفي من فقده طلبت مد الفترة لأسبوع، لو لم يكن في عمري غيره فأنا الرابحة.

بنهايته أقام لي حفلاً رائعاً لعيد ميلادي، رسم صورتي على كعكة كبيرة، طلب من الشباب كمية من الألعاب النارية والمفرقعات الملونة والنجوم المتلألئة، عندما تلامسها أعواد الثقاب، ظل معي اليوم بأكمله، واصطحبني معه للشروق منذ العاشرة صباحاً، اشترى لي عطراً رائعاً وبماركة حديثة، نزلت الأسواق منذ أقل من شهرين، اعتدت في كل سنة أن يهاديني كلما تيسر له الأمر، لكن ليس في الموعد الذي يوافق يوم ميلادي..

بدا اهتمامه بكل تفصيلة هذه المرة وكأنه يودعني، أصر على احتفال لم يكن يقيمه سابقاً، ويكتفي بهدية قيمة وغالية، ولأن اليوم استثنائي، ولأنه قادم من حياة أخرى لم أعرفها، ولأنه من كوكب الأحلام، فقد سمح لي

بمعانقته في السيارة، وتقبيله من وجنته وأنا أشكره، قبل أن أستقر خلف عجلة القيادة، لأفاجأ به وقد جهز أغاني كنت أنتظرها، أدارها لي بصمت لم أعرف كيف أعيد شكره عليه، دعوت الله طويلاً، في هذه الصحراء الشاسعة، أن يحفظه لي، وأن يديمه نعمة لا أفقدها، مهما حدث، وحتى لو مضيت مع غيره بدافع المصلحة. وافقتني السماء في أسعد ليلة في عمري، وهطل المطر خفيفاً ونحن عائدون، منذراً بدخول الخريف، مما أعطاني الفرصة أن أقلل السرعة أكثر، وأقطع الطريق في ثلاثة أضعاف الوقت المحدد، مستمتعة برفقته، وبأنفاسه، وبعطره، وبالقطرات التي تنقر على الزجاج، والأنغام الهادئة، والكلمات الرائعة، المنبعثة من كاسيت سيارة، أنا قائدتها. تحججت بالمطر، وبقلة خبرتي في القيادة، وطلبت منه أن تظل يده معي على المقود..

كان يمسك بفرامل اليد بيسراه احتياطياً، فجاور يدي بيمناه، تسربت إليها رويداً رويداً حتى انطبقت أصابعنا، حاول التملص فجاوبته ابتسامتي الماكرة، ورجائي، ولهجتي المنكسرة، أن تظل ليلتي للنهاية، أقله من أجل الأمان.

كان واضحاً أن أيام الغياب قد ألانته كثيراً، وحطمت أصنام تحجره، وجمود مشاعره، وخوفه الزائد من الحلال والحرام، هذه المرة ونحن نصعد، ارتميت على صدره لمَّا جمعنا نفس الحيز الضيق، فاحمر وجهه خجلاً وابتعد بحركة نافرة، وهو لا يدري ماذا يقول، وعلى حين استقبلني موظفو الشركة بالأضواء المطفأة، ثم الإنارة المفاجئة، والتصفيق والهتاف، حتى أن بعضهم بدأ بالصفير، فقد لاحظت أن "داليا" لم تكن موجودة، رغم أنه تابع معها أخبار الشركة منذ الصباح أكثر من مرة..

سألت عنها وأنا أتصنع الدهشة، فرمقني بصمت وتعجب، وغمزتني "إنجي" بنظرتها المتواطئة، كانت ابنة بلد مثلي، لكنها لا زالت ببراءتها وارتعاشتها الأولى، تحب أحد زملائها في العمل ولا تخجل من إعلان ذلك. حبيبي بمثاليته المعهودة يطلب منها احترام نفسها وكبح جماحها، فلا يزيدها ذلك إلا مرحاً وتقافزاً حول رجلها المستقبلي كما تسميه، مجتهدة وماهرة وشديدة التركيز في عملها، وهو ما كان كفيلاً بالتغاضي عن شقاوتها وانطلاقها، مسكينة لا تعرف ما يمكن للأقدار أن تخبئه.

❖❖❖❖❖

تركته في اتجاهي للآخر، وقد قررت الطرق على الحديد وهو ساخن، إنه لعنة وسيتمرد ما إن يعلم بموافقة "رفعت"، قابلته تحت الشركة التي يعمل بها بشارع مصطفى النحاس الرئيسي، الواسع والعريض، والمزدحم دوماً وأبداً، وانتظرت حتى استأذن، أعلم أنه لا يحب أن يظهر أمامي بمظهر من يعمل لدى آخرين، خاصة وقد شارك "رفعت" في بناء شركته قبل أن يتركه في أزمته، حاول بناء شركتين بعدها لكنه لم يوفق، الزعامة لها تكوين نفسي وجسدي، وكاريزما، وقبول من الله، وطول وعرض وحلاوة شكل، أو وسامة في حدها الأدنى، وباستثناء الصفة الأخيرة فهي كلها مواصفات يفتقدها، إلا أن ما أحمله من أنباء سيفرحه، بادرته قبل أن يفكر، طلبت منه أن يتصرف كما يرى، وأطلقت له حرية التخطيط على أن يؤجل التنفيذ قليلاً، حتى ينضج ثالثنا تماماً، وفي كل الأحوال بلا دماء، صدق توقعي وظن الطريق سهلاً والباب قد انفتح، فنبهته بوضوح أن "رفعت" ليس فقط أفضل موكل لديَّ، ولا أغناهم، ولا ألمعهم، وإنما هو صديق، لديه من الصفات ما يجعل التفريط فيه درب من الحماقة، كما أني إن طمعت يوما إن أكون محامي الشيطان، فشرطي أن أكون محاميه، لأنه لن يتغاشم، وحتى لو تجاوز القانون، فإن لديه من الهدوء والبراعة وسعة العقل، ما يكفي لكي يعبره، بدون أن يغرق ونغرق معه، إن كان الدين أو الثقافة عطَّلاه، أرهفا حواسه أو رققا شعوره، نمَّيا ذوقه أو هدءا اندفاعه، فهي مرحلة مؤقتة وستمر، سيجبره السوق وكثرة المشاكل وتوالي الضربات، على الإفاقة والعودة للتركيز، وللحسابات البسيطة والمجردة، وستختفي كلماته الحمقاء عن الإبداع والابتكار وقوة المخيلة.

لم يصدقني في البداية، واستمع لكلماتي باستخفاف وتهور، لكنه لما رأى العزم في عيني، والتحفز يطوف بوجهي، أيقن أن الأمر عقل وعاطفة، ألقى عبارة ما عن حب الناس لـ"رفعت" وإخلاصهم له، والذي هو من نعمه دوماً، فوافقته، من تجده في الطريق هو دوماً من يشبهك، وهو صديق صديقه، ومثله لا أجده كل يوم، وسط انشغالي بالقضايا والجنايات وأروقة المحاكم، التي تعتبر الخيانة فيها روتيناً، ذكرته بأنه لا زال صاحب التجربة الأنجح فينا والأطول بالاً والأكثر صبراً، رغم أنه يفتقد الصفة الأخيرة في طباعه، وأن دينه يحميه وإن كرهنا الاعتراف بذلك، قدرته الهلامية على ضبط نفسه أمام المغريات لها فضل كبير فيما وصل إليه، بمناسبة المغريات، وتخفيفاً لحدة الحوار، أليس هناك من نساء لهذه الليلة؟

لان قليلاً وانفرج وجهه فشجعته بعبارة ممازحة، نفخ قبل أن يقود بنا لنادي بأعلى هضبة خضراء في مدينة نصر حيث مكانه المفضل، وحيث كان وزير الدفاع السابق أيام النكسة يقضي لياليه في الفيلّا المقامة بأبعد منطقة من النادي، وأقربها إلى القصر، أجلسني على حمام السباحة الرئيسي ووضع أمامي عصير فواكه، طلب الانتظار قليلاً، فأخبرته أن يأخذ وقته..

المشهد ساحر، وتخيل أن تملك امرأة على هذا الارتفاع، وأن تسهر بها في ليالي مقمرة كتلك، تشربان وتتناجيان، وترقصان على وقع أحدث الأغاني وأعذبها، ويتكفل الشيطان بالبقية، العساكر في انتظارك، والضباط مشغولون بتأمينك، والدولة حارسة ومؤيدة، والناس مصفقة، والمدينة رابضة تحت قدميك، تنتظر أوامرك، ما أروع شعور العظمة ذاك وما أطيبه، يبدو"هشام" محقاً في حنقه من الآخر لعدم استغلاله الفرص

المتوالية التي تتاح لنا، وقواعد الحق والصواب التي يريد أن يَسير عليها، ويُسيِّر العالم، التجارة تحتاج خسة، ونذالة، وصمتاً، وجبناً، وانتهازاً للفرص، وادعاءاً لما ليس لديك، وهى والشرف نادراً ما يتفقان، فكيف يريد هو أن يجمع بينهما؟

قطع تأملي مجئ "هشام" بفتاتين، وجهيهما المليئان بالأصباغ يبعثان على القرف ويدعوان للعفة، لكن أجسادهن رائعة، وشعورهن مرجلة، ومدهونة بالزيت، ومشدودة، في تسريحه منمقة، بمفرق واضح، رغم لون الصدأ الذي مالت إليه، صدورهن نافرة، مؤخراتهن مكتنزة ومستديرة، وبطونهن لم تعرف الولادة بعد، وأجسادهن قطعة من عجين. تولَّى هو حجز غرفتين في الفندق، وتبارت كل واحدة منهن في تعليمي من فنون الجنس ما لم أتخيل وجوده، بلغت اللذة ذروتها مع الأولى وهي تعض بأسنانها وتخمش بأظافرها، وتتحكم في إيقاعاتي صاعدة وهابطة، حتى اعتقدت ألا مكان للثانية، ففاجأتني تلك وقد دهنت جسمها كله بالكريم شانتيه، وطلبت مني أن ألعق، وأن أتروى في قبلتها وبين نهديها، ضمن فنون أخرى، أبقتني صريع الفراش طوال اليوم التالي، حتى المغرب تقريباً.

لمَّا سألته كيف عثر عليهن، قال إن صديقه، ابن أحد القيادات، أوصله بهما. علاقات "هشام" بالسلطة جيدة، ونحتاج لخبثه ومكره وشخصيته الالتفافية، ليس لدينا من النقود ما يكفي لحملة إعلامية منظمة تتولى تجميلنا، ولا قنوات تعرض الروائع التي يبنيها مهندسنا، ولا ارتباطات تجعل الاقتراب منا مفخخاً، ولا مصالح يحميها موظف ما بسلطته ومعارفه، فكيف لا تعمل عقولنا بهدوء، وبانتظار اللحظة المناسبة، للتصارع على زعامة مفترضة، لم يسع لها الآخر يوماً، بكل ما يملكه في جعبته، من مشاريع وأعمال ونقود، تفتح بيوتنا جميعاً، وتجعلنا نضيف

لأرصدتنا الهزيلة في البنوك، ما نتقي به شر الزمن، إن لم نصل لمكانة نستحقها. بدا أنه اقتنع وهو ينتقل لتناول الغداء معي، حيث أني من فرط التعب والإنهاك لم أستطع مغادرة الغرفة، وأنا أقطع اللحم على مهل، وأزدرده مع الأرز والسوتيه والسلاطات، كنت أفكر بعجزي عن الحركة كلياً، وبثقل أقدامي وطراوتها، وكأني أغوص في رمل ناعم ملتهب، يلسع باطن قدمي باستمرار، كيف سأقود إلى المنوفية وأنا بهذه الحال؟

❖❖❖❖❖

في حالته العادية، لا يمكن أن يكون "لسهام" إلا وضعها السابق، وقت أن كنت أنا والآخرين موجودين، ووقت أن بذل هو مجهوداً جباراً في بدايته، ليصنع منا الطاقم الرائع الذي كان، أمَّا وقد أصر على الانفراد بالشركة، واستكان لقوته، وكان سعيداً أن الأمور تخلو له، وتسير في اتجاهه وحده، فقد جاءته أمثال هذه، تجيد نفاقه، وتسمعه العبارات التى يرغب، الكلمات المنتقاة بعناية وتهذيب، المكوث رهن إشارته، انتظار مايفكر فيه، لم تكن الأشد كفاءة ولا الأكثر مهارة، صار المعيار رضاءه ومزاجه، لو طلب منها أزيد لن تترد، ولو سحبها لأى غرفة لما رفضت، توجد دائماً، من إغراءها الخضوع، وهو لا يجيد العلاقات الحرة، فلماذا لا ينتهي الأمر إلى ما انتهى إليه؟

بدورها تعرضت الشركة لتجريف منظم من حيث لا يدري، وهو يقصد أن يجعلها كلها كفاءات منضبطة ومبدعة وملتزمة ونشيطة، هذا هدف أي رجل أعمال، لكن تطبيقه هو درب من المستحيلات، في سعيه الدؤوب لرسم مجتمعه المثالي ذاك، قام بعكس ما هو مطلوب، صفَّى الكفاءات حين فرض عليهم ما لا يطيقونه، هرب المبدعون وهم يرونه الرجل الأوحد، والقائد الأعظم، والمفكر العبقرى، لم يتحمله الموظفون وهو يجعل معياره نفسه والآن، الآن وليس سابقاً، وهو يصعد السلم درجة درجة، أرادهم أن يبدأوا من حيث انتهى، ونسي ثقافته وذكاءه اللذان لا خلاف عليهما، ودافعه الشخصي كونه صاحب المال، كيف أطلب من موظف أتى ليعمل ويتقاضى أجراً، أن يقفز فوق كل السنين والتجارب التي مر هو بها، حتى وصل إلى ما صار إليه، من عصبية، وعنجهية، وإلقاء أوامر، وآثار نعمة،

ولهجة لا تُرد، ومن أين سيستمد من هو تحته نفس سلطته، التي تجعل الباقين يخشونه، ويطيعون غضبه المتفجر، وحنقه المتسارع؟

حتى عندما أدرك خطأه وتراجع، اختار من هي تحت بصره وطوع أمره، وأكثرهم احتمالاً له، وتنفيذاً حرفياً لتعليماته، الأمر يحتاج خادماً أو منافقاً، وقد جسَّدت كليهما، وكان طبيعياً ألا تقدر على السوق وفواجعه، لأنها ليست أهلاً لهما، كانت تلك المتعبدة في محرابه، ذات السمعة الأسطورية، والتي هي وكأنها التصقت في مكانها بغراء لا يمكن فكه، قد قامت بأهم خطوة كنت أنتظرها، وأخطط لها، ولا يمنعني عنها إلا خشيتي من رد فعله، لو كانت قد أظهرت شرفاً كنا جميعاً نتوقعه، كنت في سبيلي أكثر من مرة لتسليط أحد أصدقائي عليها، ممن يجيدون عرض أنفسهم ولو كذباً، بعضهم كان تخصص عجائز، وكنت سأحفظه مايفعل، وأطلب منه تمثيل دور العاشق، لكن كان يعرقل خطتي نقطتان، أولهما ألا فائدة لأنها في الأغلب سترفض، أوصلتنا لمرحلة من القناعة أنها تحبه، ولا سبيل لها سواه، ولن تفرط فيه، ثانيهما رد فعله عندما يعرف، وهو المشهور بتهوره وجرأته وعدم هيبته، ولا تعقله، واختفاء فكرة الموازين من حساباته، معاركه كثيرة، ولولا توقفه غير المتوقع، وتراجعه عندما وجد الطريق ينتهي به للقتل، لما كان لأحد منا سبيل إليه، كل مايحدث مفاجئ، ويثير الاندهاش، لكنها فرصة لا يفرط فيها إلا جاهل، ما حدث قطعة من الجنة، وهدية على طبق من ذهب، ساقتها الأقدار، ومن لايستطيع استغلالها عليه وحده أن يتحمل العواقب، وبغض النظر عن اختلافي مع "طارق"، فكلماته حقيقية، ونحن بحاجة إلى "رفعت" وأفكاره المجنونة، رغم أني لا أراه أهلاً للقيادة، ولا يصلح لها، ولا يملك منها إلا الكاريزما، والحظ، أما ما يقال عن جمال أعماله، ومراعاته لطلبات السوق،

والإحساس به، والعملاء المستمرة التي تعرف طريقه، فذلك تأكيد على حظه السعيد، ربما يكون وراءه باباً للرزق، ربما قدريته تساعد، ربما اعتماده على ربه، ربما تدينه، في النهاية باب النقود الآتية خلفه مفتوح، لكنه أغلقه علينا لمَّا انفرد بالشركة، وحان الوقت أن نسترد كياننا وأوضاعنا وقوتنا.

وعدت المحامي خيراً، وجلست أدرس الوضع المُعقد الذي تسلمته، الفتى لايريد السداد، ويطلب إعادة نقوده، لأن عاهرته الجديدة لا تريد الشقة، بعد عام ونصف من شرائها، شريك "رفعت" القديم في العمارة يساوم لكي يشهد في المحكمة، حيث أن الشقة المباعة كانت من الجزء الذي يخصه، ويتحجج بما حدث لطاقم الشركة، وأن الخصم بلطجي، ولا أحد يعرف ما ستؤول إليه الأمور، المنفذين لا نعرف لهم إلا رقم محمول، والوحيد صاحب العنوان الثابت والمعروف هو "محمد عبد الرحمن"، المطلوب مني عدم قتله، تلك هي قاعدة البيانات السعيدة، التي يجب أن أتصرف وفقاً لها.

وأنا أمرر القلم دائرياً بلا هدف، على ورقة بيضاء، أخذت أفكر، أنهم فئات منحطة، وفي الأعراق والأغوار الواطئة، يوجد من البربرية مايكفي، لكي يبيعوا بعضهم البعض بسيجارة، وكوب من الشاي، وربما مجاناً، سأحتاجهم في كل الأحوال، فالمشاكل موجودة طالما الشركات قائمة، والمحاكم بطيئة، والعدل فكرة نظرية، التصادم معهم بلا طائل، ولن ينفعني، ولا يُقَربني من الهدف، وفي نفس الوقت، التقارب سيخيفهم، وسيعتقدونه كميناً لو طلبت لقائهم، في كل الأحوال، رائحة الجبن، هي أسلم طريقة لإخراج الفأر من مخبئه.

❖❖❖❖❖

أضاءوا الشموع وغنوا الأهازيج، ثم جعلوني أطفئها، وسط الصيحات والتهليل. رقصت "إنجي" بإبداع امرأة شعبية، بعد أن أخلو لها الساحة. تلوَّت حتى ذهب كل جزء منها في اتجاه، ثم أخذت بيدي وجعلتني أرقص بخطوات إيقاعية بسيطة، خوفاً من رجلي الجالس. حاولت بلا فائدة أن تجعله يرقص معي، فاكتفى بالتصفيق، بدا واضحاً خجله من موظفيه، وإن أحسست بعدم ممانعته. تكفلت الفتاة بالباقي، بعد أن اتفقت معي بنظرة متواطئة على ردها، في قادم الأيام..

صوروني مع التورتة الرائعة، ثم قسموها نصفين، وضعوا أحدهما في أطباق، وتركوا لي الباقي الذي يحوي صورتي سليماً كي أباهي به أهلي، كما طلبت. نزلوا بمستوى الإضاءة إلى الخفوت، في الروف المبهر الذي أقامه بتصميمه، ومجهودي. انسحبوا بهدوء إلى الداخل تاركين لنا المكان كي نتناجى، يدركون أن ثمة سوء حدث في الأيام الماضية، لكنهم لا يدرون كنهه. يبقى صوت خرير الماء، المنعكس على المصابيح العازلة، المحفورة في قلب النافورة، التي تتوسط المكان، يوشوش النسيم الرائع، الذي يداعب شعري المتطاير، المنفلت من حجابي الصوري. يبدي حبيبي ملاحظة ما عنه على استحياء، فأجيبه بثقة أني خلعته منذ تركت شركتي، وأن "الآخر" يحبه هكذا، ولم ألبسه اليوم إلا إكراماً لخاطره. رغم نبرتي الهادئة والواثقة فقد أبدى اشمئزازاً وتقززاً كنت أنتظره، سألني إن كنت ما زلت معه، فأجبته أن الرسائل متبادلة على فترات، وأننا ربما نمضي في الطريق لآخره. عاود السؤال مندهشاً والحيرة تقفز من عينيه:

.فماذا تفعلين معي؟

.لا مكان لي إلا معك، مكاني هنا وسأظل للنهاية.
.كيف؟
.ألم يدخل فيما لا يخصه؟
.كنت أعتقدِك من ذهب إليه.
.وهو من حاول اصطيادي.
.ما هذا البراز؟
.الواقع الذي لا تريد أن تراه.
.لعنة الله عليه.
. حبي لك قد بلغ مداه منذ ست سنوات، بعضهم لم تكن تراني خلالهم أصلاً.

يقر بخطئه، هل أذني تسمع ما تسمعه، أتمادى في قسوتي، اللعبة تسرني ولا سبيل إلى التوقف الآن، يفاجئني بجملة اعتراضية وكأنه يحاول تنبيهي:

.أنت لست الخادمة.
.لمجرد أنك ألبستني بذلة لن أصير السيدة.
.أفيقي قليلاً، هذه ليست قدراتك.
.قدراتي مع من هو مثلك.
.يا الله.......... ما الذى يجبرك؟
.يشتريني بوظيفته ونقود أهله.
.اختيارك!
.لا بدائل لدي، أريد الزواج والإنجاب، وأحبك ولا عيش لي بدونك.
.تقريباً أنت تتحولين لعاهرة.

يقولها بانفعال خائف أصمت أمامه طويلاً، كان يقول لي أن الحياة قاسية، ما الذي تغير الآن. أنظر في عينيه مباشرة، فتسكرني روعتها

وصراختها والتماعة الغضب فيها، أترك لنظرتي أن تفعل المثل وأطلب منه أن يرقص معي قليلاً، ولنؤجل الحوار. يحاول الإكمال فأفهمه أني بحاجة للرقة والحنان وليس التشاجر معي كالعادة، يبدو فاهماً لما أفعل لكنه يطيعني، قبل أن يرتسم الغرور على شفتي يؤكد ظنوني وهو يشرح لي ما أصنعه معه، أئن بنعومة موافقة وأنا أرتمي عليه، يظن أني سأترك له مسافة بيننا فألتصق به، يبدي قدراً من المقاومة فأجيبه بمثله من العناد، يكاد يدفعني فأغمغم بما لا أدريه بصوت ناعس يحطم كل حصون مقاومته ويأخذني بين ذراعيه، أمد رأسي لترتاح على صدره، وأشبك أصابعي بأصابعه، أدفن نفسي فيه وأستقر تماماً بين أحضانه، وأتخيل أنه لو مر علينا سيف بالطول، لقطعنا سوية من كثرة التصاقنا، فأبتسم بجذل. أهدهد كل خطواته لتصير أبطأ مهما كانت هادئة، وأتمنى أن ينساني الزمن، الأغاني جميلة، وهي أغانينا منذ فترة، وكأنه هو من اختارها عمداً، يصدح "هاني شاكر" بثلاث مقطوعات متواصلة، يطرب خلالهم الفضاء بصوته وقوة نبرته ووضوحه ورومانسيته، أخافه ولا أجرؤ على الحركة خشية أن أفقد وضعي الملكي بين أحضانه، أعوّل على أنه لن يفعلها فإذا به يصر على الانتقام، كنت قد بدأت في تقبيل صدره وعنقه وملابسه وأنفاسه والهواء الذي يحيط به، قبلات صغيرة جداً وشديدة النعومة خشية أن يفيق ويبتعد، لكنه كان يضمر شيئاً آخر، تبدأ أغنية أعرفها حق المعرفة من مقدمتها الحزينة، لا أملك وقتاً للعتاب، أنظر إليه ملتاعة، مندهشة، مذعورة، الأغنية تتحدث عن امرأة تحاول أن تستبدل حبيبها، فيسألها رجلها سؤالاً اعتراضياً: بتحبيه؟

تتسارع أنفاسي وأنتفض، فأفاجأ أني بين ذراعيه، وفي أجمل أحلامي، أحاول التملص فلا يفلتني، أشعر بالفخ والكلمات توشك أن تُقال، أتلوى

بعد شهقتين وأطلب منه إغلاقها فيطلب مني الاستمرار، أكرر الطلب فيجذبني له أكثر، أشتد عناداً فأجدني في عمق صدره ورائحته، أحاول الثورة عليه والعدو ناحية الجهاز اللعين فيشدد قبضته حتى يكاد يؤلمني، أتوسل إليه:

. أطفئ يا أحمد.

. اسكتي يا سهام..

تبدأ دموعي في النزول فأحس بدموعه أيضاً، تنهمر من عينى شلالات حارقة فإذا بناره أكثر حرقة، أكتوي بنار الجحيم، وأبدأ في النهنهة، والأغنية القاسية تمضي ببطء قاتل، لأفاجأ بنهنهته أيضاً، ماذا فعلت، ولماذا لا يأتي الموت، لماذا لا تنشق الأرض وتبتلعني؟ يدور ليمعن في البعد عن مصدر الصوت، أتوسل إليه ثانية، أئن، يبدو مستمتعاً بقسوة هو أول ضحاياها، فلا يبقى لي إلا مزيداً من الالتصاق به، أعرف خطوته القادمة، ولن أمكنه منها، يبدأ في دفعي، فأستميت عليه، وأطلب منه احتوائي، أقسم له أني لن أتركه مهما حاول، يدور بي كثيراً كفراشة متعبة، وترتفع يده بيدي، يعلو رويداً رويداً فأتزحزح إجبارياً مع الرقصة، يفلح فيما يريد، يمضى قدماً بقوة ناعمة، وقاهرة، ومذلة، مع تقدم الأغنية، قلبي يكاد ينفطر من كثرة البكاء المكثف وصعوبته، أدور حول نفسي وأنا أتشبث بيديه التي لا زالت باقية، بعد أن فقدت حضنه وصدره وضمته..

أدور وأدور وأدور، ليفلت يدي ويتركني، في العماء والظلمات، وخطواتي التي هي بلا نهاية، تخفت الأضواء، وأحس بجسده وروحه تبتعد، أخطو لعالم غير العالم، وأكاد يغشى عليَّ، أفقد قدرتي على المقاومة لكني ما زلت أتشبث بالأمل، وأشم الهواء مشبعاً برائحته، رغم كل أزهار الفل

والياسمين التي تملأ المكان بعبقها، ما دام موجوداً فأنا موجودة، يتناهى إلى أذني صوت خطواته التي تمضي والباب الذى يُفتح ثم ينغلق، يبدو أنه قد خرج. هل خرج أم رحل، أنهار تماماً وأفقد كل قدرة باقية، تقترب الأرض سريعاً وأسمع صوت ارتطام جسدي بها، لست نادمة ما دمت معه، وأهلاً بالموت إن كان هو آخر من أراه، على الأقل لم أقطع شراييني، كما كان يراهنني.

❖❖❖❖❖

كنا دائماً ما نتناقش حول الرجال الناجحين، أصحاب الوسامة والعقول النابهة والشباب، أمثالنا طفرة حتى في عالم رجال الأعمال، النموذج الأنجح والأكثر انتشاراً هو ذلك الكائن المتجهم ثقيل الدم شديد الأناقة، المثير للنفور والاشمئزاز، والذي يرتسم حقده وغله وما عاناه في رحلة صعوده على ملامحه، ومع ذلك لن يعدم من ترتمي تحت قدميه، وبكثافة، فما بال أمثالنا، أفكاري هذه لم تك لترضي "رفعت"، لكنه لا يستطيع إنكارها، كان يقول إننا سنصل لهذه المرحلة إن لم نهزم بإرادتنا قليلاً في معاركنا، ونتنازل نسبياً لأعدائنا، حتى لو كنا أصحاب حق، وإلا سترتسم غلظتنا على وجوهنا، وينحاز لصف الزواج مرة واثنان وثلاث، بدافع ديني بحت، على حين أفضل أنا العلاقات الحرة، بلا قيود، ولا التزامات، هذا الأبله لا يدري ما تفعله أولئك اللعينات بتلك الورقة، ولا ذلك المجتمع الذي يدرك قذارة المرأة، ثم ينحاز لها على طول الخط، ليشجعها على المزيد، كان ذلك اعتقادي فيه لكنني لحظة مراقبة الفتاة والأرض تميد بها، بدأت انتبه لكلمات المحامي، أنه لا يبجله من فراغ، أنه فعلاً أكثرنا جبروتاً وقوة وإن ادّعى الثقافة والرومانسية، إن أمثاله خطر، ليس مثل الباقين الذين تمنحهم السلطة شراسة وتوحشاً، قوة وعجرفة، إصراراً وعربدة، ويزيده المنافقون من أمثالها اعتقاداً بأنه يمثل الحق المطلق والنور الرباني، وإنما هذا يزيد عليهم بتدين مختلط بثقافة، ستجعله دوماً يعتقد أنه الصواب الذي لا يأتيه الباطل، الضربات التي لاتقتل تُعلم، وهذا لم يقتله شيء من معاركة المتتالية، ويمتلك من القوة الناعمة ما نستطيع به التخفي وراءه بمنتهى السهولة، ولدينا نظرية في عالم المال والأعمال، أنه

ليس مهماً قعر الهاوية التي ستنحدر إليها يوماً، وإنما حجم القفزة التي ستعاود بها الارتفاع ثم التحليق، ماحجم قفزته، وأين سيكون موضعي منها؟

إن كان قد عاد لقسوة القلب والبرود اللذان ميزاه في أشد سنينه نجاحاً، وأقر بفشل "25 يناير"، بما يعني احتقاره مثلي للمجتمع والفقراء، وقضت "سهام" على البقية الباقية من نظريته، المتعلقة بالعدالة والمساواة والرفق، والبحث عن أجمل مافي الناس، وكيفية جعل العالم مكاناً أفضل،.......... إلخ من المفردات، التي لا يتحملها عقل، ولا يقرها منطق، ولا يسمح بها توالي الأحداث وسرعتها، وتمكن بمنتهى الهدوء، وبقوة ناعمة، باطشة وفاتكة، من إهانة الفتاة وتعريتها، كشف قذارتها وفضحها، فكيف سيمكن اللحاق به أو حتى مجرد الصعود إليه؟

بدأت تفيق والموظفات متجمعات حولها وهو يراقب من بعيد، أبعد الذكور وترك الفتيات يرشونها بالماء البارد والعطور، يضمخون وجهها ويصفعونها برفق، ينادون عليها ويدلكون حاجبيها، أبدت استجابة فأولاها ظهره واتجه ناحية الباب المفضي للمدخل الرئيسي للشركة مصطحباً معه من أراد النزول دون أن يجيب عن تساؤلاتهم بشأن ما حدث مكتفياً بردود مختصرة وإجابات مقتضبة، كنت قد وصلت متأخراً، ووقفت أراقبهم من غرفة الاجتماعات المطلة على المنطقة المكشوفة، خلف الزجاج القاتم، والذي لايعكس من بالداخل، فلم ينتبه لوجودي. حينما بدأت أستوعب الوضع كان قد شق طريقه، هممت أن ألحق به لولا صيحتها الملتاعة، كانت تسأل عنه بلهفة وبعبارات قصيرة ومرتبكة ترددها حيثما تفق، ليست القاسية رابطة الجأش التي اعتدنا عليها. من المتعارف عليه أن من جاءك للعمل بعد سنتين متصلتين قضاهما في شركة أخرى فلا تقبله،

ولاءه لن يكون لك، النساء يكفي معهن سنة ونصف، خلاف ذلك أنت حالم. قاعدة كنت أحاول تجاوزها أحيانا فأعادتني هي إليها، أشرت لـ"إنجي" فصرفت الباقيات، وهاتفته طالباً منه أن ينتظرني، خرجت لها مسلماً وطالباً منها الهدوء، فسألتني عنه والجزع يلمع في عينيها، ثائرة من حُمَّى، متوجعة من ألم، ذاهلة ولا مبالية بما حولها. خشيتها وأجبتها بما يفيد رحيله، خرجت منها الفتاة الشعبية التي كانتها دوماً وانطلقت في مشاعرها بلا تحفظ، هدأت لحظة ثم صرخت ولطمت وشقت جيبها وحجابها ومزقت ملابسها الأنيقة، أسرعت الفتاة بإحتضانها طالبة منها الكف عما تفعل، أحاطتها بذراع حديدية سمرتها في مكانها حتى أعادتها للأرجوحة، لم تفلتها إلا بعد تأكدها من هدوءها. غمغمت الأخرى منتحبة أنه أذاقها شهد حبه، ولذة القرب في الأيام الأخيرة، قدم لها فيهم ما لم يقدمه في عمره السابق كله، وأنها لا تستطيع فراقه، ولا التخلي عن إثنتي عشر عاماً بهذه البساطة. عادت تصرخ في أحضان رفيقتها مولولة ذهابه، صرخات رفيعة قصيرة متلاحقة، تسأله فيها أحياناً لماذا ذهب، تقسم في الأخرى على الانتقام، ذكرتني بابنة العاهرة التي أرادت القضاء عليّ لمَّا لم ألتفت إليها وتندرت على قبحها في مجالسي الخاصة، هذه أسوأ، خانت وتريد الانتقام، لو تمكنت منها لما رحمتها، لكني مضطر لادعاء التعاطف. وسط حقدي اللانهائي لاحظت أن مقدم رأسها خالٍ من الشعر في بعض مواضعه، بما ينبئ عن الحالة النفسية التي صارت إليها، رويداً رويداً حاولت الحفاظ على جمود وجهي حتى لا يظهر أثر الشماتة، لو رفع يده عنها، كما يشي تطور الأحداث، فسأكون في حاجة ماسة إليها.

تجاهلت المصعد وهبطت السلالم جذلاً ومتأملاً ما ساقته الأقدار لي، السماء رائقة ومزدانة بكتل ضخمة من سحاب أبيض ناصع، والبرودة

خفيفة لاسعة في جو خريفي رائع، لا شيء ينبئ عن ليلة ليلاء أعيشها على أعصابي، لكن خير الطرق على الحديد حال سخونته، ولا توجد فرصة أفضل لإخباره. وصل بعد دقائق فتبادلنا التحايا المعتادة، نبهته أني كنت بالأعلى ولم يلاحظ، فسألني عن توقيت حضوري، أخبرته بما فاته وأبديت ملاحظة ساخرة بمدى جبروت ما فعل، لم يبتسم ولا راق الأمر له، أجابني بما يفيد تقبله العزاء فيها، لكن ليس الشماتة، فتنهدت طويلاً. صمتٌ وشبح ابتسامة ماكرة يلوح على شفتي، سألني بوضوح وخشونة فألقيت إليه الأمر كله، "طارق" طلب مني التخطيط وتأجيل التصرف، بتعليمات منك وبموافقتك، بلا دماء، ألقيت إليه الملحوظة الأخيرة ولم أكبت ابتسامتي، بل أحسست بها تخرج مني لزجة، ورأيت أثرها في تعابير وجهه، لكني كنت أحتاج لتوضيح الأمور، فلا أحد يعلم ما سنصل إليه، ولا أريده أن يدّعي البراءة فيما بعد، سأهاتفهم وأحاول التفاهم معهم، وربما أقابلهم، لو استدعى الأمر.

تأملني لحظة، ثم سألني عما هو مطلوب منه، فطلبت منه الاستعداد، وربما حضور ذلك اللقاء، وإن من وراء ستار. بان من اتساع عينيه ما يعتمل في نفسه، قال بعد فترة أنه ليس بارد الأعصاب هكذا، ولا يستطيع أن يضمن نفسه، وما قد يُقدم عليه. لو أسمعني إجابة أخرى لشككت فيه، يبدو أن التجربة علمته، وأنه هذه المرة سيتركني حقاً أتصرف كما أشاء، ولن يتدخل كعادته. قرأ ما كنت أفكر فيه فسألني إن كنت أريد قول شيء، هززت رأسي متحججاً بأني كنت أُقلّب الأمر. طلبت منه ألا يهتم وسأتصرف أنا فيما هو قادم، تجاوزت الأمر برمته منتقلاً إلى ما حدث بأعلى منذ قليل، زدته أني لست شامتاً في الفتاة، لكن رده غير كافٍ، ولم يعجبني، ولو كنت مكانه لما ترددت في قتلها، نساءنا أملاكنا، والخونة لا

تفتح لهم الطرقات بهذه البساطة. يتأملني كغر ويرد بتأني، يعقب بكثرة سكاكين الذبيحة عندما تقع، وهو لم يقع بعد. إنها "سهام"، وهو يقيم للعشرة السابقة وزناً، إن كانت قد أهانت نفسها فلن يكمل هو عليها، إنه قتلها بالحياة باقي عمرها، والعنف لغة العاجز، أحييه وأوليه ظهري، أشق طريقي لسيارتي وأنا أهز رأسي ساخراً، هل يتخيل أنها ستتركه، أو أن قصتها ستنتهي بهذه البساطة، أكرر كلماته بسخرية عن العشرة، وعن إهانتها لنفسها، عن قتلها بالحياة، وعن لغة العاجز، جلسة محاكمة الفتى الذي سرقه، وجرح محاسبه، وأهان امرأته، اقتربت، فهل سيظل على مثالياته هذه، إن جنحت الأمور للنحو الطبيعي، الذي يبدو أنها سائرة إليه؟

❖❖❖❖❖

منى اسماعيل

انهمكت في صنع المكرونة بالبشاميل، مع شرائح من صدور الدجاج البانيه. دقائق وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي لمَّا سمعت تعليقاً مبهماً بصوت زوجي آتياً من بعيد، عن جمال الرائحة وطزاجتها. مازال أمامي وقت، ولو لم يأت "شعبان" في موعده فسنذهب إليه، سأجبرهم جميعاً على النزول، وأولهم "رفعت"، ونصطحب "داليا"، ونخطو للفتى حتى بيته، مثله مثل زوجي يحبون طعامي، وسكوني، وتعقلي، ودفء عشرتي، ذلك الدفء الذي جعلني أنتظر بمنتهى الهدوء نهاية قصته مع "سهام". هذا رجلي وأعرفه، ولم يكن العناد إلا ليزيده صلابة، وربما هدمت بيتي من أجل حشرة مثلها، الرجال أطفال كبار يجب احتواءهم دائماً، وقد زاد أطفالي واحداً، وبعد كل حساب، لن يصح إلا الصحيح.

قمت أجهز نفسي، وأبدل ثوبي، وأعتني بهندامي وزينتي، وأنا أمر بقلم الكحل فوق عيوني بدأت أتنفس بهدوء، وأجبر عقلي ألا يعمل، كانت توقعات المحامي قد صدقت وبدأت "سهام" في سرقتنا وتحصيل الأقساط لحسابها، من لم تستطع التحصيل منه من العملاء كانت تحرضه على فسخ عقده، واسترداد نقوده، وتعطيه كل عناويننا، بما فيها عنوان البيت.

لمَّا بدأ زوجي يتميز غيظاً، ويعد العدة لمهاجمتها، وكأننا لا ينقصنا ما نحن فيه، هاتفتها وأنا أتوعدها، فوجدتها قد أغلقت السجل التجاري والبطاقة الضريبية، دون علمنا. استعانت بكل الطيبة والمسكنة اللائي كانت تلجأ إليهما عمرها كله، وقالت إنها خائفة، إنها تدرك حجمها جيداً، وكانت تعتمد على "رفعت" ضد العملاء، الآن هي بمفردها في البرية، وتلتحف العراء. لم أتمالك نفسي من السخرية وأنا أسألها إن كانت تصدق نفسها،

إن كان هذا هو السبب الذي جعلها تأخذ ما ليس لها بحق، إن كانت "داليا" التي أجادت مقابلة الناس، وتلبية طلباتهم، وتغطية غيابها، قد ألقت بمسئولية عميل واحد عليها، لدرجة أني لم أتدخل مطلقاً، ولا وجدت الأمر يستحق. بدا أن كلماتي قد أغاظتها أكثر، بكت وقالت إن فراقي وفراق شركتها يضنيها، إنه المكان الذي تعلمت فيه، وأنها ستبدأ ثانية من الصفر، بعد هذا العمر، إنها مكافأة نهاية الخدمة، والرقم لا يعني لنا شيئاً، وأن ما حصل عليه "شعبان" في عمليته الأخيرة، يفوق ما نهبته. لم أشأ مجادلتها، ولم أجد لذلك فائدة، في الخلفية كان صوت أمها مهدداً إن حاول زوجي فضح ابنتها، دون أن أعلم بما سيفضحها، وإن خمنت.

جاء "رفعت" على صوت المحادثة، قبل أن يتدخل بعصبيته المعتادة والمتطايرة، أشرت له مهدئة، ربتُّ بيدي الحرة على صدري مستعطفة ثم رفعت سبابتي على فمي طالبة منه الصمت حتى أفهم ما تقوله محدثتي، انتظرت حتى انتهيت من المكالمة، وتأكدت من إغلاق الخط، وناقشته بهدوء. كان ينوي فعلاً تجهيز مبلغ أو هدية ذهبية بقيمة أعلى مما سرقت، بل وأرسل لها في عز معركتهما الأخيرة نقوداً أكثر من مرة مع "داليا" لمَّا سمع أنها مريضة، ذكّرته بقاعدة كان دوماً ما يقولها، أن من يجلس في كرسي القيادة هو أكثر من يتعرض لأخطار الحوادث، مشاكلنا كثيرة ومعقدة في الفترة الأخيرة، وهي أتفه من أن نشغل أنفسنا بها، وما سننفقه من وقت وجهد لن يعود علينا بأي فائدة، لا هو سيوافق على حبسها، ولا هي سترد شيئاً مما سرقته، ستستميت وأهلها المتبجحين حالياً توسلاً ودعاءاً، وسيرضخ ويتنازل في النهاية، فما حاجتنا لهذا الصداع؟

كنت سعيدة لانتهاء تلك الغمة، ولا أرغب في ذيول لها، مهما كان الثمن، وأريد أن نلتفت لحياتنا القادمة، وكفانا ما سبق، وقد حادثت "طارق" أكثر

من مرة، ووجدت رأيه من رأيي، فانتهزت الفرصة، وطالبته بالتسويف، والتزام الهدوء، وتنبيهي في أقل الظروف، إذا قرر زوجي القيام بإحدى غزواته المفاجئة عليها، ولم يستطع له هو صداً ولا دفعا.

أنا زوجة "أحمد رفعت"، فمن هي تلك البلهاء، التي ستملأ أي فراغ، قد أكون تركته وأنا لا أدرى، إن كان الأولاد، أو العمل، أو مشاغل الحياة، أو امتلاء جسدي، أو التعود،.................. إلخ من تلك المفردات، التي تظن أي متخلفة منحطة، معتدية وعدوانية، خاطفة للرجال، أنها يمكن بها أن تأخذ مني زوجي، فلديَّ من الأوراق ما لا يمكن لأى أخرى مقاومته، أنا أول حبيبة خطا باتجاه بيتها، وتزوجها، أنا أم الأولاد وصاحبة الذكريات، أنا شريكة الشقاء وتوأم الصعود، أنا بلسم الجراح ومهجة الفؤاد، أنا أعرف دوري وأجيد الجلوس تحت قدميه، بأفضل من مئة أفعى تفكر في التسرب إليه، أصمت في حضرته، وأسمع كلماته، أتجاوز غضبه، وأنتظر هدوءه، أراجعه في الأمر، وأرده عن الغي، وأنبهه للمخاطر، أنا الزوجة والحبيبة والأم والصديقة، أنا الأنثى العاقلة التي يقول عنها دوماً أنها هي الحضارة، إني أدرى الناس بزوجي وحبيبي ووالد أطفالي، لمن سأترك كل هذا، ولماذا؟

كنت متعاطفة مع "شعبان" وأمه، في كفاحهما المرير، واعتبرته أحد أشقائي، وقمت بدعوته لبيتنا. راجعت نفسي مراراً وتكراراً فيما سأقوله، لأحاول إعادة لم الشمل، ووأد الجراح، والقفز فوق الآلام. يعلم الله أنه ما عاد بي طاقة لمزيد، وأن ما أفعله هو مجرد محاولة للحاق بآخر عربة من قطار "رفعت"، المندفع بأقصى سرعته، نحو الهاوية، ويكفيني شرف المحاولة.

❖❖❖❖❖

كان يهدف إلى جعل اللقاء قاسياً، خسرت القضية بعد عامين من الانتظار، وخسرت معها نقودي وكرامتي، تغيرت في النهر مياه كثيرة ولا زلت لم أتغير، طلب مني عدم المضى في هذا الطريق، فعاندته ومضيت، قال إن الخصم أكثر تمكناً منا، وموقفه أقوى، لسابق صدور حكم لصالحه قبل الحادثة بيوم واحد، ولخلو الأوراق من أي دليل إدانة، سوى تحريات المباحث، لم يقدموا ولا متهم، ولم يتتبعوا ولا مكالمة تليفونية، ولم يقتفوا أثر أي بلطجي من المنفذين، زدنا الطين بلة لمَّا لم أذهب بامرأتي إلى المحكمة، كان لديّ حساسية من الأمر، الشك في الجنايات كافٍ، فماذا سيفعل قاضٍ يميل للتبرئة، أمام هذه القضية المهلهلة؟

لم تنفعني دعواتي ولا ابتهالاتي، ولا غضي البصر أمام أي أنثى، ولا كل طرق المقاومة بحبات المسبحة، التي كانوا يسخرون منها، بدا أن الله، كلي القدرة، الذي جلس في عليائه، يشاهد الشباب يموتون في "رابعة"، "النهضة"، "محمد محمود"، ولا يحرك ساكناً، يريد هزيمتي، أمضيت الطريق كله عائداً من العباسية مقر المحكمة، إلى بيتي بمدينة نصر، سيراً على الأقدام، صامتاً من يأس، قانطاً من حيرة، مغموماً وذاهلاً عما حولي، حتى أني لم أبالِ بالمطر الخفيف المتواصل، وهو يطرق سمعي، ويدق رأسي، ويلهب وجنتاي، وأطرافي.

وطأت بإرادتى مئات البرك الطينية الصغيرة التي صنعها الماء، تعثرت لا مبالياً في عشرات الحفر المختفية التي تزخر بها الشوارع، تنفست في هذا اليوم الشديد البرودة ناراً حارقة تخرج من فمي وأنفي وأذناي، لم أضع يدي في جيب معطفي تباهياً كالعادة، ولا تقافزت حول بقع الماء مبتهجاً

كما أفعل كل مرة، سرت في خط مستقيم، دست الأرض لأضع ثقل جسدي كله فوقها، تجاهلت الرصيف من طريق السيارات وصممت أذني عن أبواقها، كف لساني عن الذكر، توقف عقلي عن العمل، استعدت منظر زوجتي وهي مستلقية على سرير المستشفى، خائرة القوى، مضعضعة الحواس، غارقة في بولها وآلامها، هل قام هذا المجنون بكل ما فعل من أجل الآلآف الستة، ألم ينفق أضعافهم؟ ما الذى كان ينبغي أن أقوم به ولم يحدث؟ هل كثرة النساء في مكتبي نقطة ضعف، هل كنت مصدقاً أني سأصنع طاقماً لشركتي دون تمييز أو مبالاة بجنس أو نوع، وأضع على رأسه نساء، وفي بلاد كبلادي؟

ذهب رفاق الدرب وأتت الوحدة بأبشع صورها، كنت حريصاً فيما مضى أن أصنع حولي أطقماً، تتغير باستمرار، فلا أبالي بمن يبقى أو من يذهب، أقر أن الأقوى سيفرض وجوده ومهارته، ومنذ فشل أول طاقم ورحيلهم، بكل الحب الجارف الذي كنت أكنه لهم، وكل الصداقة التي كانت، وكل السحر الذي عشناه سوياً، لم أضع أمامي معياراً إلا العمل والتركيز وقوة الاحتمال، أجبرتني الدنيا على الإقرار أن المجتهد يتفوق على الذكي، حتى وإن لم يعجبني ذلك، وسلمت شركتي للأكثر احتمالاً، وخسرت أناساً كـ"هيثم" ورفاقه، من أجل "سهام"، فانتهيت إلى ما انتهيت إليه.

طاووسي أنا، مختال، معجب بنفسه وبثقافته، جريء الأفكار حد الجنون، مندفع للتطبيق دون حرص ولا تروي، ولا تدبر وأناة، نقودي تحت حذائي لا فوق رأسي، لازلت المعماري والفنان، لا الواقعي ورجل الأعمال، أمور قد تفتن النساء في البدايات، حد الهوس الذي يجعلهن ملتصقين كالعادة بأطراف ثوبي، لكن بمقاييس الاستمرارية، والسوق والتجارة، والشح والبخل، والجبن والتخفي، والملك والرياسة، حتى وإن

كنت لم أعرف الهزيمة قبلاً، ها قد جاءت في أشنع صورها، وفي كل المناحي.
"طارق" الذي لم يحضر الجلسة، وتركني لمن أشاء من المحامين، طلب لقائي على وجه السرعة، حتى لا تتدهور الأمور أكثر، ثم بعث لي برسالة، لمَّا لم أرد على اتصالاته المتكررة، خصمنا الذي لم يحضر الجلسة إلا في نهايتها، ودخل القفص لثلث ساعة أو أقل، مرتديا بذلة ضيقة تبرز عضلاته، والذي لم أشاهد وجهه، ولن أعرفه لو قابلته مصادفة، خصمنا ذاك أرسل محاميه في الليلة السابقة طالباً التصالح، واتفق على رد ما أخذه، لكنه لم ينفذ، كان يؤمن نفسه، ومحاميَّ يدرك ذلك، الآن عاد سيرته الأولى، يريد نقوده كاملة ولا علاقة له بما سُرِق، بيده حكم غيابي ضد امرأتي، انقلبت الأوضاع، وصارت الضحية متهمة، لا مجني عليها.
صاحب العمارة الأخيرة التي كنا نسوّق لها، وشريكي القديم، صعيدي من أبناء قنا، بلغه ما فعله الفتى بنا، فرفض أن يشهد في المحكمة أنه أعطاها إذناً بالتسويق، طلب مني أن أنجو بامرأتي، قال إن الثأر لديهم ينتظر حتى يكبر الإبن وينتقم للأب القتيل، قص حكاية عن فتى ما من بلدتهم، جاء بعد ثلاثين عاماً ليقتص لسلفه، سأله خصمه الموشك على الموت، عن سبب مجيئه مبكراً، صمت محدثي برهة ثم أردف وهو يتحاشى النظر في عيني، كل ما هو آتٍ قريب، عليَّ أن أخرج بها من ورطتها، وأرد للفتى نقوده، وأتجاهل ما فعله، أن أصبر وأنتظر، وسيحين أوان القصاص حتماَ!
أيده المحامي الخاص بي، شريكي الحالي وصديقي القديم، إلا لو تركته يتصرف وفق ما يري، بما يستتبعه ذلك، فيما بعد، تجاهل سؤالي عن الثمن، وقلب الجلسة كلها للحديث الساخر عن "سهام"، اتصلت بزوجته مدعية أني كنت أغازلها، وأرغب فيها، وأضايقها، وأساومها عن نفسها، وأنها ظلت تتمنع، حتى لم تعد تتحمل، وأن خروجها معنا، وسهراتها،

ونظراتها، وأفعالها، كانت لمسايرة الوضع، لمَّا رآني راغباً عن هذا الهراء، ولا رغبة لي في سماع البقية، لم يستطرد، قال إن من الواضح أن ما فعلته معها في عيد الميلاد قد أوجعها، ولو كنت قد تصرفت بأي طريقة مختلفة، لكان أفضل، كانت لتتحمل الضرب أو الركل أو الصفع، لكن ليس الإهانة هكذا، وبكل هذا الاشمئزاز، توقع أنها لن تصمت، ولا يوجد أسوأ من امرأة غاضبة ومهجورة، طلب مني تجهيز كل الأوراق التي لديَّ ضدها، بما فيها أي أوراق تحمل توقيعها، كان سعيداً بانتصار وجهة نظره، ولم يحاول أن يخفي، لكنه بخلاف "هشام" كان غير شامت، لاحظ أني تراجعت، وبنفور، سألني إن كنت قد لمستها حقاً، وهل أشعر بالذنب، لم يعجبه ردي حينما أخبرته أنه لا يقدر على نسيان العشرة، وأيام الكفاح، والمواقف المشتركة، إلا ابن الحرام، بدا واضحاً أنه قد أيقن أن الزمن تجاوزني لمَّا هز رأسه ساخراً، ورسم ابتسامته الهازئة على جانب شفتيه، أخبرني ببطء وتمعن، أن "سهام" ابنة الحلال، زيادة في النكاية، وفجراً في الخصومة، وإثباتاً لدناءة الأصل، أعطت خصمي عنوان بيتي، لكي يلقوا القبض على "منى" منه، لم ينتظر حتى أبتلع ريقي، أو أتجاوز الصدمة، أو يخف الجمود الذي صرت إليه، هاتف"هشام" أمامي، طالباً منه التحرك، وهو ينظر إليّ، في عمق حدقتيّ، ويطلب مني بعبارة سريعة، في شبه غمغمة، قسوة القلب التي افتقدتها منذ الثورة، والإفاقة للعالم الذي ينهار من حولي.

دخل الغزاة أرضي، واحتلوا مدينتي الجميلة، استباحوني وفرضوا قانونهم، وكل التاريخ الذي صنعته لم يفلح في مواجهة الانهيار الذي صارت إليه الشركة، لمَّا انفردت بها وحدي، احتاجت للتطور، وتحججت أنا بالاستقرار، وأتيت بالأسوأ والأحقر والأضعف، كي لا يكون هناك غيري، فانتهينا إلى ما انتهينا إليه.

رفعت سماعة الهاتف مخاطباً "شعبان"، تبادلت معه المجاملات المعتادة واستعدت منه معلومة حول عرض "أحمد أبو النصر" نفسه ورجاله على الشركة إذا احتجناه فأكدها، شكرته وحادثت الآخر من فوري، كان يعتقد المكالمة استمراراً لمسلسل البذاءات الدائر بينه وبين الموظفين حينما كان يهددهم فيسبونه، توقف لما علم أنني أريده في عمل، تظاهرت بأني لا أعرف له اسماً، وشى صوته بريبة تماثل لهفته حينما سمع الرقم الذي أعرضه، طمأنته أني لا أريد مقابلته، لكن حين بدأت الشرح قال بأن الأمر أكبر من قدراته، واشترط وجودي معهم، حرص على أن يكون لقاءنا الأول بصحراء الشروق أمام المدخل الأوسط في الجهة المقابلة لمحطة الوقود، حيث الطريق مفتوح من جميع الاتجاهات، ولا يمكن اصطياده بسهولة، جعلني أنتظره لثلث ساعة، لمحته يدور ومن معه حولي مرتين أو ثلاث قبل أن يهبطوا من سيارة العمال الربع نقل العادية الصغيرة والموجودة بكثرة في مكان كهذا ويستقل سيارتي بغتة، رفعت زجاج سيارتي الفيميه لكي يعمل التكييف ثم خفضته لمَّا لاحظت خوفهم، قدت بهدوء وبساطة حتى وصلنا وجهتنا، انتزعت من الرجل صورة لعقد الشراكة القديم الذي كان بينه وبين "رفعت" ولم يرضخ إلا حين طالبته بتنفيذ تهديده واستدعاء الشرطة على الرغم من وجوه رفاقي المتقعة، سأثبت حالة وسأجعلها نزاعاً على الملكية وسأطعن في العقد الذي كان معه أو يمكنه منحي صورة من العقد القديم لتأمين موقفي وسنخرج جميعاً رابحين، ما لا يُزع بالقرآن يُزع بالسلطان وما لن يفعله السلطان سيقوم به رجالي، والمعنى واضح، تضرجت وجوه من معي بالدماء وعلا الرضا محياهم

واكتسبوا ثقة يحتاجونها، استمروا جذلين فرحين غير مصدقين وأنا أصحبهم لأحد مطاعم الوجبات السريعة وأنقده مبلغ لمعت له عيناه، قال إنه لم يكن يصدق وحتى آخر لحظة كان ينتظر هجوماً من الشرطة عليهم، لمَّا طلبت استدعائها في منتصف الحوار أيقن أنه وقع في الفخ وكاد يهرب بمن معه ولم يتخيل أني بهذه الجرأة، استنتج أن لي علاقات وأقارب مهمين مثل خصمي الذي هو سبب تعارفنا، طلب عملاً حقيقياً لكي يستطيع مساومتي على رزقه هو ورفاقه.

تأملته قليلاً بشعيرات رأسه الهاربة من الجانبين والمتمركزة في المنتصف وملامحه الثلاثينية وطوله المتوسط وقامته المربوعة، هل يعرف هذا الحثالة كيف يفكر، أنا نفسي لا أصدق الجرأة التي واتتني، لكنها سنوات الانتظار الطويل بعيداً عن تلك الشركة التي صنعتها بيدي مع "رفعت"، وتركتها حينما ظننتها تغرق، فأدبتني الأيام بالعمل لدى من لا يصلحون خدماً لي، ظللت أقلب الشاي وأراقب البخار يتصاعد، تنحنحت وأنا أوضح له بهدوء أن مايتحدث عنه هو أصل المشكلة، خصمنا لا أقارب له، وقد داهمت الشرطة منزله فهرب منهم، وفر معارفه المزعومين، القضية تمت إحالتها إلى الجنايات، وهناك أمر بضبطه وإحضاره، هو وشخص يدعى "أحمد ابو النصر"، هل تعرفه؟

احمراره، وصدمته، وتوقف المشروب بين يده وفمه، واشاحته بوجهه، كلها إشارات أنبأتني أني أصبت أهدافي كلها، ألقيت بنظرة على رفاقه ومططت شفتي، أكملت مصارحتي بأن تجاوبهم اليوم معي كان رائعاً، وليس من السهل أن أجد طاقماً أتآلف معه بهذه السرعة، أطمع لاستمرار العمل، وللنقود مذاق خاص، لكن من ذا يخاطر مع أناس مصائرهم مهددة؟

هام مع دخان سجائره، قبل أن يعود لي بوجه قد أثقله التفكير، وعينين غائرتين في محجريهما، ألقى بكل أوراقه، وجادل بحكم البراءة المتوقع، رددت بسعي "رفعت" خلفهم لكي يحمي امرأته، ويعيد فتح القضية، إن حدث ما يظنه، ويؤكده له المحامي، تدرجت معه حتى سألته بوضوح إن كان الإسم حقيقياً، تردد قبل أن يعترف بصحة الكنية، تمهلت قبل أن أطلب منه أن يضغط على الفتى، إنه الخيط الوحيد الذي يربطهم بالقضية لكن الأمور لا تجري هكذا، العقوبة ستقل حتماً عليه لو أرشد عن الباقين، قفز السؤال على شفتيه بطيئاً وساهماً حائراً إن كنت أطلب قتله، فاتسعت حدقتاي وقفز الذعر إلى ملامحي، طلبت منه أن يكف عن البلاهة، ويسأله التصالح وإنهاء المشكلة، عرضت عليه الشركة رد ماله مع خصم ما استولى عليه، فقال أنكم من ظفرتم بالموبايلات، والذهب، واللاب توب، والنقود، وأنه لم يأخذ شيء لنفسه، زدت من عندي أنه يطلب مقاضاتكم دون المساس بحقه، وعلى استعداد ليدلهم على أسمائكم وعناوينكم، بعد سحابة أخرى طويلة من الدخان والتفكير العميق، جعلني أعيد عليه ما سُرِقَ، هاتف بعضهم وعلا صوته فسحبته خارجاً، اطمأن تماماً لمَّا وجدني صادقاً ومحادثوه يعترفون بالغنائم التي أخفوها عنه، سبهم بأقذع الألفاظ وهددهم بشتى الجرائم، بلغت عصبيته مبلغها وأراد أن يتحرك برفاقه لمحاسبتهم، فنبهته لخطورة ما يفعل، طلبت منه تأمين نفسه ومن كانوا معه، وإنهاء أمورهم العالقة مع الفتى أولاً، أن يتذكر زوجته وطفله والنقود التي في جيبه، والعمليات الهادئة النظيفة القادمة، لا أطلب منه عدم محاسبتهم، لكنه يعرف أنهم حتى لو سرقوا، فقد أنفقوا الغلة في مئات الاتجاهات، وقتلهم لن يفيد، إن تهور وفعلها، أستطيع تعويضه بسهولة وأعده بمستقبل أفضل،

"زكريا" وحده، ذلك العميل الذي استغل ماحدث، وتوقف عن السداد، وباع شقته، واستصدرنا ضده أحكام لم تُنفذ، معنا عليه شيكات بما يقارب المئة ألف، سأمنحه ثلثهم في خطوة، وبربع المجهود والمخاطر التي سيتعرض لها، لكي يصارع أناساً لاتملك قوت يومها، بتوالي العمل تتوالد المشاكل، ويزداد الاحتياج له ولمن معه، لكن كيف يفكر، وأي وجهة يسلك؟

كان للرقم عليهم وقع المفاجأة، فصمتوا وباض على رؤوسهم الطير، راجعني رفاقه فيه وهم متسعي الأحداق مبهوري الأنفاس، أكدوا أني أتحدث عن عمليات نظيفة، وبسند قانوني، دون إراقة دماء، فشددت عليهم إن أكره ما أكرهه هو اللون الأحمر، وأنه دليل حماقة، وسوء تخطيط وتنفيذ، لكن عليهم أن يتخلصوا من الذيول العالقة أولاً، أنا لا أعرف المجموعة التي قامت بالعملية السابقة، وليس بيني وبينهم ثأر ولا خصومة، وأتحدث لمصالحنا جميعاً، وأرجو أن تبلغوهم سلامي، ودعواتي، أن نخرج جميعاً رابحين، ونعود لمنازلنا بسلام، التفتت الأنظار إليه، وتوجهت أجسادهم نحوه، كما لو كانوا في تشكيل عسكري، صار فيه هو القبلة ورأس المدفع، فلم يملك إلا أن يغمغم منتفخ الأوداج: دعوا الأمر لي.

❖❖❖❖❖

استدرجوا الفتى بعد أن رفض لقاءهم مرتين، هددوه بمهاجمته وأهله بمنزله إن لم يأتِ، جاءهم بعد موعده بساعة تقريباً، ممتقعاً متخفياً بنظارة شمسية داكنة وقبعة رأس رياضية، وجلاً قلقاً متربصاً، جاء بدون سيارة، وبمواصلات عادية، طلب منهم بتعجل أن يلقوا ما في جعبتهم سريعاً لتأخره عن موعد لصديق ينتظره، ويعرف أين هو الآن، سألهم عن إصرارهم على مقابلته، ولماذا لم يناقشوا ما يرغبونه هاتفياً، استثارهم من

حيث لايدري بطريقته المتغطرسة، فسروا لهفته وارتباكه احتقاراً وتقززاً، لعبت مُركَّبات النقص دورها الذي لا تخطئه في أمثال هذه المواقف، واجهوه بسعى "رفعت" خلفه لتبرئة اسم زوجته، ورئيس المباحث الذي لم ينسى ثأره، وتأخر ترقيته بسببه، وعدم إنهاؤه القضية، رغم عرض الشركة، وإصراره على الاستمرار وكأنه صاحب حق، بعد كل ما حدث، تركه ذيول قد تجرهم جميعاً، وفتحه أبواب الجحيم مشرعة، ثم أين أقاربه المهمين، أصحاب المناصب والامتيازات، الذين سيمنعون عنه الأذى، متى سيتدخلون، وكيف سيحمونهم إن كان هو نفسه معرضاً لنفس ما يتعرضون له؟

أفاق من أسئلتهم المتلاحقة على عبارة واحدة، أنى لهم أن يعلموا بما عرضته عليه الشركة، كان شديد الارتياب منذ مجيئه وزاد لما ارتبكوا، جادلوا بأنهم عادوا لمكالمتهم كي يستعيدوا منهم نقوده، ويحصلوا على نسبتهم، أليست هذه مهمتهم منذ البداية، كانوا يحاولون معهم لما فوجئوا بهم يخبرونهم بتطورات الأحداث، التي أخفاها هو عنهم، أمام نظراته المتشككة، وإحساسه بكذبهم، وتيقنه منه، ضغط ذلك عليهم، مالوا إلى التعمية بادعاء الغضب، ورفع الصوت، والتحرك بعصبية، والعتاب، والتشويح بالأيدي، بدوره لم تقنعه مبرراتهم، ولا آمن بحججهم، خاصة وقد طلب منهم بعد اقتحام الشرطة لمنزله، وإصابة أمه بأزمة قلبية على أثرها، أن يبتعدوا عنه، ويكتفوا بما حصلوا عليه، يبدو أن صلابة "رفعت" معهم بعد الحادث كانت قد أتت أكلها، دون أن ندري.

زاد قلقه وتوتره، كرر طلبه السابق بأن يبتعدوا عن الأمر برمته ويكفيه ما حدث، وسيكمل هو بالقضاء، سخروا منه وسألوه لماذا لم يلجأ للقضاء منذ البداية، وما الذي يضمن لهم ألا يُعاد فتح التحقيق، وألا يذكرهم

لدى البوليس، عندما يعاد استدعاؤه، تخفيفاً للضغط عليه، خاصة أن هذه المرة لن تكون كسابقتها، حاول الشرح أن هذا احتمال بعيد، أنه في الموقف الأقوى، والأمور تسير لصالحه، ردوا عليه بأن "رفعت" كان كذلك ولم يحسن استغلال موقعه، لماذا يخاطر، وما الذي يريد الوصول إليه، عليه أن يقبل بعرض الشركة فهو في النهاية عرض منصف، حتى إن لم يكن كذلك، سيغلق أبواباً كلهم في غنى عن فتحها، كانوا أصحاب هوى، ورأى صائب، لكن الفتى كان قد أنفق كثيراً، وخاطر أكثر، ولم يصل إلى ما يريد، وكلما حاول أن يخرج من الوحل الذي انجر إليه، وجد قدميه تغرزان أكثر، لكنه ما كان مستعداً أن يقنع من الغنيمة بالإياب، بات الغضب على طرف شفتيه، وأخذ ضغطه يصعد، رفض بصرامة وأنهى الحوار بعصبية، رغم العرق الذي لفه من قمة رأسه، وربما بسببه، استجاب لاستفزازهم، وصرخ فيهم أن أمثالهم لا يأمرونه بما يفعل، وأنه الأدرى بمصلحته، وسيخرجون من حياته، شاءوا أم أبوا، تشاجروا وعلا صوتهم وسبوه، فلم يتمالك نفسه وعايرهم بما سرقوه، رغم أنه أوفى بالتزاماته معهم، رفض التصالح مع الشركة إلا لو ردوا هم ما استولوا عليه، في يأس المشرف على الغرق طلب منهم عدم تهديده، كونه يعرف بيتاً وعنواناً لواحد أو اثنين منهم على الأقل، تبادلوا النظرات، والسجائر المخلوطة بالمخدرات، ثم أجلسوه، وجلس "أحمد أبو النصر"أمامه ليطمئن، ترك أحدهم ليتفاهم معه بهدوء وهو يحدق إليه، قام الآخر ليعد كوباً من الشاى على موقد كيروسين خلفه، ثم، ذبحه من الوريد إلى الوريد، قام الآخران وساعدوه بفصل رأسه عن جسده، ثم ألقوا كلاً منهما باتجاه، رغم ارتياحي لما آل إليه الأمر، أظهرت الغضب وعدم الرضا، كان جسدي يرتجف وأصابعي تهتز رغم أن المحادثة هاتفية، دقائق وتمالكت

نفسي وسيطرت على نبرة صوتي، أمرتهم بالاختفاء واستمهلتهم حتى نجتاز التحقيقات، طلبت منهم أن يجهزوا أنفسهم للعملية القادمة، سأفرح كثيراً بزيارة "زكريا عبد الفتاح"، ذلك الذي استغل ماحدث ليكمل علينا، هل بدأت أسترد وضعي في شركتي؟

❖❖❖❖❖

وأنا في طريقي إليه، كنت أفكر أنه حتى لو أراد بي شراً، سأتمنع عنه قدر استطاعتي، أنا عذراء وسأمنعه من التمادي، ولن يقدر عليّ، إضافة إلى أنه لن يورط نفسه، وحتى إن فعل، أو حملت منه، فقد صار سهلاً إثبات نسب الطفل إليه، والتجارب لدينا باتت تترى، وصارت مشجعة لنساء قويات، محاربات، مستقلات، لا يخشين الفضائح، ولا يردهن الخجل.

كان قد وافق على مقابلتي بعد فترة طويلة من الإهمال، وتغيير الخطوط، وعدم الرد على المكالمات، اشترط أن نتقابل في بهو أحد الفنادق، وقال صراحة أنه قد مل من أفعال المراهقين التي أقوم بها، وأنه قد يدعوني للصعود معه، إن سمحت له ظروف العمل، طلبت التأجيل قليلاً أملاً في كسب مزيد من الوقت، تحججت بالرهبة، بالخوف، بعذريتي، بعدم قيامي بذلك فيما قبل، بدا كأنه لا يصدقني، لكني كنت قد استنفدت، أكثر من ستة أشهر مرت على تركي لـ"رفعت"، وعام على علاقتي مع "العطيفي"، ولم نبارح أماكننا، اقتصرنا على التليفونات التي صار هو من يتحكم فيها، ومتى يرد، ومتى لا يفعل.

ألقيت نظرة أخيرة على صورتي في المرآة، أعدت وضع قطرات من العطر - الذي ابتاعه لي "الأبله القديم" - على رقبتي، وخلف أذني، مررت بإصبع الروج ثانية على فمى، قفزت ابتسامة ساخرة وكبيرة إلى فمي، وأنا أتذكر أني كدت أحرق يدي يوماً من أجله، نفضت رأسي، أنا في الأمتار الأخيرة، وهذه الرومانسيات ستقتلني، ما فات قد فات، والماضي ليس مكانه الآن، على أن أنتبه لمستقبلي، الذي أوشك على صنعه.

كنت قد ارتديت حمالة صدر وسروالاً داخلياً جديدين، ومثيرين، بل وكان السروال في حد ذاته ابتكاراً، بالكلمات المكتوبة عليه، والتي كانت في ظاهرها خصام يمتلئ بالدلال والمعاتبة، والدعوة للاقتراب، فالالتحام، فالاختراق، من كل الجهات، رغم أني أكدت على نفسي مئات المرات أني لن أطاوعه، ولن أصعد معه، مررت بيدي على جسدي، وتأكدت من إبراز هضابه ومنحنياته، حتى لو لم أكن جميلة، يكفي قوامي المنحوت، وشعري الناعم، وبياض بشرتي، لكي يخر أمامي أعتى الرجال، ورغم تدهور الميزانية، والنقص الحاد في النقود، واختلاف نمط المعيشة، وملابسي التي صارت قديمة، وفقدت زهوتها.. ووجهي الذي ملأته بالمساحيق، لأغطي الشحوب الذي يعتريه، والتجاعيد التي بدأت تشق طريقها إليه، إلا أنى استقللت تاكسي دفعت له رقماً لكي أصل إلى الفندق وأنا في أحسن حال، وأفضل مظهر، وأتجنب احتكاكات الميكروباصات، وارتجاج الأوتوبيسات، وتحرشات وسائل النقل الجماعي.

تابعني على الهاتف، ووجدته قد سبقني إلى الفندق، الذي يقع في نفس دائرته، وحجز غرفة في إحدى الطوابق العليا، تطل على حمام السباحة، نظرات الموظفين المتواطئة التي شملتني من قمة رأسي حتى إخمص قدمي، أنبأتني أنني لست الأولى، وأنه قد حجز نفس الغرفة سابقاً، أو على الأقل نزيل دائم بهذا الفندق.. دخلت المصعد وأنا أرتجف، ساقاي من قطن وأعصابي من عجين، وضربات قلبي يمكن سماعها عبر مكبرات الصوت، خَطوْت الممر سريعاً وكأني أتعجل المواجهة التي أخشاها، لن أستسلم بسهولة، ولن أضيع نفسي هباء، بدوره لم يضع وقتاً، وتلقاني على الباب بقبلة طويلة، أطارت البقية الباقية من مقاومتي الهشة، كان قد استعد جيداً واستبدل ملابسه بتي شيرت أسود، وشورت قصير من اللون نفسه،

ورغم صلعته التي تتوسط رأسه فقد بدا شاباً بطقمه الرياضي وجسده الممشوق، امتزج دخان سجائره الرفيعة بعطره الفواح، فشاع في الغرفة طبقة من الروائح الكثيفة والخانقة، اشتركت مع توتري، والخدر اللذيذ الذي يسري في عروقي، والصمت الأشد ضجيجاً من كل الكلمات، في تهيئة الأجواء، لما هو مقدم عليه.

أثنى على لون شعري المصبوغ، ومرر أصابعه بين خصلاته، وتشمم رائحتي بعمق، بعد أن أغلق الباب، وأخذني بين أحضانه، أذابني بقبلات متلاحقة، وبدأ ينزع ملابسي بهدوء مثير، أحاول التمنع، فتخرج كلماتي متأتئة، مطالبة بالتأني والانتظار، فلا يستجيب، وكأنه لم يسمع شيئاً. يستمر في قبلاته وهو يهمس في أذني، أني يمكنني دخول الحمام، منبهاً لبيبي دول ملقى على السرير بإهمال، إن كنت خجلى، لكنه ويده تعبث في جسدي انتبه لما أرتديه، فلم يفلتني. كان قد نزع الملابس الخارجية، وانتهى إلى الداخلية، حينما بدأ التقييم، فألقى بي على وجهي، وجثا فوقي، محتوياً جسدي بين فخذيه، فك مشابك حمالة الصدر، وسحب السروال، فجردني من ملابسي، وصرت عارية تماماً، واختفى التمهل والهدوء. هبط منتهكاً حرمة جسدي وطلب أن أقعى على يدي وركبتي وامتطاني كحيوان، قبل أن يلتصق بي تماماً، ويحاول أن يلجني من الخلف فرفضت، شدني إليه مرتين، محاولاً فرض الأمر الواقع، فازددت عناداً وأنا أرتعش. تجرأت ودفعته عني بقوة أطاحت به من فوقي، ونهته لشراستي. كاد صوتي يعلو فأشار لي مهدئاً، لمحت في عينيه نظرة ساخرة، وشهوة وجنوناً وتوعداً، لكنه استجاب لطلبي وأقامني أمامه منتصبة. كنوع من الانتقام طلب ألا أتحرك فأطعته، صورني من كل الزوايا وتمهل أمام صدري بترقوتي بوجهي، ثم موضع عفتي، قبل أن يبدأ برقبتي وأكتافي فيهرسهما بأسنانه، ثم يعصر

نهديَّ ويشبعهما عضاً وتقبيلاً. كان عنيفاً ومحتقراً ولا مبالياً، فبدأت أطبق أجفاني، وتنساب دموعي بداخلي، إنه حلمي في الأمان والارتقاء والحياة الكريمة، لكني لا أدري لماذا تسلل شبح "رفعت" اللعين، لأجده أمامي كلما فتحت عيني!

عاندته وأغلقتهما، وأنا أهز رأسي نافية، وكأني أنكر وجوده، تماديت وأنا أستجيب لدفعات من معي، الملتصق بي، حتى حافة الفراش، لأسقط فاردة جسدي عليه، مستعدة له، مغلقة رجلي، ومقررة ألا يقربني، لكنه لم يفعل. ظل يقبلني ويضمني ويعضني، بهدوء، بتروي، حتى اشتعلت النار في أعماقي، وبت مشتتة بين هذا الذي ينظر لي في خيالي، نظرة صامتة معاتبة مؤنبة، وهذا الذي يتسلل رويداً رويداً بين ساقيّ حتى تسرب الخدر إليهما، وفقدت السيطرة عليهما، وبدأت أفتحهما لا إرادياً، ثم انهرت تماماً لما بدأ يلجني، وأحسست بدفئه الذي افتقدته عمري كله، وهو يهمس في أذني مطمئناً، ويطلب مني ألا أخاف. لكنه مع تقدمه، ومع كل النار التي اندلعت فجأة، وأحسست بها في أعماقي، وعلى مداخل قبلتي، وقطعة الجلد التي تدمغني وتقرر طهارتي، ترتد للخلف، ولا تريد أن تنقطع بهذه البساطة، فتحت عيني لأعيد تنبيه من يجثم فوقي، أني عذراء، ففوجئت بكم الغل والحقد، المُرتسم على وجهه. بات يمتلكني فعلياً بعد أن شبك ساقيه بساقيَّ، وثبتني إليه، واتصل بي. حاولت دفعه فلم أستطع، ولا أردت، كانت الشهوة قد تمكنت منه، ومني، ولم تزده صيحاتي الواهنة وأنا أطلب منه التوقف إلا جنوناً، ورغبة في المزيد، فلم أملك إلا أن أغمض عيني، وتنثال دموعي، وأهدهد نفسي، وأطالبها بالاستسلام، حتى لو أدى بي ذلك إلى التخيل، أن من كنت ألعنه، والذي ظللت أتمناه طوال عمري، والذي هو

غائب بجسده، حاضر بذكراه، هو من يخترقني الآن، في أصعب لحظة في عمر النساء، وأسعدها.

بعد استسلامي، وخروجي من المعادلة، باح رفيقي بسره وحده، وكف عن الصعود والهبوط بداخلي، والمجهود المضني والمستميت. علت جبهته قطرات العرق، وانقلب بجواري مستنفداً، اعتدل وأشعل سيجارة أطلق دخانها في الهواء، واستمتع بنسمة باردة هبت من النافذة المفتوحة. مع الصمت الذي فرض نفسه أزاح الغطاء قليلاً وتأكد من وجود الدم بين ساقيَّ، كنت في سبيلي لإعلان انتصاري المطلق حينما قطع حبل الصمت بتساؤل استنكاري بغيض، يحمل من الحنق أكثر مما يحمل من الإستفهام، عن ذلك "المخصي" الذي كنت أنا أمامه، كل هذه المدة، بكل هذا الجسد الفارع، ولم يقربني. بدأت مؤشرات الخطر تدق، أيقنت أنه لم يك يصدقني حينما كنت أخبره أني عذراء، هل بدأ يدرك الآن أنه قد تورط؟

سألني عن التبويض، فطمأنته أن ميعاد دورتي الشهرية قد اقترب، لكن تلك النقطة ليست أبرز مشاكلنا، أردفت بعد دقيقة وأنا أنظر إليه باكية. خيّل إليَّ أن عينيه بهما نظرة ساخرة، قبل أن يربت عليّ مطمئناً، ويطلب مني ألا أخاف، غفا قليلاً وبقيت أتأمله واستمتع بعرينا، إلا أن هلعي أيقظه لمَّا دق الباب. هذه المرة كانت سخريته أوضح وهو يرتدي ملابسه ويفتح لعامل البوفيه، ويتسلم منه ترولي الطعام بمزاج مكتئب، طلب مني أن آكل، واحتواني بين ذراعيه لمَّا وجدني أرتجف، صب لنا كأسين من الخمر انفجر أحدهما في عقلي، وساهم في عزلي عن محيطي، ونسياني للعالم من حولي. ألصق شفته بشفتي وجمعتنا قبلة طويلة، قبل أن يطأني ثانية. هذه المرة طاوعته بفعل النشوة، والجرأة، وأملاً أن أجد صدى لديه.

تجاوبت معه ومكنته مني قدر استطاعتي، لكني كنت بلا روح، ولا مزاج رائق، ولا رغبة حقيقية، مما أعطى انطباعاً بعدم تآلفنا. انتهى بعد فترة وطالبني بأن أقوم لأغتسل، انتظرته أن يلحق بي لكنه لم يفعل، سرحت طويلاً تحت الماء الدافئ وزدت حرارته علّها تطهرني، خرجت فلم أجده ولمحت على طرف الكومود المجاور للسرير أوراقاً نقدية وكارت به إسم طبيب ما وتليفونه، فوجئت بأزيز الهاتف ينبئني عن رسالة واردة، كانت منه وكان يخبرني فيها أن الطبيب متخصص في إعادة أغشية البكارة، طلب مني أن ألجأ إليه لكي أعود كما كنت، هذه ليست نهاية علاقتنا، لكنه استمتع جداً بإحساس فض البكارة، ويريد أن يعيد ذلك في قادم الأيام، يأسف لنزوله بهذه السرعة، لكنه تلقى اتصالاً من أحد أصدقائه بشرطة السياحة يطلب مساعدته لأن إحدى فتيات الليل تلقي بلاءها على أحد النزلاء، والفندق كما أعلم في دائرة اختصاصه، سيضطر لاصطحابها إلى القسم، وإلقاءها في الحجز، ريثما يكشف على سجلها الجنائي، ويتبين إن كانت عضواً في شبكة أداب، أم أنها تعمل بمفردها، قبل أن يعرضها على النيابة صباحاً.

❖❖❖❖❖

بدا عليه عدم التصديق، وأنا أقسم أن قتل "محمد عبد الرحمن" كان عرضاً جانبياً غير مقصود، لكنه لم يظهر جزعاً ولا ارتباكاً، واستقبل الأمر بهدوء، وكأنه كان يتوقعه، أو أنه لم يعد يبالي. تنفست الصعداء، "طارق" أقام الدنيا وهو يصرخ أنهم سيستدعونه قطعاً كمشتبه رئيسي، رفض إبلاغه وهو يتهمني حتى خشيت اللحظة، لكن رد فعل "رفعت" كان أكثر اتزاناً ورباطة جأش من أفضل تصوراتي، سألني إن كانوا قد عثروا على الجثة، فأجبته أنهم قد لا يعثرون عليها مطلقاً، يبدو أنه قد أحس بي زهواً فطلب مني عدم الاستهانة بالبوليس، جادلته بما اعتقده حقاً، وما أكده لي أصدقائي من الضباط، أنا لا استهين به، لكنه مشغول بالمظاهرات والمسيرات والأحداث السياسية، دائرة الجريمة يقع فيها مباني أمن الدولة، والمدينة الجامعية، وجامعة الأزهر، وهو يعلم جيداً ما هو الأزهر، ومدى إصرار المتدينين على آرائهم، وإيمانهم بأنها عقيدة، أساء فهمي لمَّا ظن أني أقصده بعبارتي الأخيرة، وطلب عدم اعتباره منهم، هل فقد إيمانه؟

هاتف المحامي واستمع له تفصيلياً، أعاد عليه الخطوات التي ستقوم بها الداخلية، والإجراءات التي سيتخذها ضده رئيس المباحث، أو معاونه، من استدعاء أو طلب للتحقيق، أو مجرد السؤال، الأول أصيب في كمين، عندما أطلق عليه أحد الأشقياء النار، وهو يهرب ببعض المسروقات، فألزمه فراش المستشفى، كنت أستطيع سماع محدثه بصوته العالي القلق، وعباراته البليغة، وحرصه اللامتناهى، وهو يؤكد عليه ألا يطمئن للمعاون، ولا يصدقه، مهما كانت علاقته الشخصية به جيدة، لأنه لن يتردد في إرساله للسجن، إن خطر بباله أنه مشارك بأي صورة، لامجال

للثقة هنا، والخطأ يبدأ من خمسة عشر عاماً، والشك كافٍ للإدانة، كان "طارق" قد طلب مني بإلحاح، ألا أذكر لـ"رفعت" أى معلومة سوى وفاة الفتى، وأن يظل جاهلاً ببقية التفاصيل، حتى لا يسبقه لسانه، وحسن ظنه، وإساءته التقدير، فيوقع بنا جميعاً، حتى اليوم كنت متأكداً أنه سيرسلنا للهاوية، لكن بما أراه منه الآن، لا مانع لديّ من إخباره بكل ما يرغب.

أنهى المكالمة وجلس بتلقائية يجيدها على رصيف الجامع المواجه للعمارة، والذي ينتصب شامخاً خلفنا، فجلست بجواره، شملنا صمت استمر بضع دقائق، تأملنا خلاله حركة الزبائن القليلين الخارجين من المول، الذي يقع أسفل البناية، أبديت ملحوظة عن حركة التجارة المترنحة بشدة، فنظر لي ولم يعقب، شكرته في سري على تجنبه الجدل المعتاد، فرد بملاحظة ساخرة عن جار ليبي جديد، اشترى شقتين في البناية، وأرسل من يدق حديداً في الأرض، ليحجز مكانا لثلاث سيارات، رغم أنه يمتلك اثنين، محل الحلواني المجاور اكتفى بمكانين، رغم أنها سيارة واحدة تأتي مرة في اليوم، لنصف ساعة، تفرغ فيها حمولتها ثم تمضي، وتترك المكان خالياً، اتحاد الملاك وضع ملصقاً عن زيادة الاشتراك في الشهر، حسب أفضلية المكان أمام العمارة، إنهم يبيعون الرصيف، عقَّب بسخرية، ثم أردف بمرارة أنه كان قد اتفق ضمنياً مع السكان، ألا يحجز أحد مكاناً ليس من حقه، وأن الشارع منفعة عامة لا يجوز حبسها، ولا قصرها على شخص، ونجح الأمر لفترة، ولم يشكو أحد، ثم عادت الأمور لعهدها الأول، أليست هذه أملاك دولة؟

بالنسبة لي الأمر مختلف، الدولة كلمة تُطلق في الصحافة والإعلام، لحماية الوظائف والمصالح، ويتولى الدفاع عنها المنتفعين بها، ويتذمر منها

من لم تقدم لهم خدماتها، نحن رجال أعمال، ليس لنا علاقة بهذه المعارك الفرعية، حلت القوة محل العقل، ومؤسسات الحكم محل المحكمة، صارت بلاد من يقدر لا من يفكر، ودافع الموظفين بشراسة عن امتيازاتهم، وتناسوا واجباتهم، فماذا تنتظر من الأفراد، وكيف لا نبحث عن الطريقة المثلى، للاستفادة من الأمر؟

من اتساع عينيه، وحاجبيه المرفوعين، وشفتيه المزمومتين، تبدو إجاباتي وكأنها أدهشته، يتأملها ملياً، قبل أن يردف بسخرية:

.أول مرة أراك فيلسوفاً

أجيبه بحزم:

.لم تكن تسمح لغيرك أن يدلي برأيه، كان لديك يقين أن الدين سيحميك وقد حماني.

قالها بسرعة وحدة، فجاوبته بمثلهما سريعاً:

.لكنه لم يمنعك أن تتعرض لما يتعرض له باقي البشر

تفرس في وجهي ولم ينبس، فاجأته وأصبت منه هدفاً، استغللت الفرصة لأُكمل عليه، علَّنا ننهي صراع الديكة هذا، ونفيق لحالنا، ذكرته بحديثنا المرة الماضية، في نفس المكان، وبكلماته عن لغة العاجز، ما رأيه الآن، وماذا عن قتيلنا، الذي لم تبرد دماؤه بعد، يبهت لحظة، يصمت دهراً، يجيبني بمنتهى الهدوء، أن الزمن قد اختبر أرواحنا، ففشلنا جميعاً.

تطربني عبارته، وتفحمني، فأتشاغل بالنظر للسماء الواسعة، لا فائدة من هذا الرجل، ينهض مغادراً فأتأمله، قبل أن أقوم خلفه منادياً، يتوقف ملتفتاً بعيون متسائلة، أطلب منه أن يعتني بنفسه، ترتجف شفته السفلى، وتضيق عيناه، ويفاجئه قولي، لحظات ويفتح لي ذراعيه عن

آخرهما، يفتحهما بمودة وترحاب، فأخطو وأعانقه، لن يتغير، ولا أنا كذلك، أمامه خطوة أخيرة، وأتمنى أن نجتاز الأمر بسلام.

وأنا في مكتبه بعد كل استقباله الدافئ والمرحب، والذي ينم أثاثه عن ذوق سليم ومقتنياته الشخصية عن رقيّ وأناقة، اعتذر لي لاضطراره القيام بعمل رئيسه الغائب، لم تغب عني ملاحظة أنه استقبلني في مكتبه هو، وتركني فيه، ولم يعاملني كمتهم، وأبقى على الحفاوة بيننا وهو يستقبلني، وطلب لي مشروباً ساخناً، وترك نور الحمام الملحق مضاءاً، وأمر الساعي بموالاتي كل ربع ساعة إذا تأخر، وضع ريموت الدش تحت يدي، وأبقى التلفاز مفتوحاً على قناة محايدة، ضبط التكييف على درجة هادئة، وأنار السقف والأباجورات، فأعطى الغرفة جواً احتفالياً، جاء بعد ثلث ساعة وأعاد الاعتذار، سألنى لماذا لم أحضر محامياً معي فأجبته أني لا أنوي الكذب، ولا استغلال ثغرات القانون، فاجأه ردي فحدق بي بشك هو من علاماته المميزة، زدته جرأة لما أردفت أني لذلك لا أجد داعياً لتحطيمي نفسياً بطول الانتظار، بدا على وجهه الضيق وهو يغمغم أنه يقوم بعمل شخصين معاً، وأنه رغم انتدابه مكان رئيسه فضل أن نظل على علاقتنا القديمة كأصدقاء، ولا يستقبلني في المكتب الآخر، اعتذرت له وأقسمت أني أمزح، وأعرف حجم الأعباء الملقاة على كاهله منذ عودة الدراسة بجامعة الأزهر، رد الضربة بمثلها لمَّا تساءل بخبث:

.لا تريد القول منذ الانقلاب العسكري.

.يدعونها ثورة سيدي.

.أنت لا تعترف بها كذلك.

.إني أعترف بثورة يناير.

.يناير هذه فعلتموها وتركتونا نجتر سيئاتها.

.من شدة العدل وحقوق الإنسان تبطرنا على النعمة.
نظر لي غير مصدق، زوى ما بين حاجبيه وجعد جبهته، تساءل وهو لا يزال واقفاً:
.حقوق إنسان لمجرم، وبعد كل ما مررت به؟
.يبدأ الأمر بتجاهل حقوق المجرم، ثم يستغله الفسدة لمصالح شخصية، فتضيع حقوق البلاد والعباد.
.من أخطأ يُعاقب.
.من يحاسبه ابن جلدته، ضابط مثله.
.الأمن العام لدينا لا يتفاهم.
.يخيفكم لكنه لا يوقع عقوبة فعلية.
.ليس شرطاً الفضيحة.
.الإثم ما حاك في صدرك، وخفت أن يطلع عليه الناس.
يتساءل ساخراً:
.وهيبة الجهاز؟!
.اللص لا يقيم لأحد هيبة.
.والباقون؟
.الباقون معك منذ البداية، ولا حياة لهم بدونك.
يبهته الرد ويفاجئه، يعجبه المنطق لكنه لا يريد التسليم به فيصمت، يشعر أن الحوار أفقده جزءاً من امتيازاته، لكن تقطيبة حاجبيه تقل، وتكسو ملامحه راحة، يتشاغل بشحن تليفونه المحمول ويذهب ثم يعود بأحد الأمناء ودفتر كبير، يجلس خلف مكتبه ويبدأ مساعده في كتابة عباراته الافتتاحية، على حين يغمغم هو:
.تريد حذفي من المشهد!

أوضح بهدوء:

.أريدك موظفاً في الدولة.

.إنى كذلك.

.أنت الباشا.

.أنا خط الدفاع الأخير قبل أن يلتهمك الغوغاء والشعبيين .

.طالما هم في بؤسهم سيلتهموني ويلتهموك

.وحتى يذهب بؤسهم؟!!

.نريد مجتمعاً أكثر عدلاً وإنسانية

.أحلام شاعر ضل طريقه لعالم المال والأعمال

.أصحاب نظريات التكافل الكبرى بالغرب رجال أعمال

.هذا عمل المصلحين الإجتماعيين وليس عملي

.طالما القبضة الأمنية خانقة لن يعمل أحد

ينظر لي وكأن بي مساً:

.تريد مني ترك البلاد لمن يعيث فيها فساداً

.أتلف شركتي إحكام قبضتي عليها.

.جنون لا يمكن تطبيقه

تفاجئه نظرة متسعة في عيني، ورد منعني الحياء منه، فينتبه لعصبيته، يتنحنح بحرج،

يستدرك مهوناً:

. أنت لا ترى من أراهم كل يوم، صباحي يبدأ بجمجمة مهشمة أو ذراع مبتورة أو ساق مقطوعة.

.عملك وليعنك عليه الله

يعتبر إجابتي السخيفة رداً لعبارته السابقة، فيكتفي بنظرة جانبية، ويغير الموضوع:

.نعود لعملي، لماذا قتلته؟

.تعلم جيداً أني لم أستطع سابقاً

.فما الذي تغير

.لم يتغير شيء

.من قتله؟

.لا أدري!

يبادلني نظرة ثاقبة، يطوي الدفتر المفتوح أمام معاونه ويطلب منه الانتظار خارجاً، ينادي على خادمه ويطلب لي مشروباً جديداً رغم رفضي، يتحدث بهدوء وبصوت خفيض محاولاً تلطيف الأجواء، يطلب مني الثقة به ليساعدني، أجيبه بانطلاق أني لست بحاجة لمساعدته، لأني فعلاً لم أقم بشيء، يصمت لدقائق وهو يحدق فيَّ محاولاً سبر أغواري، وازناً صدق كلماتي، يدور بكرسيه نصف دورة ليواجه النافذة المغلقة، يقوم ليجلس أمامي ويواجهني مباشرة بنظرة ثابتة، ونبرة محايدة، أقرب إلى الرجاء:

. أعرف نقاء معدنك ولا أشك فيك قسماً بأولادى، هذا الحوار خارج التحقيق، لكن يجب أن أفهم لأتمم عملي، ما أطلبه منك جنون، لكننا أصدقاء، وبيننا من الثقة مايكفي لتجاوز المقدمات الطويلة والمنحنيات الصعبة، هل أنا واضح، أم أنك ستظن هذا أيضاً تهديد؟

أبادله نظرة شك قبل أن أشيح بوجهي، أطرافي باردة وما أنا مقدم عليه خطر، لكني أثق فيه حقاً، أزفر بقوة وأهز رأسي ببطء علامة الموافقة، أتمتم بهدوء حذر إجابة كان يتوقعها:

."أحمد أبو النصر"

.لماذا؟
.كي لا يدلك عليه
.كيف علمت؟
.هاتفنا تليفونياً
.من أي رقم؟
.من الأرقام التي لديك
توقف مفكراً، أعاد صياغة الأسئلة بطريقة أخرى وثالثة واطمئن لما وجد الإجابات نفسها،
نفس الأسلوب الذي اتبعه وكيل النيابة في التحقيقات، لماذا لم يبذلوا نصف هذا الجهد في تتبع المكالمات سابقاً.. أفلت منه اقتراح بعد برهة:
.نصطاده بكمين
.لا أريد الدخول معه في متاهة
.خائف؟
.ربما مللت!
.ماذا طلب منكم تحديداً؟
.يريد السلام وأن يمضي كلٌ منا في طريقه
.أتعرف أنه يمكنني اتهامك بسهولة
.من أجل من؟
.الفتى الذي مات
.مجرم استعان ببلطجي فانقلب عليه
.بهذه البساطة
.هناك ما هو أبسط
.زدني

.تجاهل فض المظاهرات واذهب للقبض عليه

ردة فعله تنبئني بمفاجأته وربما غضبه، لكني أدرك من تماسكه السريع أنه لا يريد أن يجادل، أو أكتفى، أو سمع هذه الكلمات قبلاً، وربما عشرات المرات، يشعل سيجارة ويكتفي بالنظر لسحب الدخان المتصاعدة، يبدو جلياً أنه يبحث عن عقله ويحاول السيطرة على مجريات الأمور، يسألني بلا مبالاة:

.أتدرك أنك مستفز ؟

.أدرك أني لا أكذب عليك

يقوم لكرسيه ويشي انطلاقه بارتياحه، يضغط جرساً يستدعي به الأمين المساعد ويطلب منه فتح الدفتر، يمليه بصوت مسموع ما يفيد بعدم توصل التحريات لشخص بعينه تقع عليه تبعة الجريمة، مع ترجيح أن يكون الفاعل أحد أفراد التشكيل العصابي المجهول الذي ترأسه القتيل لحظة قيامه بالسرقة، خوفاً من أن يتوصل أحد لمعرفتهم، ورغبة منهم في أن يطويهم النسيان.

ينتهي من إملاءه ولا يحاول النظر ناحيتي، وهو يخبرني أن بإمكاني الذهاب، اسأله عن السبب فيجيبني بأنها قناعاته ولا ينكر، أشكره وأقوم بهدوء، قبل وصولي للباب يأتيني صوته مذكراً أن الدماء هي الذنب الوحيد في الإسلام الذي لا تصالح فيه، يسألني إن كنت قد أخفيت شيئاً، أترك المقبض وألتفت لأواجهه، أطلب منه إجراء بعض التحريات، وسيعلم أني صادق، يفاجئني أنه أجراها فعلاً وتوصل لنتيجة تقريبية تتوافق مع أقوالي، يتراجع أمام دهشتي واستنكاري بأنه يؤدي عمله، أهز رأسي بعد لحظات متفهماً واستئذن للانصراف، يقوم ليصافحني مودعاً، يضغط يده في يدي، فأرد بقوة أشد، وبنظرة أكثر ألقاً، هذا رجل شريف، وأتمنى

ألا تصل الأمور بيننا للتصادم، لكن السوق، والأيام، والصراعات، وكثرة الخيانات، علمتني ألا أثق في المستقبل كثيراً، ضرائبي وسأدفعها، شئت أم أبيت، لا أدري كيف لأمثالي بعد الآن، أن يعيش ويخرج، يأكل ويشرب، ينام ويصحو، وهو يفتقد الأمان دوماً في كل خطوة، ويشك في كل ما حوله، وينتظر غدراً أو مصيبة وراء كل ابتسامة، ويعد أصابعه بعد كل سلام أو مصافحة، هل كان أبي محقاً وهو يحذرني من الطريق وأهواله، وهل كنت بالمقابل مستعداً لحياة الموظفين الضيقة، أو الإعارة المهينة؟

❖❖❖❖❖

داليا الوكيل

الأجيال الجديدة ستأخذ مكانها مع الوقت، والقدماء لا يمكن تغيير أفكارهم بعد كل هذا العمر، الديكة المسنة لا تحيي الشمس المشرقة، هذه أيامك أنت وعليك أن تشقي طريقك.

كانت هذه كلماته لي بعد تصاعد المشاكل بيني وبين أمي بفعل تقدمها في العمر، وبقائي بجانبها كثيراً، إثر إغلاق الشركة لفترة، تدهورت الأحوال لدينا بعد الإعلان عن تفريعة قناة السويس، هبط عدد العملاء بشكل غريب ومفاجئ، ولم أتفهم السبب إلا حينما علمت بتضاعف الفوائد لكل من سيودع نقوده بهذا المشروع، استسهل الناس الأمر، سُحِبت النقود من السوق، ووضعت في البنوك، وتوقفت تجارتنا ضمن تجارات أخرى كثيرة، فرد مهندسي بتقليل العمالة، ثم هبط بالمرتبات إلى النصف، قبل أن يغلق الشركة تماماً، يئس ولم تعد به رغبة للقتال، واختفت كلماته عما يراه في صالح البلاد، اتبع ذلك بالقيام بما كان يقول أنه لن يفعله أبداً، لجأ لتسقيع ما يملك، وهو يردد مثلاً شعبياً دارجاً، عن تصرفك حال كونك في بلاد سفيهة، يصر من فيها على عبادة البقر.

وجدتني بعد كل هذا العمر، وهذه الخبرات، هذا الزهو، وهذه القدرات، بلا عمل، أحتاج أن أبدأ من جديد، أتقدم لشغل وظائف في إعلانات، ولدى أناس، لم أكن لأقبل بهم لو كانوا قد تقدموا للعمل في شركتي، لكني لم أكن لأتحمل عشرة أمي، خاصة وقد زادتها الوحدة، والتقدم في العمر، جنوناً فوق ما كانته، منذ أن خسرت أبي، رغم أنه لم يك يوجد من العلامات ما يشير إلى أنها ستمضي في هذا الطريق.

عاقبتها الأيام بما يكفي، وصارت إلى الوحدة والنسيان، وانشغلت أنا وأختي كلا منا بدنيانا، فاتخذ طبعها السيئ أبعاداً خرافية، زاد الطين بلة لما أمر زوج أختي، صاحب المؤهل الأقل، والتعليم الأدنى، والبيئة الشعبية، والذي كانت تسخر منه أمي فيما مضى، وتدعوه لتقبيل يديه ظاهراً وباطناً، أن قبل مثلهم، بمثله، زوج أختي ذاك، أمر تلك الأخيرة، بعدم دخول أمي إلى المنزل، بعد أن لاحظ أن امرأته تتشاجر معه، كلما زارتهم، وأن بيته أقل هدوءاً، وأكثر شيطانية، إثر تلك الزيارات، بل وطلبت منه أمي مرة أن يكتب لأختي شيئاً مما يملكه، فكاد يلقي بها خارج المنزل، لولا تدخل شقيقتي، التي صرخت فيها، طالبة منها أن تصمت، ولا تثير في بيتها القلاقل، كانت شقيقتي تقول لي صراحة أنها تعتبر أمنا فاشلة في حياتها، وتطلب مني خلال محادثاتنا الإلكترونية ألا أقتدي بها، وأن أتجنب خطواتها، رغم أنها من أشارت عليها أن يكتب أبي معاشه وشقته باسمها، حينما عرض ذلك الأخير الصلح فيما مضى، لمَّا رفض أبي، رفعت أمي دعوى خلع لم نفهم لها معنى إلا في إطار الغيظ والمكايدة، وفوجئت أنا شخصياً بكم النفور والاستهجان الذي أثارته تلك الفعلة، وأخوالي لفترة، يتجنبون وجود زوجاتهم وبناتهم، بحضرتها.

في انتظار المصيبة الآتية، اكتملت عزلتي، ووجدتني وحيدة تماماً، بلا عمل، ولا منزل، ولا زوج، بعد أن رفضت العاهات التي جاءت بهم أمي، والذين يشبهونها تماماً، ولا يتفقون مع نصف طموحاتي، والمهندس الذي اعتدت عمري كله أن أتكئ عليه، وأستند إلى أكتافه وسواعده، قد أراح نفسه، وأغلق شركته، وألقى بي إلى الشارع، إثر تصاعد خسائره، حمدت الله على بلائي، وأمضيت أيامي هاربة من بيتي، ذاهبة لأحد أخوالي، الذى تم تعيينه مديراً لمحطة وقود قريبة منا، فوجدتها فرصة لتضييع الوقت

لديه، أتأمل الغادين والرائحين، وأتناول طعاماً مختلفاً كل يوم، وأحصل على خصومات من المطاعم المؤجرة، بعد أن بعت سيارتي، لكي يظل معي ما أنفقه، وأحرص على ألا أوقعه في إحراج من أي نوع، خاصة وقد كان يعاملني كابنته، وأجاد الاحتفاظ بمسافة طيبة بيننا، دون أن يقترب من المشاكل المتفجرة بيني وبين أمي. ظللت معها في شد وجذب لا ينتهي، حتى هاتفني مهندسي من جديد، طلب مني أن أستعد للعودة إلى العمل،. حدد لي ميعاداً وطلب مني أن أتهيأ له، وبأفضل ملابسي الممكنة، لم أرد إخباره عن "سهام"، التي لمحتها بالصدفة، تجلس وحيدة، حزينة، صامتة وذاهلة عما حولها، في طريق "صلاح سالم" الرئيسي، بجوار النفق، حتى أنها لم تنتبه لي، إلا أن لساني سبقني، وأنبأته، صمت دهراً، نطق بعد فترة، بصوت هادئ ومحايد، وكأن الأمر لا يعنيه، أخبرني أن الأمور اختلفت، والأحوال تغيرت، وما كان مستحيلاً، صار ممكناً، دخل معنا شركاء جدد، بقوانين جديدة، ولم تعد هذه الذكرى، من الأمور المهمة!

❖❖❖❖❖

الختام

.أريد أن أتأكد من رد فعلك

.بأي شأن؟

.ماذا لو جاءك ضابط يقتحم الشركة محاباة لأقاربه؟

.سأرسل إليه من يضربه بالنار

نبهته الإجابة، والنظرة المتحدية، المتحفزة، التي ارتسمت على وجهي، كان يعتقد أني تعلمت، قد أكون انكسرت، يزفر بقوة، يردد بهدوء:

.ما رأيك في حل أفضل وأقل عنفاً؟

.كلي آذان صاغية

.سنرسل له هدية ما، ساعة مثلاً

.والقانون؟

.قد اتفقنا أنها بلاد من يقدر

.والتكلفة؟

.يمكننا زيادة الأسعار قليلاً

.والفقراء؟

.هل عدت لتكرار اسطوانتك المشروخة؟

بدا واضحاً من جمود وجهه أن عيني التمعتا بغضب فجابهني بثبات، حدقت فيه فبادلني،

لبثنا على موقفنا لدقيقة قبل أن يخفض عينه من عيني ويشيح بوجهه، بادرته بعد لحظات:

.فعلت كل ما يمكنني لتجنب هذا المصير بلا فائدة.

.أحياناً يلقى الرجل مصيره على نفس الدرب التي سلكها ليتجنبه.

.لا تنقصني فلسفتك، لم أرد إلا أن أكون مبدعاً.

.في البلاد الحرة فقط يمكننا أن نحلم.
خيَّمت لحظات من الصمت قبل أن يتنحنح منبهاً لوجود "داليا"، قال بمرح مصطنع أن "هشام" أوصاه بمن ستجئ ضيقة الملابس أو قصيرتها، مفتوحة الصدر أو عارية الذراعين، حتى حضوره الذي سيتأخر لأسباب لم يقلها، لكني أعرفها.
كنا في حفل افتتاح الفرع الجديد، وقد دعا ثالثنا الغائب كل أصحاب الشركات المنافسة، وبعض الإعلاميين، وأصحاب مواقع على النت، ورؤساء تحرير، إضافة إلى موظفاته الجديدات، اللائي شجعهن على ارتداء مايشاءون، ألقى كلمة ما عن مشروبات روحية خفيفة كالبيرة والنبيذ، قبل أن أقيم الدنيا ولا أقعدها، تنتابني ثورة عارمة، أرغي وأزبد، وأنا أقسم له على إهانته وضيوفه، إن تجرأ وفعلها، ويكفي أنه فرض رأيه، في ملابس النساء.
ذهب "طارق" وأوليت وجهى شطر النافذة المفتوحة، متنشقاً الهواء، وازناً كلماته السخيفة، المعلنة انتصار منطقه، قبل أن يجرفني الحنين، لأتذكر، بمرارة، بهدوء، بغصة في الحلق والنفس، عيد ميلادي الخامس والعشرين، وقد افتتحت شركتي منذ ستة أشهر، الأثاث القديم المستعمل، والردهة الطويلة الضيقة، والباركيه المكسور المغطى بسجادة، وعشرات الأشخاص في انتظاري خارجاً، لنحتفل بكعكة بسيطة، وشمعة واحدة، وأكواب شاي، وفقرنا وإمكانياتنا المتواضعة، ونقودنا كلها التي وُضِعت في ميزانية التأسيس، واقترضت فوقها، وصرت أنتظر من الله السداد، أبي الغير مقتنع بدخولي عالم التجارة، والرافض لأي مساعدة قد يقدر عليها، والدائنين الذين لن يتأخروا لحظة في حبسي، إذا تعثرت، والقلوب البسيطة، الطيبة، الدافئة والشابة، المخلصة والمتفائلة،

المنتظرة معي وبي غداً أفضل، وأياماً أجمل، ومستقبلاً أكثر إشراقاً، "صالح سعد"، "أيمن نور"، "رياض العادلي"، "محمود النواوي"، "ياسر فؤاد"، "محمد عيسى"، شقيقي، "مروة"، "محمد شفيق"، "هبة"، "سحر"، "سعيد النمر"، "محمد عطية"، "خالد حمزة"، وقبلهم "منى"، "هشام"، وآخرون تاهوا مني في الزحام وتراكم الذكريات، كلهم مروا في حياتي كالشهب، أشعلوا ليلاً وأضاءوا ظلمة وأناروا درباً، وحققت بهم ما كان في عرف الشركات والسوق مستحيلاً، أحببنا بعضنا رغم اختلافاتنا، وضعفنا وقلة خبرتنا، واستعنّا على الأيام بصحبتنا، تكاتفنا ولمتنا، نشاطنا واجتهادنا، في حلم البراءة الشفافة ذاك، قبل أن يفعل بنا الدهر أفاعيله.

عندما انتقلنا إلى الفرع الأجمل والأقوى بنفس العقار في روكسي، كان "هشام" قد ذهب، ضمن آخرين ذهبوا، صار عددنا أقل، الأعمدة الرئيسية بقى منهم ستة، الباقون موظفون، كثيرون ومتغيرون، ولا يدينون للمكان ولا للصحبة، عندما انتقلت لمدينة نصر، كنت أنا وزوجتي و"سهام"، وربما بدأت "داليا" تظهر في الصورة، ها أنا الآن افتتح فرعي الجديد، نقودي أكثر، أعمالي أفضل، شركتي أفخم، الدائرة حولي أصغر، أتذكر مقولة "طارق" الصعبة، أنه كلما صعدنا كان الهواء أخف، والرفقة كذلك.

استغرقتني ذكرياتي وقررت البحث عن صوري معهم لتجميعها، أنا الذي لم أبالِ يوماً بمثل هذه الأشياء، أفقت على أناملها الرقيقة تلمس كتفي، فاستدرت إليها، نبهتني أن عيني مغرورقتان بالدموع، فمسحتهما بيدي وأنا أنكر، تأملتني لحظة، وددتُ أن تصمت، لكنها كعادتها لم تفهم، ولا انتظرت خروجي من حالة الشجن التي كنت فيها، هاجمت بلا تردد، سألتني عنها وعن أمثالها، عمن لا تريد أن ترقص أو تبتذل جسدها، عمن

تريد العمل لإعالة نفسها، والزواج لأنها الفطرة، والتأنق لأن الإنسان يحب الستر، عن الصعود بمجهودها لا بالطرق الملتوية، بعقلها لا بجيبتها، ولا ثديها، عن تسمية الأشياء بمسمياتها، لا بما يجيد البشر ببلاغتهم المعهودة تزيين الشر به، عن الخط المستقيم الذي هو أقصر الطرق بين نقطتين.

لا أدري لماذا طاف بخيالي صورتها وهي تهرب أثناء الحادثة، "هيثم" وهو يسألني نفس الأسئلة قبل سفره للخليج، بعد فشل "يناير"، وطلبه تغيير العالم بسلمية مطلقة، بلا هجوم ولا شراسة، ولا تحفز، وإدراك أن "الآخرين"، حتى لو علموا أنهم على خطأ، لن يتنازلوا عن مكاسبهم، وامتيازاتهم، وسيهاجمون، وبأشد الطرق قذارة، وجهها الخمري الصافي، نظراتها الرائقة، صوتها العالي، والعزم في عينيها، يتمثلون أمامي بوضوح، فلا أجد إجابة، أفر منها مستديراً للنافذة، معطياً إياها ظهري، وقد انحشرت الكلمات بحلقي، أسمعها تناديني باسمى، مسبوقاً بلقبي، مرة بهدوء، الثانية بتعجب، الثالثة باستنكار، أسمع صوت أقدامها الغاضبة تمضي، وكعبها العالي يدق السجاد الفاخر، الذي يغطي البورسلين اللامع، في الشركة الجديدة، التي أنفقت عليها مايجعلها مبهرة في عيون الزائرين، استعراضاً لقوة، وتدشيناً لخبرة، وادعاءاً لنقود، أكثر مما معي، الليل طويل، والنجم بالأفق حائر، أضواء الأعمدة الصفراء بعيدة، أصوات الكلاكسات خافتة، لساني منعقد، فكري مشلول، وعقلي لا يريد الإجابة.

❖❖❖❖❖